
السفارات الإسلامية
إلى
الدولة البيزنطية
سفارات الدول العباسية والفاطمية والأموية في الأندلس
تأليف
الدكتور سليمان الرحيلي
من نشر المؤلف
الرياض ١٤١٤هـ
طبع
مكتبة
التوبة
http://al-maktabeh.com



السفارات الإسلامية
إلى
الدولة البيزنطية

بسم الله الرحمن الرحيم

السفارات الإسلامية
إلى
الدولة البيزنطية

سفارات الدول العباسية والفاطمية والأموية في الأندلس

تأليف
الدكتور سليمان الرحيلي

من نشر المؤلف
الرياض ١٤١٤هـ

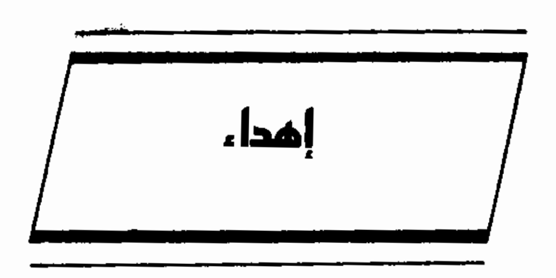
طبع
مكتبة
التوبة

هذا البحث في الأصل رسالة علمية نال بها الباحث درجة الدكتـوراه في التاريخ مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٤٠٦ هـ

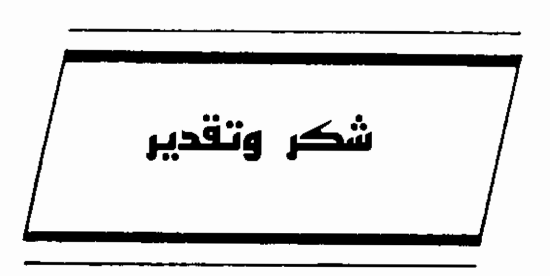




الرياض- شارع جرير- ص.ب. ١٨٢٩٠ الرمز ١١٤١٥
هاتف ٤٧٦٣٤٢١ - فاكس ٤٧٩٠٤٤٣ - المملكة العربية السعودية



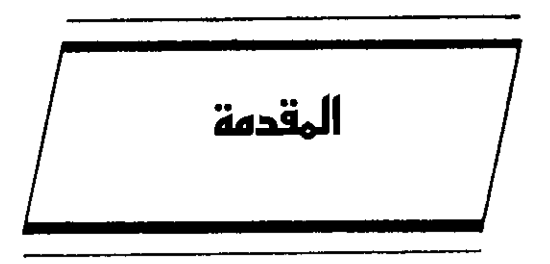
إلى طلاب العلم، وإلى الذين يمثلون أمتهم عند الآخرين وفي كل محفل ومناسبة ملتزمين برسالتها متفيئين بمبادئها في كل عصر وفوق كل أرض وتحت كل سماء. أهدي صفحة مشرقة من تاريخنا الدبلوماسي



يتقدم الباحث بوافر الشكر والتقدير إلى الأستاذين الفاضلين الأستاذ الدكتور فتحي عثمان والأستاذ الدكتور علي الغمراوي اللذين رعيا هذا البحث إشرافاً وتوجيهاً وإثراء متمنياً لهما دوام الصحة والتوفيق والأجر والمثوبة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾



المقدمة

الحمد لله العلي القدير والصلاة والسلام على البشير النذير وباعث السفير محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وسار على نهجه وأتبع هداه. وبعد...

تتبوأ العلاقات الخارجية مكانة هامة في تاريخ الدولة الإسلامية على امتداد عصورها. فقد أقامت هذه الدولة العلاقات المتعددة مع عدد من دول العالم المعاصرة لها، حتى صار لتلك العلاقات مجالات مختلفة سياسية وحربية واقتصادية وثقافية وأصبح لكل منها شأن ومراسم وتقاليد معينة.

وتؤلف السفارات واحدة من أهم تلك العلاقات بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول، وركيزة هامة في فتحها واستمرارها. ووصلت السفارات الإسلامية - في عصور مختلفة - إلى بلاطات ملوك الصين والهند في الشرق، وملوك الفرنجة في الغرب، وأباطرة الدولة البيزنطية في الشمال.

وتعددت وفادات السفارات الإسلامية إلى تلك الدول، واختلفت أهدافها ونتائجها وتفاوت أقامتها بين دولة وأخرى، وتفاوت أيضاً عدد أعضائها ومكانتهم في دولهم، والاستقبال الذي لقوه في الدولة الموفدين لها، مما يستدعي الباحثين في التاريخ الإسلامي دراسة هذه السفارات بين الدولة الإسلامية في عصورها المختلفة وبين كل دولة من الدول المعاصرة لها. وهو جانب لا زالت الدراسات التاريخية المتعمقة فيه محدودة، ولم يجل غامضه، أو يكشف مبهمه الموجود في المصادر التاريخية الإسلامية أو غيرها.

وجاء اختيار موضوع السفارات الإسلامية إلى الدولة البيزنطية مخصصاً بالسفارات العباسية والأموية الاندلسية والفاطمية إليها بغية الوفاء ـ إن شاء الله ـ بدراسة جانب مهم في علاقات الدولة الإسلامية الخارجية بقوة هامة عاصرتها هي الدولة البيزنطية التي كانت إحدى دول العالم الكبرى آنذاك، ومن ثم تتبع تلك العلاقات وتحديدها وتحليلها قدر الامكان ووفق المتاح في المصادر والمراجع المختلفة لا سيما أن تلك الدول الإسلامية تمثل أقوى دول الإسلام التي عاصرت الدولة البيزنطية، وجرت بينهما السفارات وتبودلت الوفادات والمتاجر لفترات امتد بعضها أكثر من خمسة قرون تعاقبت خلالها فترات الحرب ووفادات السفارات وتفاوتت في دوافعها ونتائجها ومراسم استقبالها وموقف البيزنطيين منها إلى غير ذلك من الموضوعات التي تتعلق بالسفارات.

وهي موضوعات تحتاج إلى دراسة تاريخية تبرزها وتوضحها، وتجمع شتاتها وتقارن بينها وتحلل أهدافها، وتتبع بعمق بواعث إيفاد سفارات تلك الدول الإسلامية المختلفة مذهباً وسياسة إلى الدولة البيزنطية أقوى دول دار الحرب بالنسبة للمسلمين في عصرها وتتقصى كل ذلك ما أمكن.

كما أن دراسة السفارات العباسية والأموية والفاطمية مجتمعة تبرز موقف العالم الإسلامي وقتذاك ممثلاً في أهم دوله إزاء الدولة البيزنطية المجاورة له وحارسة بوابة شرق أوروبا من محاولة فتحها أو امتداد نفوذه إليها، وهي القوة التي عاصرت تلك الدول وامتدت الصلات وقامت العلاقات معها سلماً وحرباً.

ومن خلال دراسة السفارات الإسلامية إلى الدولة البيزنطية، ومعاملة البيزنطيين للسفراء المسلمين تتضح لنا متغيرات السياسة البيزنطية تجاه القوى الإسلامية العظمى في العالم الإسلامي واتجاه السياسة البيزنطية نحو المسلمين ككل. وهنا لا نستبعد أن تكون بيزنطة قد وضعت في اعتبارها الفروق المذهبية والاختلافات السياسية في العالم الإسلامي، وهذا ما

أقتضى البحث دراسة سفارات الدول الإسلامية الثلاث الكبرى لمعرفة حدوث ذلك وتحقيقه من عدمه.

ثم إن هذه الدراسة تأتي لتوضح جوانب هامة من تاريخ المسلمين الدبلوماسي، هذا التاريخ الذي يعتبر ناصعاً بمبادئه ومثله ومراسمه النابعة من سمو شريعة الإسلام الخالدة وشمولها.

وقد جاء هذا البحث في مقدمة وستة فصول وخاتمة وعدد من الملاحق، ونظراً لطول المرحلة الزمنية التي تعاصرت خلالها الدولتان العباسية والبيزنطية وخضم أحداثها في مختلف المجالات ومنها الاتصال الدبلوماسي بين الجانبين فقد أفردت له فصلين فجاءت فصول البحث على النحو الآتي:

الفصل الأول:

يتناول تعريف السفارة قديماً وحديثاً، وبوادر السفارات الإسلامية في العهود السابقة، وصفات السفراء الشخصية والسياسية والثقافية، كما يتناول تعريفاً عاماً بالديوان الذي كانت تصدر منه الرسائل التي حملها السفراء المسلمون ثم أوراق الطريق والرسائل وأهميتها والهيئة التي كانت عليها، ثم الحديث عن نظام الأمان الذي كان يمتع به السفراء في الدولة الإسلامية وهو النظام الذي تمثل ما نعرفه بالحصانة الدبلوماسية وجهاً من وجوهه المتعددة.

الفصل الثاني:

يتناول سفارات الدولة العباسية في عصرها المبكر إلى الدولة البيزنطية، وقد شمل البحث فيه ما كان بين الجانبين من سفارات ومكاتبات وهدايا متبادلة بين الخلفاء العباسيين الأوائل والأباطرة المعاصرين لهم.

الفصل الثالث:

يتحدث عن سفارات الدولة العباسية إلى الدولة البيزنطية منذ عهد المتوكل حتى سقوط بغداد. وقد تتبعت في هذا الفصل سفارات الدولة العباسية في مراحل سيطرة الأتراك والبويهيين والسلاجقة حتى سقوط الدولة نفسها، موضحاً دواعي كل سفارة وأهدافها ونتائجها كعقد الصلح وتوقيع الهدن والمفاوضات بشأن الأسرى واللاجئين، والهدايا التي حملتها تلك السفارات.

الفصل الرابع:

بحثت فيه سفارات الدولة الأموية في الأندلس إلى الدولة البيزنطية، في عصري الإمارة والخلافة، وناقشت أهدافها في هاتين المرحلتين، وهل كانت هذه السفارات على حساب الدولة العباسية والدولة الفاطمية في المشرق اللتين كانتا تناصبان الأمويين والبيزنطيين العداء على السواء، كما ناقشت آراء بعض الباحثين في هذا الصدد.

الفصل الخامس:

يدرس سفارات الدولة الفاطمية إلى البيزنطيين سواء عندما قامت هذه الدولة في المغرب أو عندما استولى الفاطميون على مصر وسيطروا على فلسطين والشام، وقد تتبعتها حسب عهود الخلفاء المشهورين وبينت أهدافها الدينية والسياسية والاقتصادية ومناقشة الظروف المختلفة التي تمت فيها.

الفصل السادس:

ويحوى هذا الفصل دراسة مقارنة بين بواعث السفارات وأهدافها سواء كانت عباسية أم أموية أم فاطمية من خلال دراسة شاملة لمواقف هذه الدول من بعضها البعض أولاً، ثم من خلال مواقفها من الدولة البيزنطية ثانياً، وكذلك يدرس هذا الفصل موقف الدولة البيزنطية من تلك السفارات، وهل تغير بتغير الأسر الحاكمة في الخلافة الإسلامية وبالتالي تعددها، وهل

كان في مراسم استقبالها لسفارة كل دولة اسلامية مؤشر على ذلك الموقف وما إذا كان ذلك الإستقبال يتصل بقوة تلك الدولة وأهميتها بالنسبة لبيزنطة من عدمه.

ثم ترجمت لعدد من مشاهير السفراء المسلمين من الدول الإسلامية الثلاث ممن توفرت لي عنهم مادة علمية مناسبة، أما غيرهم فلم أظفر لبعضهم بتراجم وافية، كما لم أظفر لبعضهم الآخر بتراجم قط.

هذا وقد ذيلت البحث بعدد من الملاحق وخرائط الدول وعواصمها وقوائم الخلفاء والأباطرة والمصادر والمراجع.

ومن قراءاتي الأولية في الموضوع لكي ألم بأطرافه وجدت أن المادة العلمية التي سوف أحصل عليها قد تكون غير كافية بل نادرة، الأمر الذي جعل من الواجب عليّ أن أوسع من دائرة القراءة والتنقيب والتتبع قدر الامكان في شتى المصادر والمراجع المخطوطة والمطبوعة في مختلف المكتبات العامة، ولا سيما في البلدان التي كانت مسرحاً لأحداث موضوعي وهي مصر وتونس وتركيا وأسبانيا، أما العراق التي سبق لي زيارتها في مرحلة الماجستير فقد جمعت من مكتباتها مادة علمية أفدت منها أيضاً في بحثي هذا. هذا فضلاً عن زيارة مركزي الدراسات البيزنطية في جامعة برمنجهام في المملكة المتحدة وجامعة سالونيك في اليونان، والاستفادة من أهل الاختصاص في تلك البلدان.

وبالاضافة إلى الشح في المادة العلمية الذي واجهته فإن الغموض والإبهام لازما بعض جوانب ما توفر من مادته فماذا يمكن أن يفهم من عبارة ذهب رسول الخليفة إلى متملك الروم أو قدم منه رسول، وهي العبارة التي تتردد في كثير من المصادر، ثم ما هي دوافع مثل هذه السفارة وأهدافها والنتائج التي حققتها فضلاً عن تاريخ وصولها واسم المبعوث الذي قام بها والتاريخ الذي ذهب أو قدم فيه، والاستقبال الذي لقيه. وهي أمور ما لم

توضحها المصادر فإنه من الصعوبة بمكان بل من غير المقبول التكهن بها، ويصبح القياس والاستنتاج فيها غير مطردين علمياً.

ولهذا تطلب مني البحث عناية مركزة ودقيقة في تتبع مادته واستقراء الأحداث التي يمكن أن تثير قضاياه وتهيء أسبابه، فكم تصورت نفسي أمشي في سنا الحرب بين تلك الدول علّني ألمح مقدم سفير من هذا الجانب أو ذاك ليحاول منعها وإبدال حالة الحرب سلماً، أو أمشي في غبارها بعد أن صمتت لغة السنان علني ألمح سفيراً جاء بلغة اللسان ليخفف من حدة الصراع ويفاوض في فك من أحاطت ربقة الأسر بأعناقهم.

وقد دعاني كل ذلك إلى أن أعتمد على العديد من المصادر المختلفة، مثل كتب التاريخ العام سواء ما يعتمد منها على النظام الحولى في سرد الأحداث، أم التي تتبع السرد الموضوعي في عرضها، وسواء كانت تلك المصادر عباسية أو فاطمية أو أموية أندلسية أو بيزنطية.

ومن أهم المصادر المعاصرة لأحداث هذا الموضوع التي اعتمدت عليها:

أ ــ كتاب التنبيه والأشراف لأبي الحسن المسعودي، المتوفى سنة ثلاث مائة وخمس وأربعين، وتعتبر كتبه هامة في دراسة العلاقات بين المسلمين وجيرانهم الروم لمكانة مؤلفها والمعيته تاريخياً وجغرافياً، ثم لمعاصرته لأحداث الاتصال الإسلامي البيزنطي لأكثر من خمسين عاماً قضى سوادها في العراق والشام وفلسطين ومصر حتى وفاته. وكتاب التنبيه والأشراف هذا يحوي ذكر النجوم والأفلاك وتأثيراتها، وأخبار ملوك الفرس والروم والخلفاء المسلمين على وجه الايجاز، وقد أفرد المسعودي في هذا الكتاب بابا لذكر الأفدية وتبادل الأسرى بين المسلمين والروم وأحوالها والاستعداد لها والقائمين عليها، وعدد من فودي به من الطرفين ومكانها ومظاهر الاحتفال باجرائها.

وقد أفدت من هذا المصدر في دراسة السفارات العباسية التي ذهبت إلى بيزنطة وكان اجراء تلك الأفدية هدفاً لها.

ب ـ كتاب رسل الملوك ومن يصلح للرسالة لابن الفراء الذي عاش حتى النصف الأول من القرن الخامس الهجري. والكتاب كما يدل عليه عنوانه في صميم السفارات وتبادل الرسل بين المسلمين وجيرانهم، ويختص برسل الخلفاء والملوك وما يتعلق بهم من بيان مقامهم وصفاتهم وآدابهم، ويشتمل على وقائع تاريخية توضح ما كان بعض الملوك من الفرس والروم والمسلمين يراعونه في اختيار السفراء، وعرض لمبعوثي الرسول عليه الصلاة والسلام، ووقائع عن السفارات والمكاتبات المتبادلة بين الخلفاء الأمويين والعباسيين وأباطرة الروم المعاصرين لهم. وهذا الكتاب يعتبر بحق سابق في مجاله إذ نادراً ما يفرد هذا الباب بكتاب مستقل، وتظهر أهميته في أن مؤلفه نقل من عدة كتب لم تصل إلينا، وبذلك حفظ لنا بعض نصوصها وأخبارها.

جـ ـ كتاب التاريخ ليحيى بن سعيد الأنطاكي، وهو مؤلف نصراني من أهل الذمة عاش في أواخر القرن الرابع الهجري والنصف الأول من القرن الخامس. وقد ألف تاريخه لأحد وجهاء زمانه بناء على طلبه تصنيف كتاب له، ولم يعينه المؤلف كما يتضح من مقدمته، ويبتدىء هذا الكتاب منذ آخر سنة أرخ لها أفشيوس المكنى بسعيد بن بطريق في كتابه التاريخ المجموع على أبواب التحقيق والتصديق وهي سنة ثلاث مائة وست وعشرين وينتهي عند حوادث سنة أربع مائة وخمس وعشرين. فألف يحيى بن سعيد الأنطاكي كتابه على نسق سلفه فيقول: «وأقصد فيه المناهج التي قصدها فأصف أسماء جميع الخلفاء والملوك الذين وقفت على أسمائهم ومدة أيام ملك كل واحد منهم وأضيف إلى ذلك جملاً مما انتهى إليّ من أخبارهم وسيرهم والحوادث التي كانت في أيامهم أتجنب فيها الإطالة في الشرح والإيجاز في الاختصار وأسلك الطريق المتوسطة بين الطريقين فإن النفوس إلى معرفة الأخبار القريبة العهد أكثر تطلعاً وأعظم

شوقاً. وأذكر فيه أيضاً أسماء بطاركة الاسكندرية وبيت المقدس والقسطنطينية وأعمارهم في كراسيهم نحو ما فعل في تاريخه»[1].

ولا شك في أن كتاب يحيى بن سعيد بزّ سلفه في قيمته التاريخية بالفعل منهجاً ومادة وهو مصدر أصيل في التاريخ للدول العباسية والفاطمية والبيزنطية في عصر مؤلفه، ومن أوسع المصادر التاريخية النصرانية التي كتبت بين ظهراني المسلمين. وقد اعتمدت عليه في دراسة الصلاة الدبلوماسية بين العباسيين والفاطميين وبين البيزنطيين لمعاصرة مؤلفه لتلك الأحداث، ثم لأهمية مدينة انطاكية التي عاش فيها المؤلف ثغراً إسلامياً على الحدود مع الروم، ووقوعها على الطريق بين العواصم الإسلامية والقسطنطينية.

د ـ كتاب المقتبس لابن حيان الذي عاش في قرطبة عاصمة الدولة الأموية وتوفي بها سنة أربع مائة وتسع وستين، وكان عالماً بمعارف عصره ولا سيما في ميدان التاريخ حتى عرف بشيخ المؤرخين في الأندلس. وأشهر كتبه التاريخية كتاب المقتبس وهو مدونة تاريخية قيمة تؤرخ للأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى عصر مؤلفه، وأكثر أجزائه مفقودة، أما البقية فقد نشرت غير متسلسلة، وقد اعتمدت بالنسبة لهذا المصدر على جزء منشور منه يؤرخ للفترة من سنة ثلاث مائة وستين إلى ثلاث مائة وأربع وستين، ونصوص لابن حيان نقلها عنه مؤرخون أندلسيون متأخرون كالمقرى في كتابه نفح الطيب ومنقولات للمؤرخ ليفي بروفنسال عن جزء مخطوط من هذا الكتاب كان بحوزته ثم ضاع بعد وفاته فأصبح السبيل الوحيد للافادة منه ما نشره أو نقله عنه بروفنسال نفسه حتى يتم العثور على النسخة الأصلية. وقد أفادني هذا المصدر بمختلف أحواله في دراسة الصلات الدبلوماسية بين الدولة الأموية والدولة البيزنطية.

---

(١) يحيى بن سعيد: التاريخ، بيروت ١٩٠٦ م، ص ٩١.

هـ ـ كتاب المجالس والمسايرات للقاضي النعمان الذي عاش منذ نشأته حتى وفاته في سنة ثلاث مائة وستين في البلاط الفاطمي بين مناصب القضاء والارشاد وعقد حلقات الفقه الإسماعيلي وشرح أحكامه، وملازمة الخلفاء والكتابة لهم، وعاصر قيام الدولة الفاطمية في افريقية حتى قبيل انتقالها إلى مصر، وألف العديد من الكتب في المذهب الإسماعيلي وشرح الدعوة الفاطمية، ومن مؤلفاته التاريخية التي أفدت منها في دراسة علاقات الفاطميين بالبيزنطيين كتاب المجالس والمسايرات هذا حيث يعتبر أهم المصادر الفاطمية نظراً لمكانة مؤلفه في البلاط ومعايشته لأخباره وملازمته لعدد من خلفائه، فمؤلفه شاهد عيان في هذا الصدد. والكتاب ليس مصدراً هاماً لعلاقات الفاطميين بالبيزنطيين فحسب بل هو أيضاً مصدر قيم لتاريخ الدولة الفاطمية في المرحلة الأفريقية، فهو ديوان للمجالس الخلافية والمناظرات العلمية وشرح القضايا الامامية وذكر الوفادات السياسية على البلاط الفاطمي وعلاقاته بجيرانه الأمويين والبيزنطيين وحروب الفاطميين ضد الثائرين والمتمردين، وظل الكتاب مخطوطاً محدود الاطلاع حتى عهد قريب حين نشره مجموعة من العلماء التونسيين قبل ثماني سنوات.

هذا وقد ساعدني امتداد فترة البحث الزمنية على أن أعتمد على مصادر أخرى معاصرة لأحداثه على الرغم من ندرة مادته الواردة فيها، ولكن تبقى الشذرات التي وردت فيها مهمة. ومن هذه المصادر تاريخ الرسل والملوك للطبري، ونشوار المحاضرة للتنوخي، وتجارب الأمم لمسكويه، وذيل كتاب تجارب الأمم لأبي شجاع، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، وأخبار مصر لابن ميَسّر، والمنتظم لابن الجوزي. كما أعتمدت على بعض المصادر اللاحقة مثل الخطط وأتعاظ الحنفا للمقريزي، والبيان المغرب لابن عذارى، والعبر لابن خلدون.

بالاضافة إلى الاستفادة من جهود العديد من المؤرخين المحدثين مثل حسين مؤنس، ومحمد عبد الله عنان، وعباس حمداني، وجمال الدين سرور، وعبد الرحمن الحجي، وليفي بروفنسال، وكنار، وجينكنز، وميلر.

وقد حاولت جهدي أن أفصل القول وأن أناقش الروايات والآراء، وأن أتعمق قدر الامكان في البحث فيما رأيته من صميم الموضوع فيما يتعلق بالسفارات السياسية بين الدول ذات العلاقة في حين أجملت فيما رأيت أنه أقرب إلى تأريخ السفارات نفسها وتطور هذا التاريخ سواء عند المسلمين أو البيزنطيين. وعلى أية حال فإن ما توصلت إليه من خلال هذه الدراسة هو جهد متواضع قابل للنقد، وحسبي أني بذلت جهدي واستنفذت وسائلي ولم أدخر وسعاً فيه، فهل أصبت أم ترى طاش السهم؟

وفي الختام لا يسعني إلا أن أقدم جزيل الشكر وجميل العرفان وخالص الدعاء لجملة من الناس قدموا لي العون العلمي والمساعدة الصادقة والاستشارة الطيبة، في الداخل والخارج على كل مساعدة أو اهتمام لقيته منهم، وإلى منسوبي المكتبات العربية والأجنبية ازاء ما أرشدوني ويسروا مهمتي ودلوني على ضالتي.

والحمد لله تعالى أولاً وأخيراً على ما أعان وعافى، وكلل بالتوفيق جهداً ومنه نستلهم الرشد والسداد وهو الهادي إلى سواء السبيل والقائل ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

الفصل الأول

آدَابُ السِّفَارَات

- مفهوم السفارة.
- بوادر السفارات الإسلامية إلى دَولة الروم.
- صفَات السفراء.
- ديوان الرسائل.
- الرسائل.
- أوراق الطريق والإعتماد.
- الأمان.



مفهوم السفارة:

يقال سفر واستسفر يسفر سفراً وسِفارة وسَفارة بكسر السين وفتحها، والسفير هو المصلح بين القوم والماشي في الصلح بينهم والجمع سفراء[1]. أما الرسول فهو مأخوذ من الأرسال وهو التسليط والاطلاق والتوجيه، ومن عمله نقل أخبار من بعثه إلى المرسل إليه وتوجيهه بما يراه مرسله[2]. والمعنى المشترك بين السفير والرسول هنا نقل الرسائل والأخبار إلى الدول وبلاطاتها المختلفة والمفاوضات والحوار بشأن ما يهم الدولة القادم منها.

وقد عرف العرب السفارة في جاهليتهم وإسلامهم، واستسفرت قريش في الجاهلية سهيل بن عمرو[3] وعمر بن الخطاب إلى القبائل المجاورة لها[4].

(١) ابن دريد: جمهرة اللغة، الهند ١٣٤٥ هـ، جـ ٢ ص ٣٣٣.
ابن منظور: لسان العرب، بيروت (بدون تاريخ)، جـ ٢ ص ١٥٥.

(٢) الأزهري: تهذيب اللغة، القاهرة ١٩٦٦ م، جـ ١٢ ص ٣٩١.

(٣) سهيل بن عمرو بن عبد شمس العامري خطيب قريش قبل الإسلام، وهو الذي تولى مفاوضة النبي ﷺ في صلح الحديبية، ولما أسلم حسن إسلامه، وخرج مجاهداً إلى الشام، وقال: «لا أدع موقفاً وقفته مع المشركين إلا وقفت مع المسلمين مثله»، وظل سهيل مقيماً بالشام حتى توفي في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة.
ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، القاهرة ١٣٨٣ هـ، جـ ٣ ص ٢١٢ - ٢١٥.

(٤) ابن حجر: المصدر السابق، جـ ٣ ص ٢١٢ - ٢١٣ وجـ ٤ ص ٥٨٨.

وأول من سن السفارة في الإسلام الرسول ﷺ عندما بعث سفراءه ليحملوا رسائله إلى أباطرة البلدان القريبة من بلاد العرب وملوكها ليهتدوا، فبعث سفراءه إلى كسرى ملك فارس وإلى هرقل عظيم الروم وإلى النجاشي ملك الحبشة وإلى المقوقس حاكم مصر ليدعوهم إلى الاسلام[١]، في أول اتصال للسفارات بين دولة الإسلام والدول الأخرى.

وقد ازدهر هذا الاتصال في العصور الإسلامية التالية واتسعت أهدافه ليشمل قضايا الحرب والسلم بين المسلمين وجيرانهم، وأصبح لهذا الاتصال رجاله ومراسمه وقواعده.

وأصبح مفهوم السفارة والسفراء عند المسلمين لا يختلف في جوهره عن مفهوم الدبلوماسية المتعارف عليها في علاقات الدول الحديثة في أنظمتها وقواعدها.

فالدبلوماسية كلمة يونانية الأصل من الفعل اليوناني (دبلو Diploó) ويعني أكرر وأتبادل، والاسم هو (دبلوما) Diploma ويعني ما هو مزدوج أو متبادل، ويقصد به أيضاً خطاب توصية أو اعتماد وخاصة جواز السفر[٢].

والدبلوم في علم الوثائق هو ما يعرف اصطلاحاً بعلم الدبلومات ومعناه الوثيقة الرسمية التي تصدر من جهة رسمية أو من شخص له صفة رسمية.

وسميت الدبلوماسية كذلك diplomati diplomacy لأن العلاقات بين الدول تتم في الغالب من خلال تبادل الرسل والمكاتبات الرسمية التي تعد بذاتها وثائق بهذا المعنى.

---

(١) ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، القاهرة ١٣٨٠ هـ، جـ٦ ص ١٠٩ - ١١١.

(٢) - Liddle - Scott: Greek - English Lexicon. Oxford, 1961, v.a.v.

وسميت هذه الأعمال بالشؤون الدبلوماسية حتى أواخر القرن الثاني عشر الهجري (أواخر القرن السابع عشر الميلادي)، أما المبعوث الذي يتولى محاورة الآخرين في الحرب والسلم فأطلق عليه لقب مفاوض وسميت مهمته مفاوضة[1].

ومنذ القرن الثالث عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) شاع لفظ الدبلوماسية بمعناها الحديث وتعني في تعريف موجز وشامل لرفييه Rivier: «علم وفن تمثيل الدول والمفاوضات»[2]. ومن هذا يتضح أن الدبلوماسية بمختلف فروع معانيها كالمحفوظات الوثائقية والمفاوضات كانت معروفة للإنسان في مختلف عصور حياته ومعتقداته سواء في صورتها الأولى التي قامت بين الآلهة والبشر في تبادل الرسل والدعوات أو بين الدول المتجاورة أو المعروفة للمفاوضة بشأن الحرب والسلم لغمد سيف الحرب ونشر لواء السلام.

ولهذا يقسّم تاريخ الدبلوماسية إلى طورين:

الأول: قديم هو طور البعثات العابرة غير الدائمة في عواصم الدول الأخرى وقد عرف هذا النمط عند الرومان والفرس والمسلمين وظل قائماً حتى القرن العاشر الهجري (الخامس عشر الميلادي).

الثاني: حديث وهو طور البعثات الدبلوماسية الدائمة التي تقيم في عواصم الدول وتتخذ لها مقاراً دائمة فيها، ووجد منذ نهاية الطور الأول وما زال معروفاً لنا ويتشابه النمطان في وظائفهما والمهام التي يقوم بها أعضاء تلك البعثات في القديم والحديث[3].

(١) فوده: النظم الدبلوماسية، (بدون مكان) ١٩٦١ م، ص ٤٧ - ٤٨.
أبو هيف: القانون الدبلوماسي الإسكندرية ١٩٧٥م، ص ١٦ - ١٧.

(٢) - Rivier: Principes du Droides gens, Paris 1896. V2. P. 432.
نقلاً عن أبو هيف: القانون الدبلوماسي، ص ١٢.

(٣) صعب: الدبلوماسي العربي ممثل دولة أم حامل رسالة، بيروت ١٩٧٣ م، ص ١٠٥ - ١٠٩.

وما زال لفظ دبلوماسي Diplomat يطلق على الشخص الذي يمارس الدبلوماسية مهنة رسمية رسولاً لدولته إلى دولة أخرى، يزاول تمثيل دولته ورعاية مصالحها سواء بصفة دائمة لرعاية مصالح بلده وحمايتها والمفاوضة حول قضاياه ومراقبة الأحوال والحوادث في البلد المعتمد لديها وتوثيق صلات بلده بها، أو بصفة مؤقتة كأن يكلف المبعوث بمهمة خاصة مما يدخل في نطاق الأعمال الدبلوماسية التي يقوم السفراء فوق العادة في النظام الدبلوماسي الحديث بها[1].

وإذا كان جوهر الدبلوماسية الحديثة في مفهومها المثالي هو الأمانة وأن السفير الناجح هو الذي يعرف كيف يحمل هذه الأمانة من دولته إلى الدول الأخرى ومن شعبه إلى الشعوب الأخرى بما يتحلى به من حس دبلوماسي حضاري، فإن السفراء المسلمين الأوائل كانوا نموذجاً سابقاً في هذا المجال وهذا ما سنبينه في الفصول التالية إن شاء الله تعالى.

وهكذا يتضح أن المسلمين كانوا من السابقين بين الأمم في معرفة مفهوم الدبلوماسية وتطبيقها وإن لم يستخدموا اللفظة ذاتها، واتبعوا نظام السفارات غير الدائمة، وشابه السفراء المسلمون السفراء فوق العادة المعروفين حالياً حيث تنتهي مهامهم بانتهاء أعمالهم[2].

أما السفارات الدائمة فهي وضع تطلبته طبيعة الحياة في الدول الحديثة، أما أوصاف السفارات الأخرى من مهام سياسية ومحاورات حول الحرب والسلام وآداب السفراء وصفاتهم وأمانهم فلم يكن ثمة فرق عدا ما اقتضاه تطور الأحوال وارتقاء النظم بين الأمم في كل عصر. وقد أصبحت

---

(١) أبو هيف: القانون الدبلوماسي، ص ١١ ـ ١٤.
صعب: الدبلوماسي العربي، ص ١٠٦.
(٢) المنجد: فصول في الدبلوماسية جزء ملحق بكتاب رسل الملوك لابن الفراء، بيروت ١٩٤٧ م، ص ١١٠.

الدبلوماسية علم له تاريخه الحافل وأصوله وقواعده ونظمه، وتعددت مناهجه وأساليبه في مختلف أوجه العلاقات بين الدول، وعنيت بانشاء مراكز لـه ودراسته العديد من المؤسسات العلمية في العالم.

بوادر السفارات الإسلامية إلى دولة الروم:

بدأ اتصال السفارات بين المسلمين والروم في السنوات الأولى من قيام دولة الإسلام في المدينة في عهد الرسول ﷺ عندما بعث الصحابي دحية الكلبي[1] إلى هرقل قيصر الروم في أول اتصال دبلوماسي بين الدولة الإسلامية ودولة الروم.

وقد حمل دحية الكلبي رسالة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى هرقل التي يدعوه فيها للاسلام وهي: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فعليك أثم الأريسيين[2] ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا

(١) دحية الكلبي: صحابي جليل كان يضرب به المثل في حسن الصورة، وكان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله ﷺ في صورته بعثه النبي عليه الصلاة والسلام إلى قيصر الروم في سنة سبع، وقد شهد معركة اليرموك في الشام بين المسلمين والروم في سنة ثلاثة عشر، ولما فتح المسلمون الشام نزل في دمشق حتى أدرك خلافة معاوية بن أبي سفيان. انظر ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، جـ ٢ ص ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٢) الأريسيون: نسبة إلى آريوس Arius أحد رجال الدين المشهورين عند النصارى الذي عاش في القرن الرابع الميلادي. والأريوسية أحد المذاهب النصرانية المشهورة في بلاد الروم، وتقوم على مبدأ القول بخلق الابن والروح وإنكار ألوهية المسيح. انظر رستم: الروم، بيروت ١٩٥٥ م، جـ ١ ص ٥٦ - ٥٧.

أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[1].

وفي عصر بني أمية عندما أصبحت دمشق عاصمة لدولتهم وأقرب الحواضر الإسلامية إلى الروم تنامت بوادر الاتصال بين المسلمين والبيزنطيين وتعددت السفارات بين دمشق والقسطنطينية ومن أشهر هذه السفارات سفارة قام بها سفير يدعى يوحنا أوفده الروم في عهد الخليفة معاوية ابن أبي سفيان (٤٠ - ٦٠ هـ/ ٦٦٠ - ٦٧٩ م) للمفاوضة بشأن محاصرة المسلمين لعاصمتهم القسطنطينية، وقد أشتهر هذا السفير بلباقته وحكمته واستطاع انهاء ذلك الحصار، ولم يخف عند عودته اعجابه بالبلاط الأموي وحنكة رجاله[2]. وبعث الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ/ ٦٨٥ - ٧٠٥ م) الشعبي[3] في سفارته إلى الأمبراطور جستنيان الثاني Justinian II (٦٦ - ٧٦ هـ/ ٦٨٥ - ٦٩٥ م) وقد أثنى الأمبراطور في رده على الخليفة على لباقة سفيره الشعبي وحذقه[4]. وأرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ/ ٧١٠ - ٧٢٠ م) سفارة إلى القسطنطينية وشاهد رجالها مدى تأثر الأمبراطور ليو الثالث Leo III (٩٩ - ١٢٤ هـ/ ٧١٧ - ٧٤١ م) عندما بلغه خبر وفاة الخليفة ولعله قد بلغه شيء عن شخصية عمر بن عبد العزيز ومكانته بين المسلمين، كما أنه قد يكون رغب

---

(١) ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، جـ ٦ ص ١٠٨ - ١١١. والآية التي وردت في النص هي الآية ٦٤ من سورة آل عمران.

(٢) العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ط ٢، القاهرة ١٩٦٣ م، ص ٢٨٢.

(٣) الشعبي: عامر بن شراحيل أحد التابعين وكان فقيهاً وعالماً وشاعراً عاش بالكوفة حتى قيل: «كان في الناس ثلاثة بعد رسول الله ابن عباس في زمانه والشعبي في زمانه والثوري في زمانه» وكان مقرباً من الخليفة عبد الملك بن مروان فبعثه رسولاً له إلى دولة الروم توفي سنة مائة وثلاث وقيل سنة مائة وخمس. انظر: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، بيروت (بدون تاريخ)، جـ ١٢ ص ٢٢٧ - ٢٣٣.

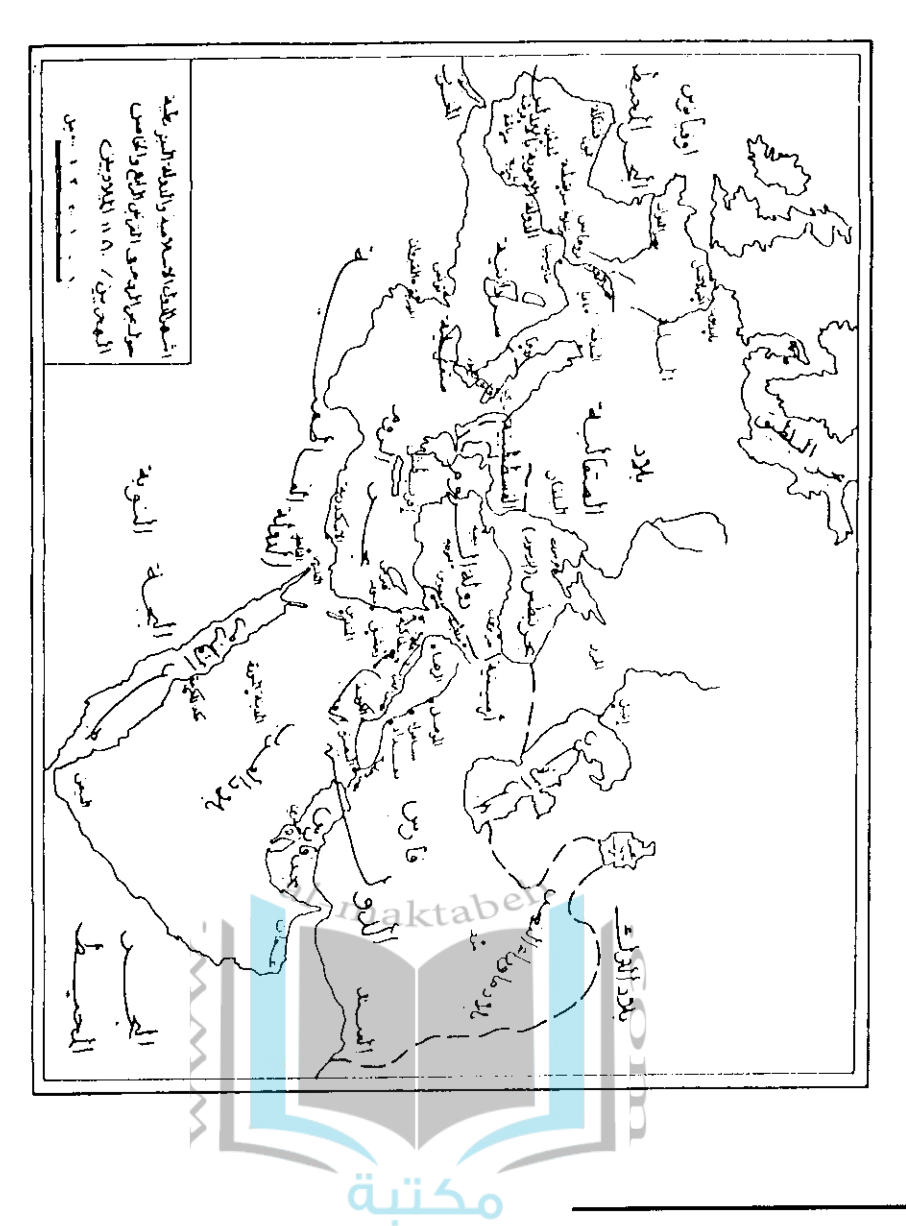
(٤) ابن الفراء: رسل الملوك، بيروت ١٩٤٧ م، ص ٤٥ - ٤٦.

في مجاملة مبعوثي الخليفة الذين كانوا في هذا الوقت في القسطنطينية[١].

---

(١) المسعودي: مروج الذهب، بيروت ١٩٦٥ م، جـ٣ ص ١٨٥.

أشهر الدول الإسلامية والدولة البيزنطية حول بحر الروم في القرنين الرابع والخامس الهجريين/ ١٠، ١١ الميلاديين



(١) انظر هازارد: أطلس التاريخ الإسلامي، ص١٥.

Shephard; Historical Atlas. New York. 1965. PP 58 - 9.

صفات السفراء:

السفير واجهة لدولته ولا بد لهذه الواجهة أن تكون لائقة من جميع الوجوه تروق للناظرين وتقنع المحاورين تحسن التصرف في كل موقف بما يتطلبه تتزود بحسن المظهر والمخبر في كل حال، وهذا يتطلب منا دراسة صفات السفراء الجسمية والسياسية والثقافية التي كان المسلمون يراعـونها في اختيار سفرائهم.

أ ـ الصفات الجسمية:

كان المسلمون يتقصون حقاً في اختيار رسلهم ويمعنـون في حسن مظهرهم من وسامة الوجه وجمال المظهر وترتيب الهيئة، يقول الرسول ﷺ: «إذا أبردتم إلى بريدا فليكن حسن الوجه، حسن الاسم»[١].

وذلك أن صورة السفير هي أول ما تقع عليه أنظار الناس وأول ما يصل منه إليهم، وهيئته عنوان معبر عنه، ثم إن عامة الناس أول ما يرمقون في السفير زيه أكثر مما يرمقون كفايته وسداده[٢]، فليس مقبولاً أن يكون السفير دميم الصورة، أو مفرطاً في الطول أو القصر أو فاقداً لأحد أعضاء جسمه أو مهملاً لهيئته وهندامه.

ويشترط في السفير أن يكون جيد اللسان فصيح البيان بليغ العبارة تغنيه الإشارة[٣]، يقول أحد الحكماء: «أختر لرسالتك في هدنتك وصلحك

---

(١) السيوطي: الجامع الصغير. ط ٤. القاهرة (بدون تاريخ)، جـ ١ ص ١٥.
(٢) ابن الفراء: رسل الملوك، ص ٣٥.
(٣) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك تحقيق أحمد زكي، القاهرة ١٩١٤ م.

ومهماتك ومناظرتك والنيابة عنك رجلاً حصيفاً بليغاً حوّلا قلّبا، قليل الغفلة منتهز الفرصة ذا رأي جزل وقول فصل، ولسان سليط وقلب حديد، فطناً للطائف التدبير ومستقلاً لما ترجو أو تحاول بالحزامة وإصابة الرأي، ومتعقباً له بالحذر والتمييز سامياً إلى ما يستدعيه إليك ويستدفعه عنك، إن حاول جر أمر أحسن اعتلاقه، وإن رام دفعه أحسن رده، حاضر الفصاحة مبتدر العبارة ظاهر الطلاقة وثاباً على الحجج [1].

فلم يكن مقبولاً عند المسلمين أن يكون السفير ألدغ اللسان سيء النطق، أو ضعيف الرأي متردداً حيناً ومتهوراً أحياناً، لا يحسن الإجابة إن سئل ولا يحسن الفرصة إن انتهز. كما كانوا يراعون في السفير مكانة نسبه، ومحتد منبته وعلو مؤثله، ويرون أن ذلك أحرى بنجاح مهمته بحرصه على أن يأتي بخير، وبقبول الآخرين له من آخر ذي نسب وضيع يقول ابن الفراء: «وليكن من أهل الشرف والبيوتات»[2].

وهكذا كان المسلمون يشترطون في سفرائهم جمال الصورة كحسن الوجه وترتيب الهيئة وأصالة النسب ورجاحة العقل وسداد الرأي. وواضح أن الوسامة في الصورة والجمال في الهيئة تشوق الأعين وتفتن القلوب وترفع المكانة[3].

والمعروف أن أغلب السفراء المسلمين كانوا بتلك الصفات، وكان هذا نظاماً وقواعد متبعة في اختيار أي واحد منهم، فهذا السفير الأموي الأندلسي يحيى الغزال كان مضرب المثل في جمال الصورة، وذاك السفير العباسي نصر بن الأزهر كان في غاية حسن الهيئة وترتيب المظهر فقد دخل

---

(١) ابن الفراء: رسل الملوك، ص ٣٣.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٤.
(٣) المنجد: فصول في الدبلوماسية، جزء ملحق بكتاب رسل الملوك، ص ١١٣.

على الأمبراطور البيزنطي ميخائيل الثالث ـ كما سيأتي ـ متمنطقاً بسيف ذهبي ومتوشحاً بزي لائق مجللاً بالسواد شعار دولته[1].

وكان الواحد من أولئك السفراء يزدان أكثر بتوافر الصفات السياسية والثقافية التالية فيه:

ب ـ الصفات السياسية والثقافية:

يمثل السفير واجهة مهمة لدولته كما ذكرنا من قبل، ويجب أن ترنو هذه الواجهة إلى الكمال من جميع الجوانب، ومن أهمها حنكة السفير السياسية ومستواه الثقافي، فقد كان يشترط فيه أن يكون ذا سياسة فطنة وبصيرة نافذة، ودربة ظاهرة ودهاء وذكاء ثاقب، يتصرف بحنكة ودراية حسب المواقف التي تعرض له في الدولة الموفد لها دون أن يحيد عن مبادىء دولته ومثلها ومواقفها، يجمع بين سياسة اللين والشدة المبطنة باللين، ولربما يحتاج في بعض المواقف أن يجيل الحق في شخص الباطل والباطل في شخص الحق دون أن يفقد الحق جوهره والباطل معناه في دهاء ودراية بما يتطلبه كل موقف[2]. وقوة الشخصية صفة مهمة في المبعوث حتى لا يتأثر بالمواقف التي تواجهه، فهو محتاج من الأقدام والجرأة التي تصادفه في بلاطات الأباطرة والحكام إلى مثل ما يحتاج إليه من الوقار والرزانة، وهو محتاج أن يكون بعيداً عن التسرع والاندفاع بقدر قربه من التريث والسكينة.

ويجب أن يتحلى السفراء بالأمانة والحلم والصبر، فالأمانة ضرورة في كل وظيفة بل في كل شيء، ولزومها في السفير يأتي من عدة وجوه، منها أن السفير ممثل لدولته وحاكمه فيجب أن ينقل موقفه إلى الحكومة الموفد

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ ٩ ص ٢٢٠.
(٢) انظر: ابن الفراء: رسل الملوك، ص ٣٤ و ٣٦.

إليها بكل صدق دون مبالغة تخرجه عن المقصود وحذف أو ايجاز يقصر عنه. كما أنه مؤتمن في أداء مهمته بكل اخلاص وولاء لمن بعثه، وبكل التزام لعقيدته ومثلها دون أن يأتي ما يشين في تصرفاته من أعمال وأقوال، فهو هناك دون رقيب أو حسيب من دولته. ولهذا كانت الدولة تتخير سفراءها من ذوي الصلاح والأمانة الذين يتمتعون بوازع حي من الضمير والرقابة الذاتية، فقد تلجأ بعض الدول مكراً وخديعة إلى إتاحة سبل الفاحشة وتقديم الخمرة ونحوهما إلى المبعوثين الوافدين إليها، بغية اختبار هذا أو ذاك في إلتزامه وجدته في أداء مهمته دون التهاء بمطمع أو انشغال بلذة. ثم إن تلك الدول تلجأ إلى هذا الأسلوب بغية انتزاع معلومات عن دولة المبعوث ما كان يدلي بها في حالة صحوه أو قبل ترديه وسقوطه في حبائل مصيفيه. وأما الحلم والصبر فهما بلا شك من صفات رجل السياسة الناجح، إذ يحتاج السفير إلى الحلم في مداولاته ومفاوضاته في بلاطات الدول المختلفة فقد يُستفز ويُستثار مراراً ما لم يكن حليماً لبقاً، ويلزمه الصبر في مواطن كثيرة منها الصبر على مشقة السفر ووطأة الاغتراب واختلاف الظروف والمعاش عما تعوده في بلاده بين أهله وعبق وطنه. ومنها الصبر على ما قد يقابل به من ابطاء في تحقيق مهمته واهمال أو تأجيل لبرامج مقابلاته مع حاكم تلك الدولة ورجال سياستها، ويكون ذلك عنوة أحياناً بقصد ادخال الملل والسأم على نفس السفير فيكون ذلك مدعاة للحصول منه على تنازل أو هنة في موقفه في الأمور التي جاء من أجلها. وقد مكث السفير العباسي نصر بن الأزهر في العاصمة البيزنطية طيلة أربعة شهور يفاوض البيزنطيين بكل حلم وأناة وصبر واحتمال على الرغم من مماطلتهم له حتى حقق الهدف الذي جاء من أجله بالشروط التي تقبلها دولته. وكان يشترط في السفير أن يكون عالماً بأحوال الدين والدنيا مبرزاً في علومهما على دراية بعلوم الدين ليوضح ويشرح ما قد يسأل عنه حول بعض القضايا، وليدافع ويجادل إذا احتاج الأمر إلى ذلك، عارفاً باللغة ليعرف دلالات الألفاظ ودقة معانيها بصيراً بمخارج الكلام ووجوهه ليؤدي

لفظ مرسله أو كتابه كما ينبغي، ويفهم أسلوب محاوريه ومؤدى كلامهم على الوجه الذي يقصدونه. ويفضل في السفير معرفة لغة الدولة الذاهب إليها فيكون ذلك أنجع لنجاح مهمته، فإن لم يتيسر له ذلك كانوا يبعثون معه من يترجم ممن يوثق في كفاءته وولائه. فضلاً عن هذا يكون السفير على اطلاع واسع بأحوال دولته وبواطن الأمور عارفاً بدواوين الجند ليعرف مواردها ومركزها الاقتصادي.

إن سعة ثقافة السفير وبعد أفقه يتيح له أن يؤدي مهمته بنجاح لدى الآخرين، في وقت يحاول هؤلاء أن يحققوا أهدافهم عبر شخصه الوحيد هناك، ولا يتأتى لهم ذلك ممن أحكمته التجارب وحلب الدهر أشطره[1].

وكان السفراء المسلمون الذين ذهبوا إلى الدولة البيزنطية ممن توافرت فيهم هذه الصفات السياسية والثقافية السابقة غالباً، فقد كان السفير العباسي أبو بكر الباقلاني أحد علماء بغداد وقضاتها، وكان السفير الأموي يحيى الغزال شاعراً ومقرباً من البلاط الأموي في قرطبة، وكان السفير الفاطمي أبو عبد الله القضاعي مقرباً من البلاط الفاطمي وأحد قضاة القاهرة، وسوف يأتي ذلك مفصلاً عند دراسة أحداث سفاراتهم وتراجمهم في الفصول التالية. إذاً لا غرو إن دقت الشروط في السفير وتقصت الدول في اختياره فهو مرآة مرسله وقطعة من عقله وشطراً من رأيه، قوة وضعفاً، سياسة وغفلة، علماً وجهلاً، يقول القائد الأموي المهلب بن أبي صفرة: «إن كتاب الرجل موضع عقله ورسوله موضع رأيه»[2]. ويقول الوزير العباسي يحيى بن خالد البرمكي: «ثلاثة تدل على عقول أربابها الكتاب يدل على مقدار عقل كاتبه والرسول على مقدار عقل مرسله والهدية على مقدار مهديها»[3].

---

(١) ابن الفراء: رسل الملوك، ص ٥٠ و٥٧.
(٢) المصدر السابق، ص ٥٣.
(٣) البيهقي: المحاسن والمساوىء، القاهرة ١٩٦١م، جـ ٢ ص ٢٥٦.

ويقول الشاعر:

إذا كنت في حاجة مرسلاً   فأرسل حكيماً ولا توصه[1]

ذلك أن السفير بحق مرآة المرسل، يرى مستقبلوه فيه سياسة مرسله وعنوان حكمه في دولته وأمته، وعلى قدر ما يبدر من الرسول يكون الحكم.

وكذلك راعي البيزنطيون جل هذه الصفات في اختيار سفرائهم[2]، ووفد منهم على الدولة الإسلامية عدد ممن أثر عنهم حسن التصرف والذكاء واللباقة وسعة الثقافة.

---

(١) نفسه.

(٢) Miller: Studies in Byzantine Diplomacy Sixth to Tenth Century Ph. D. 1963. - Rutgers. The state University, U.S.A. PP. 48-50.

ديوان الرسائل:

يعتبر ديوان الرسائل أهم دواوين الدول الإسلامية، وسمي بديوان الرسائل تسمية له بأشهر وظائفه وهي اصدار الرسائل ويسمى أيضاً بديوان المكاتبات، أو ديوان الوثائق. وقد أطلق عليه فيما بعد اسم ديوان الإنشاء باعتبار أن كل مكاتبات الدولة الداخلية والخارجية تنشأ عنه وتبتدىء منه. وعرف متوليه بصاحب الرسائل أو الوثائق أو الانشاء[1].

ونظراً لأهمية هذا الديوان وخطورته فقد كانت ولايته تسند لكتاب عرفوا بسعة الأدب وبلاغة اللسان وفصاحة البيان، بل كان يشترط في صاحبه أحياناً جمال الصورة ورفعة النسب وحدة الذكاء وصدق الحس ولطف المذهب وحلاوة الشمائل وأن يكون بهي الملبس نظيف المجلس[2]. كل ذلك من فرط الاهتمام بهذا الديوان، ولهذا لا غرابة إن جاءت رسائل الخلفاء والأمراء المسلمين إلى أباطرة الدولة البيزنطية بليغة دقيقة في معانيها ومقاصدها، ذات ديباجة رائعة بين الايجاز والأطناب تنم عن مهارة في الصياغة وسعة في الثقافة.

وقد كان صاحب ديوان الرسائل في منزلة رفيعة عند الخلفاء لا يضاهيه فيها صاحب ديوان آخر في كل العصور، وفي وصف القلقشندي له أنه: «ليس في منزلة خدم صاحب السلطان والمتصرفين في مهمّاته أخص

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، بيروت ١٩٤٨ م، جـ ٢ ص ٢٠٤؛ القلقشندي: صبح الأعشى، القاهرة ١٩٢٢ م، ج ١ ص ١٠٣.

(٢) النويري: نهاية الأرب، ط ٢، القاهرة ١٩٢٨ م، جـ ٧ ص ١٢.

من كاتب الرسائل، فإنه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه ولا غنى له عن مفاوضته في آرائه، والافضاء إليه بمهماته وتقريبه من نفسه في آناء ليله وساعات نهاره وأوقات ظهوره للعامة وخلواته واطلاعه على حوادث دولته ومهمات مملكته، فهو لذلك لا يثق بأحد من خاصته ثقته به، ولا يركن إلى قريب ولا نسيب ركونه إليه»[١].

وكان يلقب صاحب هذا الديوان في الدولة الفاطمية بكاتب الدّست[٢]، وقد وصف القلقشندي منزلته في هذه الدولة قائلاً: «وكان هذا المنصب لا يتولاه في الدولة الفاطمية إلا أجل كتّاب البلاغة، ويخاطب بالأجلّ، وإليه تسلم المكاتبة واردة مختومة فيعرضها على الخليفة من يده، وهو الذي يأمر بتنزيلها والاجابة عنها وربما بات عند الخليفة ليالي، وهذا أمر لا يصل إليه غيره»[٣].

وصاحب هذا الديوان هو الذي ينشىء المكاتبات الصادرة من الخلفاء إلى الملوك والأباطرة، ويساعده جملة من الكتاب الحاذقين في تحرير الرسائل ومراجعتها[٤].

وكان إلى جانب اشتراطهم في صاحب ديوان الرسائل حسن المظهر والمخبر يشترطون أيضاً أن يكون صاحب أناة وروية بعيداً عن العجلة والسرعة «رؤوفاً بأهل الدين ساعياً في مصالحهم محباً لأهل العلم والأدب راغباً في نفعهم» موالياً لحاكمه ملازماً له وقت جلوسه للناس ملازماً لديوانه

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١ ص ١٠١.
(٢) الخالدي: المقصد الرفيع. مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٤٥ ص ١١ وجه أ.
(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١ ص ١٠٢.
(٤) الخالدي: المقصد الرفيع، ص ١١١ وجه أ و ب.

في أوقات كثيرة لا يبخل على مولاه برأي صائب أو فعل جميل أو تدبير حميد، كاتماً لأسرار حاكمه ودولته على ما دق وجل[1].

وكانوا يستحسنون فيه أيضاً سرعة انجازه لمهام وظيفته، وأن يصدر جواب كل رسالة في اليوم الذي تصل فيه بعد أخذ تبادل الرأي حولها مع حاكمه فما أجمل أن يؤرخ رد رسالة بيوم وصولها، فإنه يدل على هيبة الحاكم ومتابعته لأحوال دولته دون إهمال أو عدم احتفال[2].

وهكذا كان هذا الديوان أهم دواوين الدولة الإسلامية، وكانت وظيفته دقيقة في علاقتها بالدول الأخرى، ولهذا أولاه الخلفاء المسلمون عناية فائقة سواء في اختيار الأكفاء من الرجال لتوليه أم بالعناية به وربطه بهم، وكان يشبه في وظائفه وأجهزته وزارة الخارجية في الدول الحديثة[3]. ومعروف أهمية هذه الوزارة في رسم سياسة دولتها الخارجية وتوثيق صلاتها بالدول الأخرى في ميزان السياسة الدولية المعاصرة[4]، بل فاقت وظائفه مثل هذه الوزارة في أغلب الأحيان بما كان يقوم به من مكاتبات لولاة الأقاليم في الداخل وتلقي رسائلهم واستقبال وفودهم.

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١ ص ١٠٦.

(٢) المصدر نفسه، جـ١ ص ١١١ - ١١٢.

(٣) أبو هيف: القانون الدبلوماسي، ص ٦٠ - ٦٣.

(٤) تتولى وزارة الخارجية تنظيم علاقة دولتها وتصريفها مع الدول الأخرى في النظم السياسية الحديثة، ووزير الخارجية هو رأس هذه الوزارة ومن أهم مسؤولياته رسم سياسة دولته الخارجية وتمثيلها في المحافل الدولية وتقوية صلاتها الخارجية، وإدارة المفاوضات السياسية بينها وبين الآخرين واستقبال مبعوثيهم وتحضير مشروعات المعاهدات معهم، واختيار سفراء دولته ومبعوثيها واقتراحهم على رئيس دولته وحفظ الوثائق الدبلوماسية. انظر: عمر بك: القانون الدبلوماسي، القاهرة ١٩٤٦م، ص ٥٦.
راتب: التنظيم السياسي والقنصلي، القاهرة ١٩٦٣م، ص ٥٣ - ٥٤.
أبو هيف: القانون الدبلوماسي، ص ٥٢.

الرسائل:

كان السفراء المسلمون يحملون رسائل الخلفاء والأمراء إلى الأباطرة البيزنطيين التي تتعلق بقضايا الحرب والسلام بين المسلمين والروم. كأن تتعلق بطلب فداء الأسرى أو توقيع الهدنة، أو التهديد بالغزو والهجوم إذا لم يكف الجانب البيزنطي عن تهديد الجبهة الإسلامية أو ثغر من ثغورها، وأحياناً تكون لطلب المساعدات الغذائية أو مجموعات من الكتب التي يمكن أن يفيد منها المسلمون.

وكانت هذه الرسائل تكتب على أفخر أنواع الورق المعروف وأشهره الورق البغدادي الذي كانت تكتب عليه المصاحف لجودته فضلاً عن جمال خط تلك الرسائل وحسن اخراجها، وذلك لاعتبار ديوان الدولة الصادرة عنها والمقام الموجهة إليه. وتكتب الرسائل باللغة العربية بأسلوب مبين، وترفق في الغالب بترجمة لها بلغة الدولة الموجهة إليها، أو تكون بدون ذلك فيتولى تراجمة تلك الدولة ترجمتها. وتكون الكتابة متوسطة من الورقة بحيث تترك مسافة متساوية بينها وبين الهوامش، فإذا انتهى من كتابها طويت على هيئة قصبة ووضعت في درج من الذهب أو الفضة أو المعدن المنقوش.

أما أسلوب هذه الرسائل فقد كان فصيحاً واضحاً تختلف عباراته حسب الدولة الصادرة منها ومكانة الأمبراطور الموجهة إليه، ولكنها لا تخلو في الغالب من عبارات الثناء والتمجيد والمجاملة للأباطرة أياً كانت مكانتهم وتذكيرهم بالعلاقات الطيبة التي كانت قائمة بين أجدادهم وبين المسلمين في بعض الأحيان، وقد بولغ في مثل هذا الثناء في العصور المتأخرة. وكان

من رسم الكتابة لأمبراطور الروم فيها أن يوصف بـ «وارث القياصرة القدماء محيي طرق الفلاسفة والحكماء العالم بأمور دينه، العادل في ممالكه معز النصرانية مؤيد المسيحية»[1]، ثم يأتي بعد ذلك المقصود من الرسالة، وتختم بعبارات مختصرة من الثناء على الإمبراطور والدعاء له بما يليق.

ويشار في آخر الرسالة أحياناً إلى اسم السفير الذي يحملها ومكانته في دولته وذكر الهدايا التي يحملها للإمبراطور، وتذيل بتوقيع الخليفة سوء بعبارة بليغة أو وضع بصمة خاتمه الذي يحمل اسمه. ولم تختلف هذه الرسائل بين بلاط إسلامي وآخر، اللهم ما وجد من اختلاف ظاهري في الترتيب والإخراج وفوارق قليلة في خامات الرسائل فرضتها عوامل البيئة في كل دولة وقانون التطور فيها.

وكانت رسائل الأباطرة البيزنطيين إلى الخلفاء المسلمين على نمط لا يختلف كثيراً عن مثال الرسائل الدبلوماسية عند المسلمين من احتوائها عبارات الثناء والتبجيل للخليفة، والاهتمام بترتيبها واخراجها. ففي سنة ثلاث مائة وست وعشرين (٩٣٧م) بعث الأمبراطور قسطنطين السابع (٣٠١ - ٣٤٨ هـ/ ٩١٣ - ٩٥٩ م) برسالة إلى الخليفة العباسي الراضي بالله (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ/٩٣٤ - ٩٤٠ م) بشأن طلب الهدنة كما سيأتي وقد كتب نصها باليونانية بالذهب وكتبت ترجمتها العربية بمداد الفضة[2]. وأرسل الأمبراطور نفسه رسالة إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ/٩١٢ - ٩٦١ م) كما سنعرف في ورق مصبوغ سماوي مكتوباً باليونانية بالذهب وعليه طابع من ذهب وزنه أربعة مثاقيل وعلى أحد وجهيه

---

(١) ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة ١٩١٢م، ص ٥٢.
الخالدي: المقصد الرفيع. مخطوط. ص ١٣ وجه ب.
(٢) القاضي الرشيد بن الزبير: كتاب الذخائر والتحف، الكويت ١٩٥٩م، ص ٦١.

صورة المسيح عليه السلام وعلى الوجه الآخر صورة الأمبراطور وابنه رومانوس، ووضعت الرسالة في داخل درج من فضة منقوش بالذهب والديباج [1].

(١) ابن حيان نقلاً عن المقري: نفح الطيب، بيروت ١٩٦٨ م، جـ ١ ص ٣٦٦؛ لسان الدين بن الخطيب: كتاب أعمال الاعلام، ط ٢، بيروت ١٩٥٦ م، ص ٣١٧.

أوراق الطريق والإعتماد:

أوراق الطريق والاعتماد هي التي يحملها السفير المسلم معه للتعريف به وتسهيل مهمته وتيسير تنقلاته بدءاً من انطلاقه من عاصمة دولته أو أي مدينة أخرى يستقر فيها الحاكم الذي بعثه، ومروراً بنقاط الحدود بين دولته والدولة الموفد لها ثم دخوله عاصمتها وعودته إلى بلاده، وتصدر هذه الأوراق من ديوان الرسائل.

وقد كانت هذه الأوراق تعتمد من الخليفة أو الأمير ويوضع عليها ختمه، وتتضمن تعريفاً بالسفير والغرض من مقدمه وطلب تمكينه واعتماده في أقواله وأفعاله، نحو اركابه على خيل البريد لسرعتها وانتظام أوقاتها آنذاك، مما يكفل له أداء مهمته في أسرع وقت وعدم تعطيله أو تأخيره، والسماح لمرافقه أو مرافقيه بمصاحبته، واعفاء ما يحمله من هدايا ونحوها من المكوس[1].

ولا يحمل هذه الأوراق في العادة إلا الأشخاص الموفدون من قِبل الخلفاء إلى الدول والإمارات الأخرى. وكان السفراء البيزنطيون يحملون أوراقاً مشابهة من أباطرتهم.

وتشابه أوراق الطريق الرسائل التي يحملها الرسل بين الحكام في مادتها، فقد كانت التقاليد المتبعة في كتابة أوراق الاعتماد وتصاريح العبور أن تكتب على أجود صنوف الورق المعروفة في ذلك الوقت، فضلاً عن تدبيجه بأوضح العبارات وتزويقه بجميل الخط والشكل. وتكتب هذه

(١) انظر: العدوي: السفارات الإسلامية إلى أوروبا، القاهرة ١٩٥٧ م، ص ٤٣.

الأوراق بلغة بلد السفير وتشفع بترجمة لها بلغة الدولة الموفد لها حتى إذا ما دخل أراضيها لقي من التيسير والمساعدة مثلما لقيه أثناء جوازه أقاليم دولته[١].

وقد تطورت هذه الأوراق في جملتها في العصور الإسلامية المتأخرة من حيث تنظيمها ودقتها، وكثر العثور على بعضها ومنه مجموعات ترجع إلى عصر المماليك في مصر[٢]. وعموماً تعتبر أوراق جواز الطريق والاعتماد التي كان يحملها السفراء المسلمون في وفاداتهم بين الدول الصورة الأولى والتاريخية لجواز السفر الدبلوماسي المعروف في الدبلوماسية الحديثة، وتشهد تلك الوسائل والأوراق بحق على مدى التنظيم الذي كانت عليه الدبلوماسية الإسلامية والاعتبار السياسي الذي كان يلقاه السفراء المسلمون بموجبها في الداخل والخارج.

---

(١) فوده: النظم الدبلوماسية، ص ١٥٤.
(٢) عبد الرحمن: السفارات الأجنبية في مصر في عصر المماليك. رسالة ماجستير، كلية الأداب، جامعة القاهرة ١٩٧٥م، ص ١٣١ ـ ١٣٦.

الأمان:

الأمان هو اجراء يشمل فيما يشمل حماية السفراء والمرافقين لهم عند دخولهم أراضي الدولة الإسلامية من الإعتداء والإعتراض لهم أو فرض الجزية عليهم أو أخذ العشور[1] على أمتعتهم وما يحملون، فالسفير في أمان حتى يعود لدولته. وقد أولى الفقهاء المسلمون عناية خاصة للمستأمنين وعلى رأسهم رسل الملوك والأباطرة، وهناك اجماع على أمانهم وحمايتهم، وكان النظام الإسلامي في هذا الشأن واضحاً يقول القاضي أبو يوسف الذي عاش في صدر الدولة العباسية: «فإن قال (المبعوث) أنا رسول الملك بعثني إلى ملك العرب وهذا كتابه معي، وما معي من الدواب والمتاع والرقيق فهدية إليه فإنه يُصدق. ويقبل قوله إذا كان أمراً معروفاً فإن مثل ما معه لا يكون إلا على مثل ما ذكر من قوله إنها هدية من الملك إلى ملك العرب، ولا سبيل عليه ولا يتعرض له ولا لما معه من المتاع والسلاح والرقيق والمال، إلا أن يكون معه شيء له خاصة حمله للتجارة فإنه إذا مر به على العاشر عشّره، ولا يؤخذ من الرسول الذي بعث به ملك الروم ولا من الذي قد أعطى أماناً عشراً إلّا ما كان معهما من متاع التجارة فأما غير ذلك من متاعهم فلا عشر عليهم فيه»[2].

---

(١) العشور: جمع عشر وعشّر تجارة القوم إذا أخذها عشرها، والعشر هو ما يأخذ على التجارة القادمة من خارج دار الإسلام، وسئل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن تجار يقدمون من أرض الروم (الشام وفلسطين قبل فتحهما) كم يؤخذ منهم، فقال: كم يؤخذ منكم؟ قالوا: العشر، قال: فخذوا منهم العشر. انظر: ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، دمشق ١٩٦١م، جـ ١ ص ١٠٧ - ١٠٨.

(٢) أبو يوسف: الخراج، ط ٢، القاهرة ١٣٥٢ هـ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

وسواء قدم السفراء بطريق البحر أم البر فإن لدى الولاة المسلمين على الثغور وعمالهم على مآصر[1] الحدود تعليمات لتنظيم دخول السفراء والاهتمام بهم وحمايتهم، فإذا ما تأكدوا من أوراق الطريق التي يحملونها فإنهم سرعان ما يسمحون لهم بالتوجه إلى عاصمة الدولة بمرافقة أمير الثغور أو من ينيبه كما سيتضح عن دراسة تلك السفارات فيما بعد، وذلك إمعاناً في الاهتمام بالسفراء وأمانهم والإحتفاء بهم.

وكان المسلمون يسمحون بدخول ما يحمله السفراء معهم من أمتعة وغيرها معفاة من الضرائب، إلا أنه كان لا يسمح للسفراء بادخال سلاح ونحوه أو مشروبات محرمة كالخمور ونحوها لخطورة الأولى وتحريم الثانية في بلاد المسلمين كما لا يسمح لهم بحمل سلاح ونحوه عند خروجهم مما يكون قوة لدولتهم على المسلمين[2].

يقول الدكتور إبراهيم العدوي: «وظلت الدولة طوال عهدها حريصة على أمان السفراء وفيه تمام الوفاء على هذه القاعدة الدبلوماسية السامية التي نادى بها القدامى والمحدثون من أقطاب السلك السياسي، فلم يذكر التاريخ حادثة عاملت بها الدولة الإسلامية السفراء الوافدين إليها معاملة تشذ عما قررته قواعد اللياقة فيها من أمان السفراء، أو أن رجال الإدارة في الدولة الإسلامية قد انتهكوا هذا المبدأ الدبلوماسي الجليل، وذلك على حين روت المصادر التاريخية النماذج الكثيرة عن انتهاك جيران الدولة الإسلامية لمبدأ أمان السفراء أو حصانتهم الدبلوماسية»[3].

---

(١) المآصر: جمع مأصر، ومأصر بفتح الصاد وكسرها، والفعل منه أصر يأصر أصراً، وأصر أي حبس، والمأصر هو محبس أو حبل يمد على طريق أو نهر توصر به السفن أو التجارة السابلة أي تحبس لتؤخذ منها العشور. الجوهري: الصحاح، جـ ١ ص ٣١.
ابن منظور: لسان العرب، جـ ١ ص ٦٧، انظر أيضاً: مخائيل عواد: المآصر في بلاد الروم والإسلام، بغداد ١٩٤٨ م، ص ٢ ـ ١٥.

(٢) أبو يوسف: الخراج، ص ٢٠٤.

(٣) العدوي: السفارات الإسلامية إلى أوروبا في العصور الوسطى، ص ٤٩.

وهكذا اعتبرت الدولة الإسلامية السفير ذا اعتبار يمثل دولته فيها، فهو امتداد لشخصية ملكه ودولته وأن احترامه إنما هو احترام للملك والدولة، ومن ثمّ كفلت له الأمان حتى يؤدي رسالته بنجاح، وإن صفته الرسمية تقضي عليه بمهام لا يستطيع القيام بها بدون ذلك الأمان والحرية. والسفير أذن صاغية، وعين مبصرة لدولته، يسمع في الدولة الموفد إليها كل ما يفيد دولته ويرى ما يعود إليها بالنفع، وتحاول الدولة المضيفة من جانبها ألا يسمع ويرى إلا في الحدود التي لا تضر بمصالحها، وذلك في إطار من حسن المعاملة والأمان منذ قدوم المبعوث، وحتى رحيله.

وقد سبق نظام الأمان في الدولة الإسلامية الذي كان يتمتع به السفراء الوافدون إليها نظام الحصانة الدبلوماسية المعروف الآن بمئات السنين بل إن اتفاقية فينا[1] لتنظيم العلاقات الدبلوماسية بين الدول التي تنص على الحصانة الدبلوماسية للسفراء لا تخرج في هذا المجال كثيراً عن نظام الأمان في الإسلام الذي عومل به السفراء والوافدون إلى بلدانه.

(١) اتفاقية ڤينا: هي الاتفاقية التي أقرها مؤتمر الأمم المتحدة المنعقد في ڤينا عاصمة النمسا في الثاني عشر من نيسان (أبريل) سنة ألف وتسع مائة وواحد وستين للميلاد أساساً لتنظيم العلاقات الدبلوماسية بين الدول، وتتكون هذه الاتفاقية من ثلاث وخمسين مادة تشمل تعريف العلاقات الدبلوماسية ومهام الدبلوماسيين ومراتبهم وحصانتهم وحقوقهم في الدول المعتمدين لديها وواجباتهم فيها. انظر نص هذه الاتفاقية عند صعب: الدبلوماسي العربي، ص ١٨٥ - ٢٠٧.
التابعي: الدبلوماسية في الإسلام، القاهرة ١٩٨١م، ص ١٢٠.

الفصل الثاني

العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية

خلال العصر العباسي المبكر

قامت علاقات مختلفة مع بلدان العالم المعروفة آنذاك، وكان للدولة العباسية علاقاتها مع بلدان الصين والهند في آسيا، كما كانت لها أيضاً علاقات سياسية ذات أهمية بالدولة البيزنطية ودولة الفرنجة في أوروبا.

وقد تعددت صور الاتصال بين الدولة العباسية وبين تلك الدول في عدة مجالات سياسية واقتصادية وثقافية وأهم صورها في المجال السياسي على النحو الآتي:

أ ــ السفارات الشخصية التي قام بها رسل كل دولة إلى بلاد الدولة الأخرى.

ب ــ المراسلات الكتابية التي كان يحملها مبعوث خاص يوفد للقيام بتلك المهمة من أحد الجانبين إلى الآخر، والاتفاقات التي تبرم بينهما.

جـ ــ الهدايا التي كان يتبادلها الخلفاء والأباطرة، وكان يحملها السفراء أو المبعوثون معهم، وهم يؤدون مهمتهم في الاتصال الشخصي، أو حمل الرسالة المكتوبة، وقد ترسل الهدايا خصيصاً بقصد المجاملة في مناسبة ما.

وإذا كانت العلاقات العدائية الحربية بين الدولتين العباسية والبيزنطية جلية بارزة، إلا أن صوراً متعددة من العلاقات السلمية قامت بين الدولتين إلى جانب العلاقات الحربية.

فالعلاقات بين المسلمين والبيزنطيين لم تكن دائماً سلسلة حروب متصلة الحلقات، وإنما تخللتها فترات من الهدوء والعلاقات السلمية فكم

من سفارة اجتازت حدود الدولتين لتوقيع معاهدة وعقد هدنة، أو للاتصال الشخصي والتعرف على بعض ما يجري من أمور إحدى الدولتين وكم من مكاتبة أجريت، وهدايا أرسلت، ومتاجر تبودلت، كما توالت الإتصالات والرحلات العلمية للتعرف على ما آل إلى الدولة البيزنطية من تراث فكري ونقل النافع منه لترجمته في بغداد.

أ ـ السفارات المتبادلة بين الدولة العباسية خلال عهدها المبكر والدولة البيزنطية:

شغل العباسيون خلال تلك الفترة بتأسيس دولتهم واخضاع المناوئين لهم واستغرق ذلك سنوات حكم أبي العباس (١٣٢ ـ ١٣٦ هـ) كلها والسنوات الأولى من حكم أبي جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨ هـ)، وفي هذه الأثناء كان عرش الدولة البيزنطية في يد أباطرة الأسرة الأيسورية (٧٠٧ ـ ٨٠٢ م/ ٩٩ ـ ١٨٨ هـ) وكانوا في شغل شاغل بمشكلاتهم الداخلية وعلى رأسها مشكلة الأيقونات التي انقسمت أحزاب الدولة ازاءها بين مؤيد ومعارض وأصدرت كنيسة روما قرار الحرمان ضد الامبراطور ليو الأيسوري عام ٧٢٦ م(١٠٨ هـ) لمحاربته تقديس الأيقونات[١]، ولم يثن ذلك الأمبراطور عن عزمه في المضي في سياسته، لكن كانت هناك معارضة وأنصار لتقديس الأيقونات داخل الدولة البيزنطية نفسها، ولما خلف ليو الأيسوري على العرش البيزنطي ابنه قسطنطين الخامس (٧٤١ ـ ٧٧٥ م/ ١٢٤ ـ ١٥٩هـ) واصل سياسة أبيه[٢].

وأسهمت هذه المشكلة الداخلية إلى حد ما في فتح أبواب العلاقات السلمية مع الدولة العباسية، إذ شغلت الدولة البيزنطية عن شنّ أي حرب كبيرة ذات أهمية في النصف الأول من القرن الثامن الميلادي (٢ هـ) وعلى الرغم من أن السنين الأخيرة من حياة الدولة الأموية التي انتهت بسقوطها وقيام الدولة العباسية أتاحت للبيزنطيين ظرفاً مناسباً لهجوم واسع على الأراضي

(١) عاشور: أوروبا العصور الوسطى، جـ١ ص ١٣٢.
(٢) توفيق: الأمبراطورية البيزنطية، ص ٩١ ـ ٩٣.

الإسلامية، إلا أننا لا نجد من هذا القبيل إلا هجوماً محدوداً شنوه على مدينتي ملطية وقلقيلية في آسيا الصغرى في عامي ١٣٣، ١٣٨ هـ/٧٥٠، ٧٥٥ م) وقد أعقب الهجوم الأخير مباشرة فداء للأسرى ـ بشكل محدود ـ بين الدولتين في العام التالي (١٣٩ هـ ٧٥٦ م)(١).

ويبدو أنه أعقب ذلك إيفاد رسل من الدولة البيزنطية إلى الدولة العباسية في عهد أبي جعفر المنصور(٢)، فقد تحدثت المصادر الإسلامية عن وصول أحد هؤلاء السفراء إلى المنصور بعد بنائه عاصمته بغداد سنة ١٤٥ هـ وتذكر الرواية المشار إليها أن المنصور أمر أحد رجاله بمرافقة المبعوث حتى يريه معالم مدينته وعمارتها ويوقفه على أسواقها وسككها، وقد أعجب المبعوث البيزنطي بما رآه، لكنه أبدى ملاحظة للخليفة فيما يروى عندما سأل المبعوث عن رأيه في عاصمة الدولة الجديدة، فقال: «رأيت بناء حسناً، إلا أني رأيت أعداءك معك في مدينتك. قال: ومن هم؟ قال: السوقة»(٣).

وتنسب رواية أخرى إلى المبعوث البيزنطي هذا القول: «كل ما رأيت جليل نبيل، إلا ثلاثة أشياء. قال: ـ أي المنصور ـ ما هي؟ قال: النفس خضراء ولا خضرة لك، والماء حياة ولا حياة لك، وعدوك معك ـ يعني السوقة»(٤).

ويروى للمنصور ردّ على المبعوث البيزنطي يقول: «أما الخضرة فإني خلقت للجد لا للهزل، وأما الماء فحسبي منه ما بل الشفة وروى الصدى،

---

(١) الطبري، جـ٧ ص ٥٠٠. يذكر المسعودي أن أول فداء تم في عهد الدولة العباسية كان في عهد هارون الرشيد سنة ١٨٩ هـ، ولعل الفداء الذي ذكره الطبري هنا كان محدوداً فأغفله المسعودي. التنبيه والإشراف، ص ١٦١.

(٢) ابن الفراء: رسل الملوك، ص ٧٥.

(٣) الطبري، ج٧، ص ٦٥٣.
الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ١ ص ٨٠.

(٤) ابن الفراء: المصدر السابق. ص ٧٥ ـ ٧٦.

وأما مجاورة العوام فما أبالي أن يطلع على سري خاصتي وعامتي لأني لأني فيه وأحصنه»، لكن على الرغم من ذلك فقد أدرك المنصور صواب رأي الرجل فيما فيما يبدو، فقد بعد عودة المبعوث باجراء المياه إلى داخل بغداد، كما أمر باخراج الأسواق منها إلى خارج باب الكرخ[1] عام ١٥٧ هـ وحظر وجود الأسواق داخل المدينة الذي فطن إليه المبعوث البيزنطي ولفت انتباه الخليفة إليه، لأنه قد يكون وسط التجار والصناع جواسيس مستخفين في هيئة تجار وصناع، وقد يندس بينهم من يثير الفتن داخل المدينة وهم بحكم تجمعهم تنتشر بينهم نيرانها بسرعة بالإضافة إلى ما تسببه الأسواق من تزاحم وجلبة بالقرب من قصر الخلافة، وقد عمل المنصور فعلاً على نقل الأسواق إلى خارج بغداد، كذلك يروى عن رسول للدولة البيزنطية في عهد المنصور أنه قال لمرافقه عمارة بن حمزة عن بعض أهل السؤال والزمنى الذين شاهدهم على أحد الجسور «إني أرى عندكم قوماً يسألون وقد كان يجب على صاحبك أن يرحم هؤلاء ويكفيهم مؤنهم وعيالاتهم» فقال له عمارة: «إن الأموال لا تسعهم» فبلغ المنصور ذلك فلم يعجبه جواب عمارة فاستدعى السفير وقال له: «قد بلغني ما قلته لصاحبنا وما قاله لك وكذب لأن الأموال واسعة ولكن أمير المؤمنين يكره أن يستأثر أحد من رعيته وأهل سلطانه بشيء من حظ أو فضل في دنيا وآخرة وأحب أمير المؤمنين أن يشركوه في ثواب السؤال والزمنى وأن يسألوهم من ذوات أيديهم مما أعطاهم الله عز وجل من الرزق ليكون ذلك نجاة لهم في آخرتهم وتمحيصاً لذنوبهم» فاستحسن السفير الرومي ذلك وقال: «الحق ما قاله أمير المؤمنين»[2]. ولا نستطيع أن نتبين ما إذا كنا إزاء مبعوثين مختلفين في وقتين متباينين، أم أن ثمة مبعوث واحد رويت عنه أخبار متعددة.

---

(١) الطبري جـ ٧ ص ٦٥٣، جـ ٨ ص ٥٢.
ابن الفراء: المصدر السابق، ص ٧٥ - ٧٦.
الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ ١ ص ٨٠.

(٢) الجهشياري: الوزراء والكتاب، ص ١٣٣.
ابن الفراء: رسل الملوك، ص ٧٦.

ويبدو أن برنامج زيارة أي مبعوث في ذلك الوقت كان يشتمل على جولة لرؤية أهم معالم العاصمة، وكان هذا يجري في بغداد والقسطنطينية على السواء.

ولم تحدد المصادر الإسلامية تاريخاً لزيارة المبعوث البيزنطي صاحب الملاحظة عن أسواق بغداد ولا بد أنها جرت بين عام ١٤٥/٧٦٢ م الذي شهد بناء مدينة بغداد وعام ١٥٧ هـ/٧٧٣ م الذي جرى فيه اخراج الأسواق إلى ضاحية الكرخ.

ويذكر البيروني أن المنصور بعث ببعض الهدايا إلى الكعبة المشرفة وفيها لوح عظيم من الفضة كان قد أهداه إليه ملك الروم[1]، ولا نعرف تفاصيل السفارة التي حملت هذه الهدية إلى المنصور.

ولا تذكر المصادر الإسلامية أيضاً مقاصد معينة لإيفاد الروم لمبعوثهم وهداياهم إلى البلاط العباسي وقتذاك، وقد يكون البلاط البيزنطي قصد مجرد المجاملة للدولة العباسية الناشئة، وابعاد خطر الحرب في وقت لم تكن بيزنطة مستعدة لها بحكم ما كانت تعانيه من مصاعب داخلية.

وقد مرت فترة ليست بالقصيرة خلت فيها المصادر من ذكر أخبار السفارات الشخصية من قبل البيزنطيين إلى بغداد طيلة عهدي الخليفتين المهدي وابنه هارون الرشيد (١٥٨ ـ ١٩٣ هـ/ ٧٧٤ ـ ٨٠٤ م)، ولكن هذا لا ينفي وجود اتصالات بصور أخرى مثل المكاتبة ومنها ما جرى حول أمور كالهدنة والفداء وغيرهما وسوف يأتي ذلك في المبحث التالي من هذا الفصل.

وقد يرجع ذلك التوقف في السفارات الشخصية بين الدولتين في تلك الآونة إلى الصراع الحربي الحدودي الذي اشتد أواره بينهما في عهدي

---

(١) البيروني: كتاب الجماهر في معرفة الجواهر، ص ٦٧.

المهدي وابنه هارون الرشيد فجاء اتصال الجانبين مقصوراً على المكاتبات التي دارت حول عقد الهدنة أو اجراء الفداء.

وخلف المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ) أباه الرشيد بعد نزاع مع أخيه الأمين على الخلافة استمر أربع سنوات (١٩٤ ـ ١٩٨ هـ)، وفي خلافة المأمون جرت اتصالات متعددة بين الدولتين نذكر منها فيما يلي ما يتعلق بالسفارات الشخصية، وكانت الدولة البيزنطية هي الأخرى تعاني أزمات متعاقبة، فقد تسنم عرشها عدد من الأباطرة الضعاف خلال الفترة من سنة ٨١١ حتى ٨٢٠ م (١٩٦ ـ ٢٠٥ هـ) وقد اختتم هؤلاء عصر الأسرة الأيسورية وأعقبتها الأسرة العمورية على العرش البيزنطي (٨١١ ـ ٨٦٧ م/١٩٦ ـ ٢٥٣ هـ) وأول أباطرتها ميشيل الثاني (٨٢٠ ـ ٨٢٩ م/٢٠٥ ـ ٢١٤ هـ) الذي أخذ يحاول التوفيق بين الفريقين المتعارضين في شأن الأيقونات لكي يتفرغ لإخماد ثورة داخلية كبيرة قادها ضده توماس الأرمني أو الصقلبي «السلافي» عام ٨٢٠ م/٢٠٥ هـ[1]، كما نزل أهل الربض المسلمون الذين خرجوا من الأندلس جزيرة أقريطش سنة ٢١٠ هـ(٨٢٥ م)، وجد الأغالبة التابعون للدولة العباسية في فتح جزيرة صقلية في هذه الأثناء[2]، وقد خلف ميشيل الثاني على العرش البيزنطي الأمبراطور تيوفيل (٨٢٩ ـ ٨٤٢ م/٢١٤ ـ ٢٢٨ هـ) الذي عاصر السنوات الأربع الأخيرة من عهد المأمون ويرى فاسيلييف تشابهاً بين الأمبراطور والخليفة في الاهتمام بالنواحي الدينية والأدبية[3]، ويبدو ذلك واضحاً في اختيار تيوفيل لمبعوثه يوحنا النحوي إلى الخليفة المأمون فقد كان رجلاً حاذقاً، وقد بلغ من آثار هذه السفارة على الخيال الشعبي البيزنطي أن الروايات التي عرضت تفاصيلها اتخذت طابعاً أسطورياً[4].

---

(١) فاسيلييف: العرب والروم، ص ٢١.

(٢) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٣٩٩. انظر: فاسيلييف، المرجع السابق، ص ٢١.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٣.

(٤) عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية، جـ ٢ ص ٣٩٨.

ووصل يوحنا النحوي إلى بغداد واستطاع تحقيق أهداف السفارة التي جاء من أجلها ومنها إعلام الخليفة المأمون بارتقاء الأمبراطور تيوفيل العرش البيزنطي وتقديم هداياه بهذه المناسبة للخليفة العباسي(١)، كما يبدو أن يوحنا النحوي كما تروي المصادر الإسلامية نجح في الالتقاء سراً بالقائد البيزنطي مانويل الذي كان قد خرج على دولته ولجأ إلى الدولة العباسية منذ عهد ميشيل الثاني، واستطاع المبعوث البيزنطي اقناع مانويل بالعودة إلى بلاده، ونقل إليه تأكيدات الأمبراطور تيوفيل بالعفو والأمان وكان يحمل خطاباً أمبراطورياً مختوماً بخاتم ذهبي ومعه صليب الأمبراطور الذي يضعه على صدره بغية اقناع مانويل بالعودة فتعهد مانويل بذلك(٢)، وقد عاد فعلاً(٣).

واضطلاع ذلك المبعوث البيزنطي بأمر الاتصال بمانويل يمكن أن يفسر بعض ما روي عنه من أنه كان ينثر الذهب كالرمل ويبذل الهبات لكل زائر له في مقره بسخاء(٤)، ولعل بيزنطة أرادت كذلك أن تباهي بعظمة الملك وما يشهد بذلك من ثراء وسخاء وطالما حرصت على ذلك في تلك العصور(٥).

وتشير المصادر الإسلامية إلى سفارات شخصية أخرى من قبل البلاط البيزنطي إلى الخليفة المأمون، فقد روت أنه اجتمع مرة في مجلس الفضل ابن سهل (ت ٢٠٢ هـ) وزير المأمون مبعوثان لأمبراطور الروم وكان وقتذاك

---

(١) مصطفى: دولة بني العباس، جـ١ ص ٣٤٣.
عثمان: المرجع السابق.

(٢) - Bury: Hist. of the Eastern Empire P. 257.

(٣) اليعقوبي: جـ٣ ص ١٩٩.

(٤) Ibid. P. 257.
انظر أيضاً: عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية، جـ٢ ص ٣٩٨ - ٣٩٩.

(٥) جرونيباوم: حضارة الإسلام، ص ٤٥ - ٤٦.

ليو الخامس، وملك الحبشة، ولم تذكر الرواية وقت حدوث ذلك، ويبدو أن المبعوث البيزنطي كان حسن البيان والجواب فعندما سأله الوزير العباسي الفضل بن سهل عن سيرة ملكه قال: «قد بذل عرقه وجرد سيفه فاجتمعت عليه القلوب رهبة ورغبة لا ينظر جنده ولا يحوج رعيته، الرجاء والخوف معقودان في يديه»، ولما سأله عن حكمه فيهم قال: «يتصور في القلب فتغضي له العيون»[1] وأجاب المبعوث الحبشي قريباً منه[2]، ويروى أن المأمون عندما أخبر باجابة المبعوثين أعجب ببلاغتهما وأجازهما بعشرين ألف دينار، وتمنى أن يكون لديه من البلغاء من يصف الخلفاء الراشدين بهذه الصفة[3].

ومع أن المبعوث البيزنطي قد بالغ في وصف الأمبراطور ليو الخامس إلا أنه في الصورة التاريخية يعد من أقوى الأباطرة البيزنطيين إذ اشتهر باصلاحاته الداخلية وصده لخطر البلغار على بيزنطة في الخارج.

ولا نستطيع القطع بما إذا كانت هذه الإجابة الحاذقة قد صدرت من المبعوث البيزنطي المثقف يوحنا النحوي الذي سبق ذكره أو غيره؟

ولا توجد إشارة في المصادر الإسلامية إلى ذهاب مبعوث شخصي من قبل الخلافة العباسية إلى البلاط البيزنطي طيلة عهود الخلفاء العباسيين الماضية عدا عهد المأمون، علماً أن المكاتبات التي جرت بين الدولتين ومن يحملها خلال تلك العهود لم تنقطع. وقد يحملها بطبيعة الحال مبعوث تكون مهمته مقصورة على ايصال الكتاب وتسلم رده، إلا أن ثمة إشارة إلى

---

(١) الحصري: زهر الآداب، جـ ١ ص ٢٥٢.

(٢) ولا يعرف شيء عن اسم المبعوث الحبشي أو الملك الذي بعثه، وما هي مهمته، وهل وجوده في بلاط المأمون في الوقت الذي كان فيه مبعوث بيزنطي كان نتيجة مقصد مشترك بينهما أو مصادفة فحسب والاحتمال الأخير أقرب.

(٣) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٥٢ - ٢٥٣، ويذكر ابن الفراء أن هذه السفارة كانت في عهد المعتصم مع اختلاف في اسم وزير الخليفة، رسل الملوك، ص ٦٣.

أن الخليفة المأمون بعث رسولاً إلى امبراطور الروم، ويبدو أنه تيوفيل الذي تسنم العرش البيزنطي في عام ٨٣٢ م/٢١٧ هـ.

ويروي ابن الفراء أنه لما وصل إلى الملك «وأوصل ما صحبه من الكتب وأقام أياماً استأذنه في الدخول إلى الأسرى فأذن له فدخل إليهم وسألهم عن أخبارهم فأعلموه ما هم عليه»[١].

ثم يذكر ابن الفراء أن الرسول حين رجع إلى المأمون ونقل إليه أخبار الأسرى وطرفاً من أشعارهم تستحث همته لاستنقاذهم نهض المأمون إلى ذلك[٢].

وقد تكون هذه السفارة ذات أهمية خاصة بحكم ما نيط بها من مهام تشابه ما أسند إلى مبعوثين للخلافة العباسية في سفارات مشهورة إلى القسطنطينية مثل سفارة نصر بن الأزهر في عهد الخليفة المتوكل سنة ٢٤٦ هـ/ ٨٦٠ م كما سيأتي.

ولا تذكر المصادر الإسلامية زمن سفارة المأمون إلى بلاد الروم أو الشخصية البيزنطية التي قابلت مبعوث المأمون. وقد يكون وقت تلك السفارة بين عامي ٢١٥ ـ ٢١٦ هـ(٨٣٠ ـ ٨٣١ م) في عهد الأمبراطور تيوفيل (٨٢٩ ـ ٨٤٢ م) إذ شهد هذان العامان غزو المأمون للروم، فقد فتح في سنة ٢١٦ هـ أكثر من ثلاثين[٣] حصناً، إذ ربما يكون قد أودع البيزنطيون أولئك الأسرى المسلمين تلك الحصون قرب الحدود الإسلامية البيزنطية تيسيراً لمفاداتهم عند اتفاقهم مع العباسيين على ذلك وإن كان الأسرى المسلمون في الغالب يرسلون إلى القسطنطينية حيث يبدو أن رسول المأمون قد زارهم هناك، وأبلغ الخليفة بعد عودته استغاثة الأسرى به

(١) ابن الفراء: رسل الملوك، ص ٨٧ ـ ٨٨.
(٢) المصدر السابق، ص ٨٩.
(٣) اليعقوبي: جـ٣ ص ٤٦٥؛ ابن الأثير: جـ٦ ص ٤١٩.

لاستنقاذهم. وربما أطلق سراح أولئك الأسرى من معتقلهم في القسطنطينية أو غيرها باتفاق ترتب على غزوات المأمون للأراضي البيزنطية الممتدة إزاء حدود الدولة الإسلامية، ويؤيد هذا الرأي بأن تلك السفارة كانت قبل عام ٢١٦ هـ(٨٣١ م)، أن المأمون ذهب بعد أن خلص أولئك الأسرى إلى مصر كما يشير ابن الفراء نفسه[1]، وتجمع المصادر الإسلامية على أن المأمون بعد غزوه الروم عام ٢١٦ هـ سار إلى مصر لاخماد ثورة نشبت فيها[2].

وفي السنتين التاليتين قصد المأمون ـ أيضاً ـ بلاد الروم مجاهداً وتوفي في الأخيرة قرب مدينة طرسوس[3].

وثمة سفارة عباسية أخرى تشابه أخبارها أخبار السفارة السابقة وقد ذهبت إلى القسطنطينية في عهد الخليفة المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٨ هـ ٨٣٣ ـ ٨٤٢ م) والمعلومات التي توردها المصادر الإسلامية عنها محدودة جداً ومقصورة على إعجاب ملك الروم بمبعوث الخليفة لما رأى فيه من وقار وتجمل وقد سأله عن سبب اختيار الخليفة له مبعوثاً من قبله، فأجابه بأن هناك رجالاً يعدون لقيادة الجيوش وآخرين للقضاء وثمة من يعمدون ـ مثله ـ للوفادة على الملوك[4]. ويدل هذا على اهتمام العباسيين باختيار مبعوثيهم واعدادهم لأداء مهامهم ولا تذكر الرواية شيئاً عن وقت تلك السفارة وهدفها وتفاصيل اللقاء الذي تم، ومع مَنْ من الشخصيات البيزنطية الأخرى غير الأمبراطور، وما نتائجه.

---

(١) ابن الفراء: المصدر السابق، ص ٨٩.

(٢) اليعقوبي: جـ ١ ٤٦٨؛ الطبري: جـ ٨ ص ٦٢٥؛ ابن الأثير: جـ ٦ ص ٤١٩.

(٣) الطبري: جـ ٨ ص ٦٤٦.

على الرغم من حروب المأمون للبيزنطيين إلا أنه كان له ذكر حسن لديهم بسبب ما بلغته الدولة العباسية في عهده من قوة وعزة واهتمامه بالعلم والعلماء إذ نجد أن الأمبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع (١٠٤٢ ـ ١٠٥٥) الذي عاش في عصر متأخر يهتم بقبره في مدينة طرسوس ويشيد عليه قبة كبيرة. انظر: غرس النعمة: الهفوات النادرة، ص ١١٧.

(٤) ابن الفراء: رسل الملوك، ص ٦٤ ـ ٦٥.

والأمبراطور البيزنطي تيوفيل (٨٢٩ - ٨٤٢ م/٢١٤ - ٢٢٨ هـ) هو المعاصر للخليفة المعتصم، وقد تبودلت بينهما عدة مكاتبات في شؤون الحرب والسلم، لكن تبقى أهداف هذه السفارة وتفاصيل وقائعها مع ذلك مجهولة، وهناك حقيقة يجب تأكيدها إذ ينبغي ألا يغرب عن البال أن اتصالات متعددة كانت تجري بوساطة المبعوثين بين ولاة الأقاليم أو البنود البيزنطية في آسيا الصغرى وبين بعض الخلفاء العباسيين أثناء غزوهم الأراضي البيزنطية، أو بين الولاة من الجانبين، وربما اعتبرها بعض المؤرخين المسلمين اتصالات بين الخلفاء والأباطرة، لا سيما أن القواد والولاة في ذلك العصر إنما كانوا يمثلون حكام دولهم، ولا تخرج اتصالاتهم عن اطار السياسة العامة لمن كان يقوم على رأس الدولة العباسية أو الدولة البيزنطية على السواء.

وفي أعقاب انتصار الخليفة المعتصم على الأمبراطور تيوفيل في عمورية سنة ٢٢٣ هـ(٨٣٧ م) وصلت إلى المعتصم سفارة من قبل الأمبراطور البيزنطي برئاسة البطريق[١] باسيل الخرشي[٢] الذي طلب مقابلة الخليفة المعتصم المنتصر فأخبر بأنه مشغول، ثم سمح له بعد ستة أشهر بمقابلة الخليفة[٣] وعندئذ أدى إليه رسالة من تيوفيل تذكر رواية المصادر الإسلامية أنه جاء فيها «ان الملوك لم تزل يغزو بعضها بعضاً، ويعلو بعضها على بعض، وربما أتيت من وزراء السوء، وقد كان منا بزبطره ما كان وتبينت وجه الخطأ فيه وقد كلت الصاع أصوعاً فيما فعلت في عمورية، وأنا

(١) يوجد في الدولة البيزنطية منصبان يطلق عليهما لقب بطريق أحدهما ديني والآخر عسكري، والمقصود هنا الثاني.
(٢) باسيل الخرشني نسبة إلى مدينة خرشنة في آسيا الصغرى التي كان بطريقاً عليها في هذا الوقت. انظر: ميشيل السوري: جـ ٣ ص ٩٦ نقلاً عن فاسيلييف: العرب والروم، هامش ص ١٥٥.
(٣) ابن الفراء: المصدر السابق، ص ٦٨.

أسألك بالطينة المباركة التي أنت منها أن تنعم عليّ باطلاق بطارقتي فإنهم مائة وخمسون بطريقاً وأنا أفتدي كل واحد منهم بمائة من المسلمين، وقد تهادت الملوك قبلنا وقد وجهت مع رسولي من الثياب الديباج المذهبة أربعين ثوباً طول كل ثوب منها أربعون ذراعاً في عرض عشرين»، ويروى أن المعتصم قال لمبعوث تيوفيل: «أرانا قد أضررنا بك لطول مقامك» ـ وهذا من المجاملة المطلوبة ـ قال: «كلا إن طول المقام أوجب لي الذمام ولم نزل نسمع من حكمائنا أن إبطاء الرسول يؤذن بالنجاح وما ضرني مقام قرب منك وأشهدني نعم الله عندك»، فأعجب المعتصم بما ترجم له من كلام المبعوث وقبل هديته[1].

ولم يوفق المبعوث البيزنطي في مهمته إذ لم يجب الخليفة المعتصم تيوفيل إلى ما عرضه عليه وطلبه منه، ويبدو أنه أرسل له كتاباً اشترط عليه فيه تسليم نصر الكردي ومانويل[2] القائدين اللذين لحقا بالأمبراطور البيزنطي من قبل بعد أن كانا لاجئين إلى الدولة العباسية[3]، ويروى أن

---

(١) ابن الفراء: رسل الملوك، ص ٦٨ ـ ٦٩.
ويذكر ابن الفراء (ص ٦٧ ـ ٦٨) أن الذي أرسل هذه السفارة هو الأمبراطور باسيل بن ليون، ولم يكن هذا الأمبراطور معاصراً للمعتصم فقد ولي العرش البيزنطي سنة ٨٦٧ م (٢٥٣ هـ) أي بعد وفاة المعتصم بحوالي ٢٧ عاماً.
وربما خلط ابن الفراء في اسم مبعوث الأمبراطور وكان باسيل فظن أن الأمبراطور الذي أوفده هو باسيل بن ليون والحقيقة أنه كان من قبل الأمبراطور تيوفيل (٨٢٩ ـ ٨٤٢ م ـ ٢١٤ ـ ٢٢٨ هـ) المعاصر للمعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٨ هـ ـ ٨٣٣ ـ ٨٤٢ م) ولا سيما أنه ورد في رسالة الأمبراطور للخليفة ذكر معركتي زبطرة وعمورية وكلاهما وقعتا في عهد خلافة المعتصم وتولي تيوفيل للامبراطورية.

(٢) يحيط بترجمة هذين القائدين غموض واضح في المصادر الإسلامية والمراجع البيزنطية ولا نعرف عن نصر الكردي أكثر من أنه انشق على الدولة العباسية ولجأ إلى البيزنطيين في حين انشق مانويل على البيزنطيين ولجأ إلى الدولة العباسية ثم هرب منها ولحق بهم، وكان الاثنان مع الأمبراطور البيزنطي تيوفيل في وقعة عمورية.

(٣) فاسيلييف: العرب والروم، ص ١٥٥.

المعتصم ذكر في كتابه ـ أيضاً ـ للأمبراطور «إنني سألت صاحبك عن خراج أرضك فذكر أنه كذا وكذا وأخسّ ناحية من مملكتي خراجها أكثر من خراج أرضك فكيف تنابذني»[1].

ولقي المبعوث البيزنطي محمد بن حسن الزيات وزير المعتصم، وفي خلال حديثهما ومناقشتهما سأل الوزير العباسي مبعوث الأمبراطور البيزنطي عن خراج بلده فقال: «أقل من مائة ألف دينار، فقال محمد هذا غلة بعض ضياع أمير المؤمنين»[2]، ولعل وزير المعتصم قصد إلى معرفة حقيقة الأحوال الاقتصادية في الدولة البيزنطية، فضلاً عن المباهاة المعروفة بين الكبراء في شأن ثراء ممالكهم وعظمتها، ولكن المبعوث البيزنطي أجاب الوزير العباسي بقوله «نحن أحزم وأحكم في باب الخراج منكم، أنتم تستخرجون من الناس مالاً فتكسبون عداوتهم، وتوغرون صدورهم، ويسرق المال عمالكم ويعطون عليه الأرزاق ثم يحمل من بلد إلى بلد آخر، فيذهب ويتخرم في الطريق، وتحتاجون أن يسلم إلى خزنة وحراس، ثم تخرجه إلى رجالكم، ونحن جعلنا خراجنا رجالاً، فكفينا هذه المؤنة وصيرنا هذا المقدار الذي ذكرته لك رسما للخراج لئلا يبطل اسمه فأمنا عداوة الناس وحفظنا المال وكفينا ما أنتم فيه»[3] وإجابة السفير لا تخلو من تهمة وقسوة على الدولة العباسية.

ويذكر ابن الفراء أن الوزير العباسي لم يحر جواباً إلى المبعوث البيزنطي، وإن كان المعتاد ألا يسكت على مثل هذا الكلام، ومن جانب آخر يمكن أن هذا الموقف من المبعوث البيزنطي ساهم في فشل مهمته المشار إليها آنفاً، فرد عليه ابن الفراء ـ فيما بعد ـ ومما قال: «وقد كان الجواب ممكناً والحجة متوجهة عليه والخطأ في القول لازماً له وذلك أن

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٦٤.
(٢) ابن الفراء: المصدر السابق، ص ٦٤.
(٣) المصدر السابق، ص ٦٩.

رجال الحرب بمثابة الجوارح التي لا يجوز أن تمرن بعمل من الأعمال ولا مهنة من المهن غير اختطاف الأرواح وصيد الرجال وأعمال الحيلة في التسليم من اللقاء والكر والفر وفي الإقامة والتحيز. . . .، وقد كنت أعرف عن الروم أن أخس الرتب والمنازل عندهم رتبة الكاتب، وأن الشاكري (الخادم) أجل رتبة منه حتى علمت الآن قلة احتياجهم إلى من يحفظ الارتفاع ويحمل أعباء الملك، وتساوي كافتهم في البلاد، وقلة العلوم، ولعمري أن نوازع الروم وأغراضهم ودواعيهم وأوطارهم أقل من نفقات المسلمين ودواعيهم. . .»[1].

ثم مرت على الدولتين العباسية والبيزنطية فترة من الزمن قلت فيها مصادماتهما الحربية، وذلك بعد أن افتقدت الدولة العباسية شخصيات من الخلفاء العظام أمثال الرشيد والمأمون والمعتصم، وارتقى عرش الدولة البيزنطية طيلة ٢٧ عاماً الأمبراطور الضعيف ميشيل الثالث (٨٤٢ ـ ٨٦٧ م) وعرف بالسكير لسوء سيرته[2]، وأتيحت الفرصة خلال تلك الفترة لعلاقات المسالمة والمصالحة، فأجرى خلالها فداء من أكبر ما جرى بين المسلمين والروم، وقد سبقته ـ فيما يبدو ـ اتصالات بين الطرفين للاتفاق على أسس الفداء وترتيب اجراءاته.

واستمرت العلاقات العباسية البيزنطية في تدرجها نحو السلم وكان اجراء عمليات فداء الأسرى يمثل مظهراً هاماً في ارساء قواعد السلم بين الدولتين وقد وضح هذا المظهر في سياستهما ابتداء من عهدي الخليفة العباسي الواثق (٢٢٨ ـ ٢٣٢ هـ) والأمبراطور البيزنطي ميشيل الثالث (٨٤٢ ـ ٨٦٧ م) وكان اجراء الفداء في عام ٢٣١ هـ(٨٤٥ م) شاهداً على تلك الوجهة السلمية التي تعززت بإيفاد الأمبراطور البيزنطي ميشيل الثالث مبعوثاً إلى الخليفة المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ) في عام ٢٤٥ هـ(٨٥٩ م) كان من

(١) المصدر السابق، ص ٦٩ ـ ٧١.

(٢) فسيلييف: العرب والروم، ص ٢٤.

أعظم رجال السياسة البيزنطيين في ذلك الوقت ويدعى أطروبيليس، وقد اصطحب المبعوث البيزنطي معه ٧٧ رجلاً من الأسرى المسلمين عند الروم الذين أطلقوا وأعيدوا إلى الأراضي الإسلامية تأكيداً لاتجاه بيزنطة نحو المسالمة والمودة[١]، ويبدو أن هذا الموقف من جانب الدولة البيزنطية قد نال تقدير الدولة العباسية ولا سيما أن ظروف كلتا الدولتين وقتذاك كانت لا تساعد على قيام صراع حربي بينهما.

وتتيح أخبار السفارات الشخصية المتبادلة بين الدولتين السبيل لمعرفة ما جرت عليه كل منهما في اختيار المبعوث، ومراسم استقبال مبعوث الدولة الأخرى ومعاملته، وإذا كانت بعض السفارات الشخصية قد جرت وقائعها في زمن لاحق للفترة محل الدراسة هنا فإن القواعد المرعية في مثل تلك المناسبات لم تكن وليدة طارئة، وإنما كانت في غالب الأمر تقاليد متبعة لزمن طويل في كلتا الدولتين، ولا شك أن كلا منهما قد تأثرت بالأخرى وأثرت فيما يتعلق بهذه السفارات، بل قد يكون ما جرى عليه استقبال سفرائها ومحادثتهم فيما قدموا لأجله ومعاملتهم، تقاليد قد سرت بين دول العالم الكبرى وقتذاك.

وقد ظهر جلياً أن الدولتين العباسية والبيزنطية اعتنتا بانتقاء مبعوثيها خير انتقاء كما عملت كل منهما على إكرام مبعوثي الدولة الأخرى، ذلك أن المبعوث إنما يمثل عاهل دولته، وينبغي أن يكون في شخصيته وسلوكه مشرّفاً لمن أرسله وهو هنا الخليفة أو الأمبراطور.



(١) الطبري: جـ ٩ ص ٢١٣؛ وانظر أيضاً: العدوي: السفارات الإسلامية إلى أوربا، ص ٦٩.

ب ـ المراسلات والاتفاقات المكتوبة بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية :

قد يؤدي المبعوث نفسه رسالة يكلف بابلاغها للعاهل الذي أوفد إليه إذا كان شخصية قوية مبرزة، على أن الخليفة أو الأمبراطور قد يرى أن يكتب بما يريده اهتماماً بالأمر وتدقيقاً في اختيار كلماته. ويحمل الرسالة مبعوث قد تجرى معه محادثات جانبيه أو تفصيلية.

وكانت الصلة وثيقة بين مثل هذه المكاتبات والسفارات الشخصية التي سبق الحديث عنها لأن القصد من وراء الأمرين واحد. وهو إعلام أحد العاهلين للآخر بشيء يريده مشافهة عن طريق مبعوثه إليه أو مكاتبته برسالته التي يحملها إليه مبعوث خاص أيضاً، وقد تجتمع الرسالة المكتوبة والسفارة الشخصية إذا كان المبعوث الذي يحملها مفوض من قبل من أوفده للحديث فيما تضمنته الرسالة وزيادة موضوعها بياناً وتفصيلاً.

وكثيراً ما تمت مكاتبات في أقاليم الثغور على الحدود بين الدولتين بشأن عقد الصلح أو تجديد الهدنة أو فداء الأسرى.

ولا نجد فيما بين أيدينا من المصادر الإسلامية أخبار مكاتبات بين الخليفة أبي العباس ومعاصره الامبراطور قسطنطين الخامس بشأن حرب أو سلم، فلما تولى الخلافة أبو جعفر المنصور جرت بينه وبين الأمبراطور قسطنطين الخامس مكاتبات بشأن فداء الأسرى بين الدولتين في عام ١٣٩ هـ(٧٥٦ م)، وفي عام ١٥٥ هـ(٧٧١ م) عقدت بينهما معاهدة للصلح

تقرر فيها أن يدفع الأمبراطور البيزنطي أتاوة للمنصور والمعلومات عن هذه المعاهدة محدودة للغاية في المصادر الإسلامية[1].

وحين أخذت الدولة العباسية تقوى وتشتد وبدت بوادر عظمة الدولة وقوتها مع بداية عهد الخليفة المهدي كان العرش البيزنطي في ذلك الوقت مضطرباً أثناء وصاية ايرين على ابنها القاصر قسطنطين السادس (٧٨٠ - ٧٩٧ م)، وقد ارتأت ايرين مخالفة سياسة الأباطرة السابقين من الأسرة الأيسورية فشرعت في العودة إلى ما كان من تقديس الأيقونات من قبل[2]. وكانت الحملات الإسلامية قد توغلت وقتذاك في آسيا الصغرى وبلغ هارون - في عهد أبيه المهدي - سنة ١٦٥ هـ(٧٨١ م) خليج القسطنطينية الأسيوي فاضطرت ايرين إلى مكاتبة هارون في طلب الصلح والموادعة مع الدولة العباسية واعطائها الفدية، وجاء رسلها إلى هارون لهذا الغرض «فقبل ذلك منها هارون وشرط عليها الوفاء بما أعطت له، وأن تقيم له الأدلاء والأسواق في طريقه، وذلك أنه دخل مدخلاً صعباً مخوفاً على المسلمين فأجابته إلى ما سأل، والذي وقع عليه الصلح بينه وبينها تسعون أو سبعون ألف دينار تؤديها في نيسان الأول في كل سنة وفي حزيران فقبل ذلك منها، فأقامت له الأسواق في منصرفه - لضمان مؤنة جيشه - ووجهت معه رسولاً إلى المهدي على أن تؤدي ما تيسر من الذهب والفضة والعرض وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين»[3].

واستمرت معاهدة الصلح مرعية من الجانبين طيلة ٣٢ شهراً حتى نقضها البيزنطيون عام ١٦٨ هـ(٧٨٤ م)[4]، ولم يراعوا خطر نقض الاتفاقات المكتوبة.

---

(١) الطبري: جـ ٨ ص ٤٦.
ابن الأثير: جـ ٦ ص ٥.
(٢) العريني: الدولة البيزنطية، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.
(٣) الطبري: جـ ٨ ص ١٥٢.
(٤) المصدر السابق، جـ ٨ ص ١٦٧.

على أن نقض البيزنطيين للهدنة مع الدولة العباسية لم يكن يعني قيام حرب واسعة النطاق بين الجانبين لأن الأمبراطورة ايرين ظلت مشغولة بمشكلات دولتها الداخلية، كما أن حملات العباسيين كانت مقصورة على الصوائف والشواتي.

فلما تولى العرش البيزنطي نقفور (٨٠٢ - ٨١١ م/١٨٦ - ١٩٦ م) كتب للخليفة هارون الرشيد كتابه المعروف في المصادر الإسلامية فقد جاء فيه «من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق - وفي رواية وضعتك وأباك وأخاك موضع الملوك ووضعت نفسها موضع السوقة - فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا السيف بيننا وبينك»[1].

ولا تذكر المصادر من قدم بهذا الخطاب، والراجح أنه قد حمله مبعوث بيزنطي خاص ولم يحمله صاحب البريد كالرسائل العادية للحكام والولاة إذ أن رسائل الخلفاء والأباطرة كان يحملها مبعوثون من قبلهم وهم يتولون نقل الردود إلى الطرف الآخر.

وقد استفزت الصيغة الملتهبة لكتاب نقفور الخليفة هارون الرشيد، وتعطي المصادر الإسلامية صورة دقيقة لانفعاله كما تسجل رده المشهور إذ «لما قرأه لم يستطع أحد أن ينظر إليه دون أن يخاطبه وتفرق جلساؤه خوفاً من زيادة قول أو فعل يكون منهم»، ولم يستطع أحد أن يشير عليه بشيء فدعا بدواة وكتب على ظهر صحيفة كتاب نقفور ما يأتي:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه دون أن تسمعه

---

(١) الطبري: جـ٨ ص ٣٠٧ - ٣٠٨؛ أبو الفرج الأصفهاني: كتاب الأغاني، جـ١٨ ص ١٦٨.

والسلام»[1] ثم شخص إلى بلاد الروم في جمع لم ير مثله وفتح مدينة هرقلة البيزنطية في عام ١٩٠ هـ[2].

على أن غضب الرشيد لم يحجب نبله وكرم عواطفه الإنسانية، فقد كتب إليه نقفور عقب المعركة كتاباً مع بطريقين من بطارقته يرجو إعادة خطيبة ابنه وكانت ضمن سبي هرقله.

وجاء في كتابه «لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم، سلام عليكم أما بعد أيها الملك فإن لي إليك حاجة لا تضرك في دينك ولا دنياك، هينة يسيرة أن تهب لأبني جارية من بنات أهل هرقله كنت قد خطبتها على ابني، فإن رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته»[3].

وقد استجاب هارون الرشيد لرجاء الأمبراطور وبعث له بالفتاة مع مجموعة من الهدايا كما سيأتي.

وحين تولى الامبراطور تيوفيل بعد عدد من الأباطرة الضعاف قاد الخليفة المأمون بنفسه عدة حملات في آسيا الصغرى، وقد سار إلى الروم في عام ٢١٦ هـ(٨٣١ م) وكان قد بلغه أن تيوفيل أغار على مدينتي طرسوس والمصيصة، على أن تيوفيل ما لبث أن كتب إلى المأمون يطلب المهادنة.

ويروى أن المأمون رد كتاب تيوفيل هذا لبدئه فيه بنفسه، فكتب له تيوفيل خطاباً آخر جاء فيها:

«إلى عبد الله غاية الناس في الشرف ملك العرب من تيوفيل بن

---

(١) المصدرين السابقين.
(٢) المصدرين السابقين.
(٣) الطبري: جـ ٨ ص ٣٢١.

ميشيل ملك الروم»، وقد عرض فيه دفع مائة ألف دينار ورد سبعة آلاف أسير مسلم كانوا بيده إذا رد له المأمون ما أخذ من الحصون وقبل مهادنته خمس سنين، فلم يجبه الخليفة المأمون[1].

ولما وقع حصن لؤلؤه الهام في أيدي المسلمين في عام ٢١٧ (٨٣٢ م) ورأى تيوفيل أن الموقف الحربي أصبح في صالح المأمون بعث إليه رسالة بليغة كان مما جاء فيها:

«أما بعد فإن اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما في الرأي مما عاد بالضرر عليهما ولست حرياً أن تدع الحظ يصل إلى غيرك خطأ تحوزه إلى نفسك، وفي علمك كاف عن اخبارك، وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى المسالمة راغباً في فضيلة المهادنة، لتضع أوزار الحرب عنا، ونكون كل لكل واحد ولياً وحزباً **مع اتصال المرافق والفسح في المتاجرة، وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة**، فإن أبيت فلا أدّب لك في الخمر[2]، ولا أزخرف لك في القول، **فإني لخائض إليك غمارها** آخذ عليك سدادها[3]، شانّ خيلها ورجالها، وإن أفعل فبعد أن قدمت المعذرة وأقمت بيني وبينك علم الحجة والسلام»[4].

وهذا الخطاب الذي أرسله تيوفيل في صدر حكمه يوضح ما يختلج في نفس الامبراطور الجديد وفكره في ذلك الوقت الذي أحدقت فيه الأخطار الخارجية بالدولة البيزنطية سواء في الشمال حيث جثم خطر البلغار والصقالبة (السلاف)، أم في الغرب حيث تعرض الأسطول البيزنطي في بحر الروم لهجوم الأغالبة ومسلمي جزيرة اقريطش، فلا عجب أن يرغب تيوفيل في مهادنة الدولة العباسية في الجنوب، وقد أوضح كتاب الامبراطور

---

(١) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٤٦٥. انظر أيضاً: فاسيلييف: العرب والروم، ص ١٠٣.

(٢) أي لا أخفي ولا آخذك بغتة.

(٣) سدادها: أي مقاصد الحرب وأهدافها.

(٤) الطبري: جـ ٨ ص ٦٢٩.

ما يمكن أن تجنيه الدولتان نتيجة للمسالمة من اتصال المرافق، وأمن الطرق ونشاط التجارة بينهما، فضلاً عن اطلاق أسارى الطرفين، ومع ذلك فلم يخل خطاب الأمبراطور من التهديد بخوض الحرب إذا لم يكن غير الأسنة مركباً على الرغم من ظروف الامبراطورية غير المواتية.

ويروى أن الخليفة المأمون قد رد على الامبراطور تيوفيل بالكتاب التالي:

«أما بعد فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت إليه من الموادعة، **وخلطت فيه من اللين والشدة** مما استعطفت به من شرح المتاجر واتصال المرافق، وفك الأساري ودفع القتل والقتال فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ في تقليب الفكر، وألا أعتقد الرأي في مستقبله إلا في استصلاح ما أوثره في معتقبه لجعلت جواب كتابك خيلاً تحمل رجالاً من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم[١] ويتقربون إلى الله بدمائكم، ويستقلون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم، ثم أوصل إليهم من الإمداد وأبلغ لهم كافياً من العدة والعتاد، هم أظمأ إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرتهم عليكم[٢]، موعدهم إحدى الحسنيين: عاجل غلبه أو كريم منقلب، غير أني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة، من **الدعاء لك ولمن معك** من الوحدانية والشريعة الحنيفية فإن أبيت ففدية[٣] توجب ذمة، **وتثبت نظره**

---

(١) أي على الموت الذي تصبح به زوجاتكم وأمهاتكم ثكلى عليكم ويكون استشهاداً بالنسبة لهم. انظر: ابن منظور: لسان العرب، جـ ١ ص ٣٦٦.

(٢) أي من مخوف هلاككم وفنائكم وشدة حرصهم عليكم. انظر: ابن منصور، جـ ٣ ص ٥٠٣ ـ ٥٠٤.

(٣) تختلف هذه الدية ـ أو الجزية كما يعبر عنها بعض المؤرخين أحياناً ـ التي كانت تنص عليها بعض المعاهدات مع الروم عن الجزية التي يدفعها أهل الذمة في داخل الدولة الإسلامية، وإن اتفقتا في المعنى العام فالجزية عبارة عن المال الذي يعقد الكتابي الذمة عليه مع الحاكم المسلم في حين تكون الفدية بين الدول وليس =

وإن تركت ذلك ففي يقين المعاينة لنعوتنا ما يغني عن البلاغ في القول والإغراق في الصفة، ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ (١).

وعلى الرغم من أن في الكتابين مزجاً واضحاً بين الشدة واللين إلا أن كتاب تيوفيل يعكس ناحية هامة عند انتفاء الحرب بين الدولتين واتصال السلم بينهما وما يتبعه من فك الأسرى وتأمين الطرق واتصال المتاجر، ومن الملاحظ أن الامبراطور هو البادىء بطلب الموادعة وتقديم مزاياها في كتابه على التلويح بالشدة، وقد يرجع ذلك إلى الأخطار المحدقة به آنذاك في الداخل والخارج في حين كان جواب المأمون أشد وأقوى في رفض مطالب تيوفيل وكاد أن يجعل الرد عليه الحرب دون غيرها فهو لم يعد يخش الحرب بعد استقرار حكمه وازدهار دولته ولكنه آثر تخييره بين الإسلام أو الفدية أو القتال على نهج ما كان يعرضه المسلمون في فتوحهم الأولى.

وهكذا رفض المأمون جميع مطالب تيوفيل، وعندما علم تيوفيل أن المأمون يستعد لحصار مدينة عمورية في عام ٢١٨ هـ(٨٣٣ م) أرسل خطاباً إليه يعرض فيه أن يرد له نفقات حملته ويسلم ما لديه من أسرى المسلمين، ويصلح ما خرب الروم من ثغور المسلمين على أن يضع المأمون الحرب عنه وطلب اجراء الصلح والمهادنة بينهما بدلاً منها أو التهديد بها كما سبق(٢).

وحين قدم رسول الامبراطور البيزنطي بكتابه إلى المأمون قام فدخل خيمته حيث صلى ركعتين واستخار الله فيهما ثم خرج فقال لمبعوث تيوفيل:

= على رؤوس الأفراد، وتكون في فترات الموادعة والمصالحة بين المسلمين وأهل دار الحرب، إلا أنها تتفق مع الجزية والخراج في عدم وجوب الخمس فيها، فهي ليست فيئاً أو غنيمة أيضاً. انظر: الشيباني: شرح كتاب السير الكبير، جـ ٥ ص ١٧٠٣ - ١٧١٣.

(١) الطبري: جـ ٨ ص ٦٣٠.

(٢) اليعقوبي: المصدر السابق، جـ ٣ ص ٤٦٩؛ المسعودي: مروج الذهب، جـ ٣ ص ٤٥٥.

«قل له، أما قولك ترد على نفقتي فإني سمعت الله يقول في كتابنا - أو في كتابه العزيز - حاكياً عن بلقيس ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾[1]. وأما قولك إنك تخرج كل أسير من المسلمين في بلد الروم، فما في يدك إلا أحد رجلين: أما رجل طلب الله عز وجل والدار الآخرة، فقد صار إلى ما أراد، وأما رجل يطلب الدنيا، فلا فك الله أسره.

وأما قولك: إنك تعمر كل بلد للمسلمين قد خربته الروم، فلو أني قلعت أقصى حجر في بلاد الروم ما اعتضت بامرأة عثرت عثرة في حال أسرها فقالت: وامحمداه وامحمداه، عد إلى صاحبك فليس بيني وبينه إلا السيف ياغلام اضرب الطبل»[2].

وتتجلى هنا صورة المأمون وهو يؤدي صلاة الاستخارة، ويتحمس للجهاد، ويستشهد بآي القرآن على مواقف أعدائه ومراوغتهم، ومشيداً بعلو همة جنده وحرصهم على الاستشهاد، ومبرزاً حرصه هو على الذب عن دار الإسلام وأهله ومكانة ذلك عنده، لا سيما في ظل استقرار حكمه وازدهار دولته الذي يساعده على تحقيق ذلك. ويفهم من مقتضى هذه الرواية أن رد المأمون كان شفوياً وهذا من صور الرد على المكاتبات ويكون غالباً عند الانفعال وإعلان الحرب، إذ يكفي في ذلك الرد الشفوي أو الرد الكتابي الموجز على نحو ما سبق من رد الرشيد على نقفور.

وظل موضوع طلب الهدنة، ووضع أوزار الحرب، وفداء الأسرى بين الدولتين من أهم ما قصدت إليه المكاتبات بين الخلفاء العباسيين والأباطرة

(١) سورة النمل: الآيه ٣٦.
(٢) المسعودي: مروج الذهب، جـ٣ ص ٤٥٦.

البيزنطيين نتيجة للموقف المتوتر على حدودهما، وتزايدت هذه السمة في مكاتبات الجانبين عندما تولى الخلافة المعتصم وكان معاصره على عرش بيزنطة الامبراطور تيوفيل، وكان للرجلين شأن في تاريخ دولتيهما وعلاقتهما الحربية، فقد عادت صيغة المكاتبات القوية والتي عرفها هارون الرشيد ونقفور فترددت بين المعتصم وتيوفيل، فقد كتب الأمبراطور للخليفة يتوعده ويتهدده، ويبدو أن هذا الأسلوب بدر من تيوفيل في غمرة نشوة نصره في معركة زبطره سنة ٢٢٣ هـ، فكتب إليه المعتصم بنفسه «بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت خطابك والجواب ما ترى لا ما تسمع به وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار»(١).

فلما ترامت إلى مسامع الامبراطور البيزنطي استعدادات المعتصم للانتقام لمعركة زبطره واصراره على خوض غمار الحرب ضده عرض على الخليفه اعتذاره عن تخريب زبطره ورغبته في الصلح وكتب إليه ما معناه «إن الذين فعلوا بزبطره ما فعلوا تعدوا أمري وأنا أبنيها بمالي ورجالي وأرد من أخذ من أهلها وأخلي من في بلد الروم من الأسارى وأبعث إليك بالقوم الذين فعلوا بزبطره على رقاب البطارقة»(٢).

فرفض المعتصم عرض الامبراطور ولم تكن له نتيجة ايجابية وسار المعتصم على رأس حملة خربت عمورية سنة ٢٢٣ هـ/٨٣٧ م التي ينتمي إليها البيت الحاكم في بيزنطة ثأراً من زبطره، إلا أن هذه العلاقات العدائية المتوترة لم تستمر طويلاً ولم تلبث الاتصالات باختلاف صورها ومنها المكاتبات بطبيعة الحال فقد استؤنفت بشأن فداء الأسرى وغيره مما يربط بين الجانبين في العهود التالية.

---

(١) ابن الفراء: ص ٨٢؛ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، جـ٣ ص ٣٤٤.
(٢) اليعقوبي: جـ٣ ص ٢١٠.

جـ ـ الهدايا المتبادلة بين الخلفاء العباسيين والأباطرة البيزنطيين في العصر العباسي المبكر:

ما أوردته المصادر الإسلامية في هذا المجال قليل ليس فيه تفصيل إذ قد يتطلب الأمر تحديد شخصية الامبراطور البيزنطي المهدى أو المهدي إليه إذا تعدد الأباطرة المعاصرون للخليفة وكان تاريخ الإهداء مجهولاً.

كما تلزم محاولة الكشف عن دوافع الإهداء وظروف الدولتين العباسية والبيزنطية وقت الإهداء، إلى جانب محاولة معرفة الهدايا نوعاً ومقداراً حتى يسلط الضوء على هذا المجال من مجالات الاتصالات السياسية بين العباسيين والروم البيزنطيين، وكثيراً ما يواجه الباحث عبارة تقف عند نطاق القول بأنه (وصل بطريق ومعه هدايا) أو (جاءت هدايا إلى الخليفة)، وليس هنا مجال للتكهن وقد يمكن التوصل إلى ما يمكن أن يكون محل اهداء بوجه عام لا إلى ما أهدى فعلاً في واقعة معينة، وإن كان من المسلّم به أن الخلفاء والأباطرة مثلما كانوا يختارون رسلهم من أفضل الرجال فلا شك أنهم كانوا ينتقون هداياهم من أجود الأشياء وأغلاها، حتى تكون الهدية عنواناً لعظمة الدولة وعاهلها.

وقد أهدى الأمبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس إلى الخليفة أبي جعفر المنصور المعاصر له ـ وإن كانت المصادر الإسلامية لم تذكر اسم الامبراطور ـ لوحاً عظيماً من الفضة إليه بلغ من نفاسته عنده أن بعث به المنصور في جملة هداياه إلى الكعبة المشرفة[1]، لتزيينها به في الغالب.

(١) البيروني: كتاب الجماهر في معرفة الجواهر، ص ٦٧.

وقد استجاب الرشيد بعد حملته على مدينة هرقله من بلاد الروم إلى رجاء نقفور في رد فتاة وقعت في سبي المسلمين وكانت مخطوبة لابن الامبراطور[1].

فأحضرت الفتاة وزينت على سرير في سرادقه الذي كان نازلاً فيه ثم أمر أن تسلم الجارية والسرادق بما فيه من الآنية والمتاع إلى رسل نقفور وأرسل معهم رسولاً من قبله، كذلك استجاب الرشيد لنقفور بشأن ما سأله من العطر، وأهدى له أنواعاً مختلفة - زيادة على ما طلب من العطر - من التمور والأخبصة والزبيب والترياق[2].

وقد رد نقفور على كرم الرشيد بمثله فعاد رسول الخليفة يحمل هدايا قيمة من نقفور شملت وقر دراهم إسلامية كان مبلغه خمسين ألف درهم ومائة ثوب ديباج ومائتي ثوب بزيون[3]، واثني عشر بازيا، وأربعة أكلب من كلاب الصيد، وثلاثة براذين[4].

ويدل هذا على نفاسة الديباج البيزنطي وقيمة الدراهم الإسلامية ومعرفة الأباطرة باهتمام الخلفاء بالصيد والبراذين كمراكب.

وهكذا لم يمنع العداء الشديد الذي ثار بين الرجلين قيام علاقات شخصية من المجاملة والمودة بينهما، مثلما لم تمنع المصادمات الحربية لدولتيهما من العلاقات السلمية بينهما في مختلف المجالات.

وأهدى أحد أباطرة الدولة البيزنطية إلى الخليفة المأمون هدية فقال المأمون «أهدوا له ما يكون ضعفها مائة مرة ليعلم عز الإسلام ونعمة الله علينا» ففعلوا ذلك، فقال - وقد كملت الهدية - «ما أعز الأشياء عندهم؟

(١) الطبري: جـ ٨ ص ٣٢١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) البزيون: السندس وقيل رقيق الديباج. انظر: ابن منظور: لسان العرب، جـ ١ ص ٣١٠.
(٤) الطبري: جـ ٨ ص ٣٢١.

قالوا: «المسك والسمور» فقال: «زيدوهم مائتي رطل مسكاً ومائتي جلد (فرو) سمور»[1].

ولا نعرف اسم الامبراطور الذي تهادى مع المأمون ولا تاريخ وصول هديته إليه حتى يمكن أن نستدل به عليه، فقد كان معاصراً للمأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ - ٨١٣ - ٨٣٣ م) عدداً من الأباطرة البيزنطيين هم ليو الخامس (٨١٣ - ٨٢٠ م/١٩٨ - ٢٠٥ هـ)، وميشيل الثاني (٨٢٠ - ٨٢٩ م/٢٠٥ - ٢١٤ هـ)، وتيوفيل (٨٢٩ - ٨٤٢ - م/٢١٤ - ٢٢٨ هـ).

ولعل هذه الهدية بعث بها إلى المأمون الامبراطور ليو الخامس أو الامبراطور ميشيل الثاني، والأول يبدو أقرب لوصول مبعوث منه إلى المأمون كما سبقت الإشارة إليه، وربما جاءت مصاحبة له، أما تيوفيل فلم يدرك من خلافة المأمون إلا أربعة أعوام وكانت فترة عداء حربي بينهما تنتفي معه أساليب المجاملة والصلات في أكثر الأحيان.

وكذلك لا نعرف أي تفاصيل عن هدية الامبراطور نوعاً ومقداراً ولعلها لم تكن هائلة القدر فأمكن مضاعفتها مائة مرة، هذا إذا كان الخبر صحيحاً وكانت دلالة مائة مرة مقصودة حسابياً، ولا يحمل مبالغة كما هو الشأن في أمثال بعض هذه الروايات.

وحمل مبعوث الخليفة المتوكل نصر بن الأزهر إلى القسطنطينية في شأن فداء الأسرى معه مجموعة من الهدايا للامبراطور البيزنطي مشيل الثالث (السكير) (٨٤٢ - ٨٦٧ م/٢٢٨ - ٢٥٣ هـ) يبينها نصر بقوله: «وكان معي نحو من ألف نافجة مسك، وثياب حرير وزعفران كثير وطرائف»[2].

---

(١) الرشيد بن الزبير: الذخائر والتحف، ص ٢٨؛ الأبشيهي: المستطرف، جـ ٢ ص ٦٠.

(٢) الطبري: جـ ٩ ص ٢١٩.

وقد اقترن تهادي الجانبين بالمراسلات والسفارات الشخصية، بينهما، وكانت الهدايا وسيلة لتخفيف حدة التوتر وتنمية المودة الشخصية لتعزيز العلاقات السلمية، والتوصل إلى ما يريده الطرف المهدي من الهدنة أو الصلح أو فداء الأسرى.

وكانت هدايا الخلفاء العباسيين والأباطرة البيزنطيين ثمينة مرغوبة لدى أصحاب القصور ولا سيما من أهديت إليه، وقد تكون مما تتميز الدولة بوجوده أو بانتاجه، كما قد تكون شيئاً نادراً، إذ نجد الديباج مثلاً يأتي في مقدمة هدايا الأباطرة البيزنطيين لشهرة بيزنطة بانتاجه واحتكارها لصناعته، وقد بلغت شهرة الديباج الرومي في بلاد المسلمين شأواً بعيداً، ونجد المسك يأتي على رأس هدايا الخلفاء للأباطرة لنفاسته عند الطرفين لشذا رائحته المعروفة، وكان يصل إلى الدولة العباسية بوفرة ـ بالإضافة إلى ما يوجد منه في إقليم السند ـ من الهند والصين ويندر في بيزنطة.

كما أن تبادل الحرير في هدايا الطرفين يعطي دلالة على تقدم صناعته فيهما، ويدل اهداء المأمون للمسك وفراء السمور ـ كما سبق ـ على نشاط التجارة العباسية فقد كان يجلب الأول من الهند والصين[1] ويجلب الثاني من بلاد الروس في أعالي نهر الفلجا في الشمال[2].

---

(١) اليعقوبي: البلدان، ص ١١٧.

(٢) ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص ١٥٤.

الفصل الثالث

سفارات الدولة العباسية إلى الدولة البيزنطية

خلال العصر العباسي الثاني

١ ـ سفارات الدَوْلة العَباسيَة منذ عهد المتوكل حتى عهد المستكفي.

٢ ـ السفارات العَباسية منذ عهد المطيع لله حتىٰ عهد القائم بالله.

٣ ـ السفَارات العَباسية منذ عهد القائم حتى سقوط الدولة العَباسيَة.



سفارات الدولة العباسية إلى الدولة البيزنطية

تشغل العلاقات بين الدولتين العباسية والبيزنطية بمختلف مجالاتها حيزاً كبيراً من تاريخ الدولتين بل من تاريخ العالم الذي عاشتا فيه، فقد كانت الدولتان أقوى دول عالمها وأهمها، مدة طويلة، وشغلت كل منهما مساحات شاسعة ذات أهمية كبرى سواء بالنسبة لكل منهما أم بالنسبة للعالم الذي تعاصرتا فيه، وربط الجوار بينهما عبر عدة أقاليم حدودية امتدت من أعالي نهر الفرات في الشرق حتى شواطىء بحر الروم وجزره الشرقية، واتصلت علاقتهما عبرها سلماً وحرباً، واختلفت فترات أحداهما حسب قوة الدولتين واستقرارهما الداخلي ومركزهما الاقتصادي أيضاً إلا أن المجالين وجدا بين الدولتين وهذه حقيقة لا مراء فيها.

وإذا كان العصر العباسي المبكر قد اتسم بالصراع العسكري وذروة الاتصال الحربي مع الروم فإن الصورة اختلفت في العصور العباسية التالية فقد ضعف الصراع الحربي تدريجياً وجنح الجانبان إلى السلم كثيراً، بل ربما انقطع الاتصال كلية عدة مرات سوف تتضح أسبابه في مناسباتها فيما بعد.

وإذا كان للاتصال السلمي بين الدولتين مجالات متعددة دبلوماسياً وثقافياً واقتصادياً واجتماعياً فإن موضوع هذا البحث يدرس المجال الأول منها بمختلف جوانبه وأسبابه وظروفه وأهدافه ونتائجه، وبخاصة تلك

السفارات التي نهضت من بغداد العاصمة العباسية إلى القسطنطينية العاصمة البيزنطية، وسوف يتناول هذا الفصل الاتصال منذ عهد الخليفة العباسي المتوكل حتى سقوط الدولة العباسية.

١ ـ سفارات الدولة العباسية منذ عهد المتوكل حتى عهد المستكفي (٢٣٢ ـ ٣٣٤ هـ/٨٤٦ ـ ٩٤٥ م):

أخذت الدولتان في هذه الفترة التي نافت عن المائة سنة تركنان إلى السلم لاسباب داخلية لكل منهما، وتبرز أكثر وضوحاً بالنسبة للدولة العباسية حيث ضعف الخلفاء وتغلب عليهم وزراؤهم الأتراك، وظهر المتغلبون وطرّناب الفتن والثورات في كل مكان، وليست الحال بمختلفة كثيراً في الدولة البيزنطية في صدر هذه الفترة إلا أن أحوالها السياسية والاقتصادية تحسنت كثيراً في النصف الثاني منها، بل تصبح المقارنة بين الدولتين أثناءه غير متوازنة فقد تسنم العرش البيزنطي أباطرة الأسرة المقدونية (٢٢٩ ـ ٤١٦ هـ/٨٤٣ ـ ١٠٢٥ م) وهي الأسرة التي يعتبر حكمها العصر الذهبي في تاريخ الدولة البيزنطية[١]، إلا أن الذين واجهوا المد البيزنطي في هذا العصر غالباً هم الطولونيون[٢] والاخشيديون[٣] الذي حكموا مصر والشام وكانوا يخضعون إسمياً للعباسيين.

(١) - Ostrogorsky: History of the Byzantine State. London. 1980. PP. 26-30.

(٢) الطولونيون: نسبة إلى أحمد بن طولون الذي ولي مصر سنة مائتين وأربعة وخمسين في عهد الخليفة العباسي المعتز، ثم أصبحت سورية تابعة له، وظلت مصر وسورية تحت ولاية البيت الطولوني حتى سنة مائتين واثنين وتسعين وبلغتا في عهدهم مرحلة طيبة من الثراء والاستقرار. انظر سليمان: تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، جـ ١ ص ١٢٨، القاهرة ١٩٦٩ م.

(٣) الإخشيديون: نسبة إلى محمد الإخشيد وقد آلت إليه ولاية مصر وسوريا في عهد الخليفة الراضي ونجح في الاحتفاظ بحكمهما في بيته من بعده مع الولاء الأسمى للخلافة العباسية واستمر حكمهم هناك حتى قدم الفاطميون مصر فأسقطوا بيتهم في سنة ثلاث مائة وثمان وخمسين. انظر سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، ص ١٢٩٠.

ودلالة هذه المرحلة في تاريخ الدولتين ـ والعباسية بخاصة ـ هو انفراج العلاقات بينهما نحو السلم، وبرزت ملامحها في مظاهر الفداء وتبادل الأسرى والحوار الدبلوماسي والوفادات والمكاتبات بشأنهم بين الجانبين.

ومن أول علائم الاتصال الدبلوماسي بين الدولتين في هذه الفترة ما جاء في المصادر البيزنطية بأن البطريرك فوتيوس Photius ذهب إلى العاصمة سامراء[1] وأجرى حواراً مع الخليفة العباسي المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ/٨٤٦ - ٨٦١ م) بشأن فداء الأسرى بين الدولتين حوالي عام مائتين وسبع وثلاثين (٨٥١ م)، وتذكر هذه المصادر أن قسطنطين أحد رجال الدين المشهورين هناك رافق المبعوث البيزنطي وأجرى مناظرة دينية مع عدد من فقهاء المسلمين في بلاط الخليفة، وتفوق عليهم في كثير من قضايا النقاش حتى أنهم حاولوا أن يدسوا السم له انتقاماً منه[2].

ولم تشر المصادر الإسلامية إلى هذه السفارة كما لم تذكر أن فداء جرى مع الروم في هذا التاريخ، بل لم يحدث صراع حربي بين الجانبين في هذا الوقت، وإنما بعده بقليل في عام مائتين وتسع وثلاثين (٨٥٣ م)، ولا يمكن أن يتباحث الطرفان في أمر فداء مسبق، وإذا صحت الرواية البيزنطية فإنه يمكن قبولها على أساس أن السفارة البيزنطية جاءت لتجديد الهدنة المعقودة مع العباسيين في سنة مائتين وست وأربعين (٨٦٠ م) أما

---

(١) سامراء: مدينة تقع في شمال بغداد على نهر دجلة في العراق جَدد بناءها المعتصم واتخذها عاصمة للدولة العباسية في سنة مائتين وواحد وعشرين وظلت عاصمة لها سبعة وستين عاماً ثم عادت بغداد عاصمة للدولة. انظر: ياقوت: معجم البلدان، بيروت ١٩٧٩ م، جـ ٣ ص ١٧٣ - ١٧٨.

(٢) - Lovrav: Materialy Positorii vozni knovneisci slavjanskoj. 7Seg. 45 Seg apud.
- Oaks: «The embassies Constantin, Cyril and Photius to the Arab» Phitian and Byzantine Ecolesiastical Studies. London. 1974. P. 569.

ما جرى مع أفراد السفارة البيزنطية من مناظرة دينية في بلاط الخليفة فإن ذلك غير مستبعد في ظل ما عرف عن الخليفة المتوكل نفسه من اهتمام بالقضايا الدينية، وهي أمور اعتاد الطرفان النقاش حولها في ذلك العصر، أما أن يتغلب الجانب البيزنطي فيها فالأمر لا يخلو من مبالغة كما يرى أوكس oaks أراد بها المؤرخ البيزنطي تمجيد بطل روايته قسطنطين الذي جاءت هذه الأخبار في سياق سيرته[1].

وإذا كانت الأفدية تعتبر نتيجة من نتائج العلاقات الحربية بين المسلمين والروم فإنها تعتبر أيضاً ميلاً نحو السلم في علاقات الطرفين، إذ تبودلت الرسل بينهما تمهيداً لعقدها واجرائها، وكلما كان أولئك المبعوثون من ذوي السياسة والحنكة تمت أمور الفداء بيسر وسرعة.

ومن أبرز المؤرخين الذين كتبوا عن الأفدية بين المسلمين والروم المسعودي في كتابه التنبيه والإشراف[2] فقد رتبها حسب تاريخها وذكر القائم على كل فداء وعدد من فودي به من المسلمين والروم ثم مظاهر الاستعداد لأيام الفداء والاحتفال بها.

وهكذا كانت الأفدية من الأهداف الرئيسية بل أهمها التي ذهبت السفارات العباسية لتحقيقها، فما من فداء جرى بين المسلمين والروم إلا سبقه اتصال دبلوماسي بينهما ومن ثم يذهب مبعوثون عباسيون إلى الدولة البيزنطية لهذا الغرض، أو يقدم رسل بيزنطيون إلى الدولة العباسية بشأنه والمفاوضة فيه، وقد يوكل للمبعوثين مهمات أخرى تبتغي دولتهم تحقيقها كعقد صلح مع الجانب الآخر أو المفاوضة في شأن لاجيء أو ثائر لجأ إلى هذا الجانب أو ذاك ونحوها.

---

(١) - Oaks: Op. Cit. PP. 570-571.

(٢) ص ١٦١ - ١٦٥.

ومن أشهر سفارات الأفدية التي جرت بين المسلمين والروم في هذه الفترة، وندب فيها العباسيون سفراءهم هي:

ـ سفارة سنة مائتين وواحد وأربعين:

في سنة مائتين وواحد وأربعين (٨٥٥ م) بعث الخليفة المتوكل مولاه شنيف الخادم للاتفاق مع الروم على اجراء الفداء حيث وجه له امبراطور الروم ميخائيل الثالث Michael III (٢٢٨ ـ ٢٥٣ هـ/٨٤٢ ـ ٨٦٧ م) بمبعوثين بيزنطيين حملوا للخليفة هدايا واقتراحاً بتبادل الأسرى بين الطرفين فهاداه الخليفة ووافق على مقترحاته[1]. إلا أن المبعوث العباسي فيما يظهر لم يذهب إلى القسطنطينية لمقابلته والتفاوض معه بشأن الأسرى المسلمين، حيث جرت العادة في أكثر الأحيان أن يتم التفاوض في هذا الشأن بين ولاة الثغور الإسلامية والبنود البيزنطية المتجاورة أو بين مبعوثي الخلفاء العباسيين وبين مندوبين بيزنطيين على الحدود بين الدولتين، وهو ما يظهر أن المبعوث العباسي اتبعه في هذا الفداء، وتم الاتفاق بين الطرفين على اطلاق الأسرى من الجانبين وبلغ من فودي به من المسلمين ألفي رجل ومائتي امرأة واستمر الفداء سبعة أيام[2].

ـ سفارة نصر بن الأزهر:

أعقب الفداء السابق فداء سنة مائتين وست وأربعين المعروف بفداء نصر بن الأزهر الذي أرسله الخليفة المتوكل سفيراً إلى الامبراطور ميخائيل الثالث في العام السابق بشأن المباحثة معه حول تبادل الأسرى واجراء الفداء بين المسلمين والبيزنطيين بناء على مقترحات الامبراطور البيزنطي عندما أرسل مبعوثه أطروبيليس واصطحب المبعوث معه سبعة وسبعين أسيراً

---

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، النجف ١٩٦٤ م، جـ٢ ص ٤٩١.
(٢) المسعودي: التنبيه والإشراف، القاهرة ١٩٣٨ م، ص ١٦٢.

مسلماً تأكيداً على حسن النية والموادعة بين الطرفين[1]. وسفارة نصر بن الأزهر هذه مشهورة معروفة في المصادر الإسلامية نظراً لأهمية الفداء الذي عقده مع البيزنطيين حتى حقق الهدف الذي بعث من أجله، وتتضح هذه المواقف من وصف نصر بن الأزهر نفسه لسفارته إلى البلاط البيزنطي وحواره مع الامبراطور وكبار رجال حاشيته إذ يقول: «لما صرت إلى القسطنطينية حضرت دار ميخائيل الملك بسوادي وسيفي وخنجري وقلنسوتي، فجرت بيني وبين خال الملك بطرناس المناظرة ـ وهو القيم بشأن الملك ـ وأبوا أن يدخلوني بسيفي وسوادي فقلت انصرف فانصرفت فرددت من الطريق ومعي الهدايا نحو من ألف نافجة[2] مسك وثياب حرير وزعفران كثير وطرائف، وقد كان اذن لوفود برجان وغيرهم ممن ورد عليه وحملت الهدايا التي معي فدخلت عليه فإذا هو على سرير فوق سرير، وإذا البطارقة حوله قيام فسلمت ثم جلست على طرف السرير الكبير، وقد هيىء لي مجلس ووضعت الهدايا بين يديه، وبين يديه ثلاثة تراجمة: غلام فراش كان لمسرور الخادم وغلام لعباس بن سعيد الحوهري، وترجمان له قديم يقال له سرحون. فقالوا لي: ما نبلغه؟ قلت: لا تزيدون على ما أقول لكم شيئاً، فأقبلوا يترجمون ما أقول فقبل الهدايا ولم يأمر لأحد منها بشيء وهيأ لي منزلاً بقربه فخرجت فنزلت في منزلي.

وأتاه أهل لؤلؤة[3] برغبتهم في النصرانية وأنهم معه ووجهوا برجلين

(١) العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٨٢٠٣، جـ١٣ ورقة ١٧٣ ظهر ١٧٤؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٩ ص ٢١٣.

(٢) نافجة: لفظة أعجمية معربة، ونافجة المسك أي الجلد الوعائي المرتفع الذي يتجمع فيه المسك في الغزال. انظر: الجواليقي: المعرب من الكلام الأعجمي، القاهرة ١٣٦١ هـ، ص ٣٤١، وهامش رقم (٢) في نفس الصفحة.

(٣) لؤلؤة: إحدى مدن الثغور الشامية على الحدود الإسلامية البيزنطية، وتمر بها درب السلامة المتجهة من بلاد المسلمين إلى بلاد الروم نحو القسطنطينية. ابن خرداذبة: المسالك والممالك، بريل ليدن ١٨٨٩ م، ص ١٠٠.

ممن فيها رهينة للمسلمين فتغافل عني نحواً من أربعة أشهر حتى أتاه كتاب مخالفة أهل لؤلؤه، وأخذهم رسله واستيلاء العرب عليها فراجعوا مخاطبتي وانقطع الأمر بيني وبينهم في الفداء على أن يعطوا جميع من عندهم وأعطي جميع من عندي، وكانوا أكثر من ألف قليلاً، وكان جميع الأسرى الذين في أيديهم أكثر من ألفين منهم عشرون امرأة معهن عشرة من الصبيان، فأجابوني إلى المحالفة فاستحلفت خاله فحلف عن ميخائيل، فقلت: أيها الملك قد حلف لي خالك فهذه اليمين لازمة لك؟ فقال برأسه: نعم، ولم أسمعه يتكلم بكلمة منذ دخلت بلاد الروم إلى أن خرجت منها، إنما يقول الترجمان وهو يسمع فيقول برأسهم: نعم أو لا، وليس يتكلم وخاله المدبر أمره، ثم خرجت من عنده بالأسرى بأحسن حال»[1].

وقد خرج السفير العباسي نصر بن الأزهر من القسطنطينية والأسرى المسلمين برفقته كما يظهر من مقالته أعلاه، ومن المفهوم أن البيزنطيين توصلوا إلى اتفاق معه أن يصطحب الأسرى إلى نهر اللامس[2] على الحدود الإسلامية البيزنطية بالقرب من مدينة طرسوس ليتم هناك مفادتهم بالأسرى البيزنطيين ولتجري مراسم الفداء المعتادة.

ومن ثم تولى عامل الثغور الشامية علي بن يحيى الأرمني[3] المناداة

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٩ ص ٢١٩ - ٢٢٠.

(٢) نهر اللامس: يقع بالقرب من قرية عرفت باسمه بالقرب من ثغر طرسوس على بحر الروم في تركيا حالياً، وكان يتم على إحدى مخاضاته هناك تبادل الأسرى بين المسلمين والروم في عمليات فداء الأسرى المشهورة في المصادر الإسلامية. انظر: ياقوت، معجم البلدان، جـ ٥ ص ٨.

(٣) علي بن يحيى الأرمني: هو أحد ولاة الثغور الإسلامية المشهورين في عهد المتوكل وأوائل عهد المعتز، قاد عدداً من حملات الصوائف ضد الروم، كما أشرف على بعض الأفدية معهم واستشهد أخيراً في قتاله معهم في سنة مائتين وتسع وأربعين. انظر الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ ٩ ص ١٩١ و١٩٦ و٢١٨ و ٢٦١.

بجمع الأسرى البيزنطيين ليتم مفاداة الأسرى المسلمين بهم، ثم توجه بهم إلى هناك حيث التقى بنصر بن الأزهر وتوليا معاً تبادل الأسرى مع البيزنطيين، وبلغ من فودي به من المسلمين ألفين وثلاث مائة فرداً من ذكر وأنثى واستمر الفداء أسبوعاً أيضاً[1]. وكان بعض الأسرى المسلمين قد تنصر فعرضوا على الامبراطور البيزنطي البقاء في بلاده فأبى عليهم ذلك وأمرهم بالذهاب مع بقية الأسرى إلى موضع الفداء وتبادل الأسرى فمن ثبت منهم على نصرانيته وأراد البقاء في الدولة البيزنطية فيرجع من هناك[2].

وتنصُّر بعض الأسرى المسلمين في هذا العصر المبكر من تاريخ الإسلام ظاهرة تستلفت الإنتباه، فإن تنصر هؤلاء يعود إما إلى فساد في عقيدتهم أو حداثة في إسلامهم أو إلى مؤثرات وضغوط بيزنطية لاقوها أثناء مقامهم في الأسر هناك وصلت إلى حد بذل المكافآت إلى من يرتد عن دينه[3].

وتعتبر سفارة نصر بن الأزهر قمة الاتصال العباسي الدبلوماسي مع البيزنطيين في عهد الخليفة المتوكل بل تتوجه لفترة خمسين عاماً تالية.

وفي السنة نفسها أسر أهل مدينة لؤلؤة في إقليم الثغور أحد بطارقة الروم العسكريين ويسمى لقيطا ـ وينطق نقيطا أيضاً ـ بعد مهاجمته لمدينتهم وبعثوا به إلى الخليفة المتوكل، وعز على الامبراطور البيزنطي أن يؤسر أحد كبار قواده فبعث للخليفة المتوكل بكتاب يطلب فيه مفاداة البطريق بألف رجل من الأسرى المسلمين مما يوضح مركز هذا البطريق ومكانته هناك[4]،

---

(١) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ١٦٢.
(٢) العيني: عقد الجمان، جـ ١٤ ورقة ١٨٨ ظهر ١٨٩ وجه.
(٣) - Toynbee: Constantine Prophyragenitus, London. 1973, P. 383.
(٤) العيني: عقد الجمان، جـ ١٤ ورقة ١٧٥ ظهر ١٧٦.

ولا يعرف هل قبل الخليفة أو رد هـذا الطلب سيمـا وأنه هـدده من قبل بالإسلام أو القتـل، كما لم يـرد له ذكـر ـ على شهرتـه ـ ضمن الأسرى البيزنطيين الذين أطلق سراحهم في هذا الفداء.

ثم توقفت الصلات الدبلوماسية بين العباسيين والبيزنطيين بعد ذلك نحو أربعة وأربعين عاماً فيما عدا ما وقع من فداء محدود في سنة مائتين وثـلاث وخـمسـين (٨٦٧ م) فـي عهـدي الـخليفـة المـعتـز (٢٥١ ـ ٢٥٥ هـ/ ٨٦٦ ـ ٨٦٩ م) والامبراطور بـاسيليوس الأول Basilus I (٨٦٧ ـ ٨٨٦ م)[١]. وتـرجع أسبـاب هذا التـوقف إلى ظروف الجـانب العبـاسي وأحواله أكثر من الجانب البيـزنطي، فقـد ضعف نفوذ الخلفـاء العباسيين وتدهور سلطانهم في هـذه الفترة واستبـد بهم قوادهم ومـواليهم الأتراك، بالإضافة إلى ظهور المتغلبين والطامعين والثائرين في هذا الوقت فقد تغلب الطولونيون ثم الأخشيديون على مصر والشام بالـرغم من ولائهم الإسمي للخلافة العباسية وثار الزنج[٢] ضد الخلافة واستفحلت ثورتهم واستنفدت جَهداً وجُهداً حتى قضى عليها العباسيون[٣].

أما بالنسبة للدولة البيزنطية فقد تـولى العرش البيـزنطي في الصـدر الأول من هذه الفترة الأمبراطور ميخائيل الثالث لمدة سبعة وعشرين عاماً ما

---

(١) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ١٦٣.

(٢) الزنج: هم مجموعة من العبيد السودان وغيرهم قاموا بثورة ضد الدولة العباسية في جنـوب العراق في عهـد الخليفة المعتمـد (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ) وقد تـزعمهم أحد الطامعين في السلطة واسمه علي بن محمد بن أحمد بن علي وزعم أنه ينتسب إلى البيت العلوي وعرف بصاحب الزنج. وقد استمرت ثورتهم زهاء خمسة عشرة عاماً أغاروا خلالها على كثير من المدن العباسية مثل البصرة والأهواز وعبدان والابلة، وقد جردت الدولة ضدهم عدة حملات أشهرها تلك التي قادها الموفق طلحة أخو الخليفة المعتمد حيث تمكن من قتل زعيمهم وفل جمعهم سنة مائتين وسبعين. انظر: الطبري: تاريـخ الرسـل والملوك، جـ ٩ ص ٤١٠ ـ ٤٣٠ و ٤٧٠ ـ ٤٨٨ و ٥٢٠ ـ ٥٢٩ و ٥٨٨ ـ ٥٩٩ و ٦٢٨ ـ ٦٣٠.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ ٩ ص ٤٣١ ـ ٤٣٧.

بين قاصر تحت الوصاية وبين منصرف نحو ملذاته حتى عرف بالسكير لضعفه وسوء سيرته[١].

كما أن خطر المسلمين البحري بدأ يتنامى في جزيرتي أقريطش وصقلية في بحر الروم ضد الدولة البيزنطية وشغلها وخفف من حربها ضد الثغور الإسلامية على جبهة آسيا الصغرى، ثم ما لبثت الدولة البيزنطية أن دخلت في مرحلة النهوض والقوة إذ تسنم عرشها عدد من أباطرة الأسرة المقدونية القوية، ومن ثم بدأت مرحلة جديدة من التوسع والانتشار، وعاد معها الاحتكاك الحربي بين الدولتين في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي) ولكنه كان من جانب البيزنطيين في الغالب[٢].

كذلك يلاحظ في هذه الفترة أن الدول الثغرية، وولاة الثغور الأقوياء هم الذين تولوا مقارعة الروم في ظل انشغال الدولة العباسية بمشكلاتها الداخلية المشار إليها آنفاً. حتى أنه تم بينهم وبين نظرائهم البيزنطيين مراسلات ومداولات حول ما يتطلبه الموقف بينهم إلا أنها كانت إلى الجانب الحربي ألصق أولاً، ثانياً ان هذا البحث يُعنى من هذا الاتصال بما تم بين الخلفاء العباسيين والأباطرة البيزنطيين مباشرة، أما صلات دول الثغور المختلفة الخاضعين للعباسيين في بعض الأحيان وبصورة إسمية فإنها في حقيقتها تمت باسم أمرائها وقوادها بما يحقق أمنهم ويرضي طموحهم باعتبار مباشرتهم لدار الحرب. مثلما ما تم بين الحمدانيين والبيزنطيين.

ولذلك فإن تلك الصلات جديرة بالدراسة بجوانبها المختلفة في صورة متكاملة ومستقلة عن مثل هذا الموضوع.

---

(١) فاسيلييف: العرب والروم، بيروت (بدون تاريخ)، ص ٢٤.

(٢) - Canard: Deux Episodes des Relation Diplomatiques Arabo-Byzantines' Au X Siecle. P. 51.

وأدت السياسة البيزنطية الجديدة إلى إحياء الصلات الدبلوماسية مع العباسيين بعد جمودها لفترة طويلة وظهرت دواعي هذه السياسة وبواعثها من جديد من أمور الصلح والفداء والحوار والمراسلات والوفادات بشأنها واقرار ما يقبل به الطرفان ويتفقان عليه ودرجت البعوث بين الجانبين بشأنها في مناسبات عديدة.

ففي سنة مائتين وثلاث وثمانين (٨٩٧ م) أجرى فداء أحمد بن طغان أمير الثغور الشامية على نهر اللامس وأطلق فيه سراح ألفين وأربعمائة وخمسة وتسعين من الأسرى المسلمين خلال سبعة أيام وقد تم هذا الفداء في عهدي الخليفة المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ/٨٩٢ ـ ٩٠٢ م) والامبراطور ليون السادس (٢٧٣ ـ ٣٠٠ هـ/٨٨٦ ـ ٩١٢ م) إلا أن الذي رتب أطرافه من الجانب العباسي هو والي مصر والشام خمارويه بن أحمد بن طولون ولما توفي في هذه الأثناء أكمل ابنه جيش بن خمارويه مهمته وندب أمير الثغور الشامية من قبله ليكون قيّماً على الفداء مع الروم[1]، وقد اذاع هذا الأمير كتاباً بين سكان الثغور لحضور الفداء وحدد يوم الاثنين الرابع من شهر شعبان من هذه السنة موعداً لاجرائه، وخرج على رأس الناس إلى مكان الفداء في جموع كبيرة ضمت الموالي والقواد والمطوعة ووجوه الناس في أحسن زي وأجمل ترتيب وتم الفداء على صورته المعتادة وأطلق في نهايته المبعوثان العباسي والرومي اللذان توليا تنفيذ الفداء عند الطرف لآخر وهي طريقة اتبعها الطرفان أحياناً لضمان الوفاء بشروطه واتمامه بصورة صحيحة[2].

وبعد عشر سنوات أخرى أجرى بين الجانبين الفداء المعروف بفداء الغدر حيث لم يلتزم البيزنطيون باتمامه، وانصرفوا ومعهم بعض الأسرى

(١) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ١٦٣.
(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ ١٠ ص ٤٦.

المسلمين وهي حالة نادرة قل أن تحدث في مثل هذه المناسبات بين الطرفين. وقد استاء المسلمون من ذلك التصرف حتى وصفه المؤرخون بفداء الغدر حيث تمرد القائد البيزنطي دوقاس ضد البلاط الامبراطوري في أثناء إجرائه واشتبه البيزنطيون في أنه كان مدفوعاً من المسلمين وأنهم قد أعانوه(١). وقد تم هذا الفداء في سنة مائتين واثنين وتسعين (٩٠٥ م) في عهدي الخليفة المكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ/٩٠٢ - ٩٠٨ م)، والأمبراطور ليو السادس. وعدد من فودي به من المسلمين ألف ومائة وخمسة وخمسين أسيراً في مدة أربعة أيام وكان القيم به من الجانب العباسي رستم بن برد الفرغاني أمير الثغور الشامية وقتذاك(٢).

وبعد ذلك بقليل جرى الاتصال الدبلوماسي بين الدولتين على صورة وفادة بيزنطية بشأن الأسرى أيضاً، ففي سنة مائتين وخمس وتسعين (٩٠٨ م) وصل إلى بغداد مبعوثو الامبراطور ليون يحملون كتابه إلى الخليفة المكتفي بطلب الفداء، وهدية مناسبة للخليفة، كما كان في صحبة الرسل البيزنطيين عشرة من الأسرى المسلمين(٣)، تمهيداً لتبادل الأسرى الأوسع الذي جاؤوا من أجله، وتعبيراً عن حسن النية وهو تقليد أتبعه البيزنطيون أكثر من مرة - كما مر من قبل - في مفاوضتهم مع المسلمين بشأن التبادل.

ووافق الخليفة العباسي على مطالب البيزنطيين وكللت وفادتهم بالنجاح فقد أوكل الخليفة إلى عامله رستم الفرغاني باجراء الفداء مع الروم، وبلغ من فودي به من المسلمين ألفين وثمانمائة وأثنين وأربعين أسيراً، ويذكر المسعودي أن هذا الفداء عرف بفداء التمام إلا أنه لم يذكر تعليلاً لذلك أو المناسبة التي عرف فيها بهذا الوصف(٤). ويظهر أنه عرف

---

(١) - Canard: «Deux Episodes..» PP. 54, 62.

(٢) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ١٦٣.

(٣) عريب بن سعيد: صلة تاريخ الطبري، ملحق بتاريخ الطبري، ط ٤، القاهرة ١٩٧٩ م، جـ ١١ ص ٢٤.

(٤) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ١٦٣.

بهذا الوصف لمجيئه عقب الفداء السابق المعروف بفداء الغدر فميز هذا عنه لتمامه.

وفي عام مائتين وتسع وتسعين (٩١١م) نقض أهل قبرص الصلح المعقود معهم من قبل وساعدوا البيزنطيين على الفتك بالمسلمين بها، فغزاهم جيش من مسلمي الثغور وأسروا منهم خلقاً كثيراً وهدموا كثيراً من حصونهم، فأغضب هذا الموقف القسيس ديمتريانوس Demetrianus أسقف قبرص، فذهب إلى بغداد وقابل الخليفة المقتدر واشتكى إليه ما لحق بقومه في جزيرتهم، فقدّر الخليفة كبر سنه حيث بلغ الأسقف الثمانين آنذاك وطمأنه ثم أطلق له بعض الأسرى وأعاده بوعد بعدم التعرض لهم ما حفظوا العهد والذمة للمسلمين[١].

كما هب بطريرك القسطنطينية نيقولا الأول مستيقوس Nicolas I Mysticus مدافعاً عنهم وبعث برسالة إلى أمير جزيرة أقريطش شارحاً الضرر والظلم ـ في رأيه ـ الذي حاق بنصارى قبرص، وليطلب منه أن يساهم في مساعدة أهلها في أن يعيشوا في أمن وسلام وأن يعيدوا لهم أسراهم[٢].

ويرى المؤرخ جينكنز أن رسالة البطريرك الموجهة باسم أمير جزيرة أقريطش هي في حقيقتها موجهة إلى الخليفة المقتدر وأنها عنونت خطأ باسم الأمير حيث أن أسلوبها ومحتواها يدلان على ذلك، ثم إن البلاط

(١) - Jenkins: The Mission of St Demetrianus of Cyprusto.to Bagdad, Studies on Byzantine History of the 9th and 10th Centuries, P. 267.
- Canard: Deux Episodes des Relations Diplomatiques Arabo-Byzantines Au X, Siecle, PP. 62-63.

(٢) نقلاً عن عمران: نيقولا مستيقوس، بيروت ١٩٨٠، ص ٣١ ـ ٣٣.

البيزنطي اعتاد مخاطبة الخلفاء في مثل هذه الحوادث، وتابعه في استنتاجه المؤرخ كنار(١).

وهذا الرأي أوضح والأخذ به أوفق، والباحث يميل إليه للمبررات التي أوردها جينكنز وكنار. ثم إن الهجوم الذي قام به المسلمون ضد جزيرة قبرص في هذه الأثناء قدم من ناحية الشرق مما يؤكد أن الذي قام به كان أحد قواد الثغور العباسية، وهو ما تشير إليه المصادر الإسلامية في حوادث السنة السابقة(٢) مما يتطلب مخاطبة الخليفة العباسي بشأنه، ولا سيما أن نيقولا نفسه وجه رسالة أخرى لأمير أقريطش دلت بوضوح ـ أسلوباً ومحتوى ـ أنها موجهة إليه فعلاً ومن ثم وضح تميزها عن هذه الرسالة.

ودرجت بعد تلك بفترة مكاتبات بين وزير الخليفة المقتدر علي بن عيسى الذي اشتهر بصلاحه وحسن ادارته وبين البلاط البيزنطي بشأن أحوال الأسرى المسلمين في العاصمة البيزنطية. فقد نمى إلى الوزير العباسي في فترة توليه الأولى للوزارة من سنة ثلاث مائة وواحد إلى سنة ثلاث مائة وأربع (٩١٣ ـ ٩١٦ م) سوء المعاملة التي يلقاها الأسرى في هذا الوقت من حرمانهم من الأكل والملبس المناسبين ومحاولة تنصيرهم، وأنهم في جهد جهيد وبلاء شديد بعد أن اعتلى العرش البيزنطي الوصيان رومانوس الأول Romanus I وقسطنطين السابع Constantine VII، وأدرك الوزير الجور والمعاناة التي يقاسونها هناك، فحزت أوضاعهم في نفسه وهب في بذل الخطط لإنقاذهم(٣).

فرأى الوزير علي بن عيسى أن يكلف كلا من بطريرك بيت المقدس وأنطاكية ببعث موفدين من قبلهما لمرافقة مبعوثه إلى البلاط البيزنطي

---

(١) Nicholas: Letters, lestter no 1 Jenkins, op. cit. PP. 269-270. Canard: op. cit. p.63.

(٢) الطبري: المصدر السابق، جـ٣ ص ١٤٣.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم، حيدر آباد ١٣٥٧ هـ، جـ٦ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

لاستجلاء الأمر ومعرفة أوضاع الأسرى هناك والحث على معاملتهم بالحسنى وتمكينهم من أداء شعائرهم الدينية وعدم مضايقتهم أو الحاق الأذى بهم، وكان الوزير قد أبلغ البطريقين تهديده بمعاملة النصارى في بلاده بقسوة على سبيل المعاملة بالمثل في حالة عدم رفع سوء المعاملة عن الأسرى المسلمين. وطلب منهما إبلاغ هذا التهديد إلى البلاط البيزنطي وأن يشكوا سوء المعاملة والتضيق والإنتقام الذي سوف يلحق بهم من جراء الموقف البيزنطي المجحف بحقوق الأسرى المسلمين[1].

وقد تبنى الوزير هذه الخطة التي أثبتت نجاحها في رأي جينكنز في التفاهم مع الامبراطور[2]، لأن بني ملته خير من يخاطبه وأبلغ من يقنعه بعواقب هذه السياسة وآثارها على النصارى في بلاد المسلمين.

فقد كتب البطريقان في رسالتهما للامبراطور البيزنطي رومانوس الأول (٩١٩ - ٩٤٤ م) وأوضحا له أن معاملة الأسرى المسلمين بهذه الطريقة ليست من تعاليم النصرانية في شيء، وأطلعاه على العواقب الوخيمة إذا ما استمر على هذه الحالة، ثم طلبا منه تمكين المبعوث المسلم المرافق لمبعوثي البطريركين من زيارة الأسرى، ثم استدعى المبعوث المسلم بعد عدة أيام وقابل الامبراطور وأبلغه بالمهمة التي جاء من أجلها. وعند ذلك أنكر الامبراطور تلك التهمة وسمح له بمقابلة الأسرى بعد أن غير البيزنطيون معاملتهم في الفترة التي وصل فيها المبعوثون فيما يظهر، إذ لما زار المبعوث الأسرى في سجنهم رأى حسن ملبسهم وغذائهم في صورته الجديدة وأن حالتهم الأولى تتوارى من خلال إمعان النظر في وجوههم وآثار المعاناة عليها، فشكره الأسرى وسألوه عمن بعثه فأجابهم بأنه الوزير

---

(١) التنوخي: المصدر السابق، جـ ١ ص ٥٣.

(٢) - Jenkins: The Emperor Alexander and the Saracen Prisoners' Attidel VIII Conyress Internationale di studi Bzinatini (1953). P. 289.

علي بن عيسى فأثنوا على جهوده في تحسين أوضاعهم والعناية بهم[1].

ويرى المؤرخ جينكنز أن مبعوث الخليفة إلى القسطنطينية كان نصرانياً أيضاً أسوة بمبعوثي بطريرقي بيت المقدس وأنطاكية[2]، كما أن التنوخي في روايته لهذه الأحداث لم يشر إلى ديانته، ولكن سياق الأحداث يؤيد خلاف ذلك فهي تشير إلى أن مبعوث الوزير الذي أوصل طلبه إلى بطريرقي بيت المقدس وانطاكية هو الذي ذهب مع مبعوثيهما إلى العاصمة البيزنطية بعد أن أكد ندبه عامل الثغور، وليس من الضروري أن يبعث لهما أحد أبناء ملتهما، ثم ان الرواية نفسها تذكر أن مبعوث الوزير وليس سواه أو معه هو الذي قابل الأسرى وفي ظل هذا الموقف ليس لنا أن نقبل بسهولة أن يثق الوزير في تفقد أحوال الأسرى - في ظل ذلك الإتهام - في مبعوث مخالف لعقيدتهم وعلى دين الدولة الآسرة لهم.

وأنبرى البطريرك نيقولا مستيقوس للدفاع عن الدولة البيزنطية باسم الامبراطور وإيضاح الموقف للعباسيين، ولا يعرف تعليل محدد لذلك إلا أنه ربما يعود موقف البطريرك لقوة مركزه الواضح في البلاط البيزنطي آنذاك اضافة إلى وظيفته الدينية، ووصايته على الإمبراطورين الصغيرين قسطنطين ورومانوس، أو أن البلاط البيزنطي رأى أنه خير من يثق فيه العباسيون لايضاح هذا الأمر لمركزه الديني ثم لخبرته في مراسلة ولاة مسلمين في جزيرتي قبرص وأقريطش من قبل، إضافة إلى صفة مبعوثي بطريقي بيت المقدس وانطاكية الدينية.

وعلى أية حال فإن نيقولا وجه رسالته إلى الخليفة العباسي المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ/٩٠٨ - ٩٣٢ م) دون أن يذكر اسمه وقال فيها: «صديقنا

---

(١) التنوخي: نشوار المحضرة، جـ٢ ص ٥٤ - ٥٥، الصابىء، الوزارة، القاهرة ١٩٥٨ م، ص ٣٥٦.

(٢) - Jinkins: «The Emperar Alexander». P. 390.

الأسمى والأمجد الذي نصبه الله حاكماً لأمة المسلمين وولاه أمرهم، لما كنتم أرفع منزلة من جميع رفاقكم المواطنين كما أنكم أكثر منهم فضلاً فإننا نذكر هذا لأنه نمى إلى علمنا أنكم أمرتم بهدم الكنائس في مملكتكم على أثر المزاعم التي سرت بأن البيزنطيين قد دمروا مسجد القسطنطينية، وأجبروا المسلمين على إعتناق المسيحية بالقوة. ولما كانت الامبراطورية البيزنطية معروفة بانسانيتها فكان يجب تقصي الحقائق قبل الأقدام على أي عمل.

إن سياسة الإمبراطور كانت تعمل دائماً على حسن معاملة الأسرى وتقديم المأوى والغذاء إليهم بالإضافة إلى مكان يتعبدون فيه طبقاً لعقيدتهم، على العكس مما حدث مع البيزنطيين الذين وقعوا أسرى في أيدي المسلمين، وأن حرمة الإسلام قد روعيت تماماً داخل الأمبراطورية، ولم يجبر أحد من المسلمين على التخلي عن دينه بأمر الإمبراطور أو أحد وزرائه، وإذا حدث مثل ذلك فيكون دون علم الأمبراطور، وأيا كان الأمر وحدث مثل ذلك فكان عليكم أن تحتجوا وألا تفعلوا شيئاً يخالف القواعد التي أرساها نبي الإسلام، وأنكم بأعمالكم هذه قد أسأتم إلى سمعة الإسلام، فمن المعروف لدى المسلمين أنه لا يؤخذ أحد بالجرائم التي يرتكبها أبوه أو أخوه أو صديقه. وحتى نثبت لكم أن إجبار المسلمين على اعتناق المسيحية مجرد مزاعم لا أساس لها من الصحة وأن الامبراطور لا يعلم عنها شيئاً، سوف نوفد لكم بعض المسلمين المقيمين بالقسطنطينية، كما نرسل إليكم أيضاً رسائل أخرى مع بعض المسلمين لنقنعكم بكذب تلك الشائعات. لا تجعل المفترين والكاذبين وأهل الشر يضلونك عن الصواب وفكر في الحكم الذي تصدره الأجيال اللاحقة على أعمالك»[1].

---

(١) - Nicholas: Letters, Letter No. 102.

نقلاً عن عمران: نيقولا مستيقوس، ص ٣٨ - ٤٠.

والرسالة واضحة وقوية في الدفاع عن الحكومة البيزنطية وموقفها إزاء الأسرى المسلمين وحسن معاملتهم هناك في العادة، ولكن ما يلحقهم أحياناً من سوء المعاملة هو من دون علم الامبراطور، وفيه تلميح بما لحقهم في هذه المرة من ذلك ولو أنه علل بعدم علم الامبراطور، أو أنه إشاعة. كما تدل هذه الرسالة على أن كاتبها على اطلاع قوى بقواعد الإسلام وأحكامه، ولا غرو في ذلك فهو البطريرك نيقولا رأس الكنيسة النصرانية في القسطنطينية والمتمرس بالشؤون السياسية في البلاط البيزنطي في وقته، إلا أنها لا تخلو من بعض الألفاظ النابية الخارجة على أصول مخاطبة الخلفاء فضلاً عن خروجها على قواعد المجاملة في هذا المقام.

ثم عاود البيزنطيون محاولة الإتصال بالعباسيين وساروا على سياستهم السابقة في بعث سفرائهم إليهم بشأن الفداء. فقد بعث الامبراطور قسطنطين السابع سفارة إلى الخليفة المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠/٩٠٧ ـ ٩٣٢ م) في سنة ثلاثة مائة وخمس (٩١٧ م) مكونة من أثنين وعشرين عضواً منهم رئيس البعثة وكان شيخاً مسناً، ومساعده وكان في سن الشباب، إلا أننا لا نعرف اسميهما ومركزهما في البلاط البيزنطي، ولا شك أنهما كانا في منزلة سياسية رفيعة حتى يوكل لهم رئاسة هذا الوفد الكبير، وهو ما يفهم أيضاً من الاستقبال الحافل الذي أعدته الدولة العباسية لهم.

ودراسة مظاهر هذا الاستقبال ومراسمه وبسطه يبرز بوضوح وجلاء الصورة التي كانت الدولة العباسية تستقبل بها السفراء البيزنطيين والمعاملة الراقية التي كانت تقدمها لهم، وهي صورة تتميز وتفوق تلك التي تستقبل بها سفراء ملوك الصين والهند مثلاً تبعاً لاختلاف أهمية الدولة البيزنطية ومركزها في عالم تلك العصور من ناحية وأهميتها بالنسبة للدولة العباسية من ناحية أخرى.

استقبلت الدولة العباسية هذه السفارة البيزنطية بكل مظاهر الروعة والأبهة السلطانية ولبست بغداد حلة قشيبة ورتب القصر الخلافي بأدق ترتيب

وأجمل اعداد، وجاء في وصف معاصري هذا الاستقبال وشهود عيانه أنه لما ترامت أخبار مقدم السفارة البيزنطية إلى العاصمة صف الجند في صفين طويلين امتدا من محلة الشماسية[1] في شمالي المدينة حتى دار الخلافة في وسطها، في أكثر من مائة وستين ألف فرد، في رأي أبو هلال الصابيء وقد امتطوا صهوات الجياد المسرجة وتوشحوا بالعدد والأسلحة المختلفة، وبعدهم الغلمان والخدم والخواص بالبزة الرائعة والسيوف والمناطق المحلاة بالذهب والفضة، ورتب الحجاب والحواشي في الدهاليز والطرقات وصحون الدور والمجالس، وامتلأت أسواق الجانب الشرقي وشوارعه وسطوحه ومسالكه بالعامة النظارة. كما صفت أنواع مختلفة من السفن في نهر دجلة بأفضل زينة وعلى أحسن تعبئة، وعرضت على شط النهر مجموعة من الفيلة والزرافات والفهود والسباع وكان منها المستأنس والمتوحش[2].

وينقل لنا الخطيب البغدادي وصف أحد أحفاد الخليفة المقتدر نفسه الهيئة التي كان عليها القصر الخلافي وقاعته المسماة بالفردوس إبان زيارة السفارة البيزنطية حتى ليخيل إلى القاريء أنه تحول إلى جوهرة فريدة أعدها صناع مهرة باتقان مشهود فحوت نفائس الأشياء جمالاً وقيمة وروعة تعز على الوصف وتفوق الخيال ولربما بزت قصور الملوك الآخرين لفترات طويلة ولعدة عصور متأخرة[3].

---

(١) الشماسية: لفظة عربية منسوبة إلى وظيفة شماس، والشماس وظيفة دينية عند النصارى، وهي هنا محلة كانت موجودة في أعلى بغداد ناحية الشمال، وكان يوجد بها عدد من الديارات، كما أنها مجاورة لدار أسرى الروم. ياقوت: معجم البلدان، جـ٣ ص ٣٦١؛ المقدسي: أحسن التقاسيم، ط ٢، ليدن ١٩٠٩ م، ص ١٤٧. انظر أيضاً لسترنج: بغداد في عهد الخلافة العباسية، بغداد ١٩٣٦ م، ص ١٧٣ ـ ١٨٥.

(٢) الصابىء: رسوم دار الخلافة، بغداد ١٩٦٤ م، ص ١١ ـ ١٢.

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، جـ١ ص ١٠١ ـ ١٠٤، لتفاصيل هذا الوصف انظر ملحق رقم (١).

وقد بلغ الاستقبال حداً من المظاهر الرائعة حتى أن السفير البيزنطي حسب عند دخوله على كل من الحاجب نصر القشوري والوزير علي بن محمد بن الفرات قبل دخوله على الخليفة أن كلا منهما هو الخليفة، فأفهم أن الأول حاجبه والثاني وزيره وذلك من فرط ما هما فيه من بهاء وزينة، ثم دخل بعد ذلك على حضرة الخليفة المقتدر الذي كان يتصدر مجلساً عظيماً مهيباً حف به فيه أبناؤه ووزراؤه ومترجموه[1].

وكان يرافق السفير الوالي العباسي على الثغور الشامية أبو عمير عدي بن أحمد الطرسوسي، وما أن رأى السفير وجه الخليفة حتى هم بتقبيل البساط بين يديه على عادة البلاط البيزنطي وأعرافه، لكنه أوضح في لباقة لمترجمي الخليفة وأحدهما حاجبه نصر القشوري بأنه لا يريد أن يقبل الأرض فيطالب رسول الخليفة إلى بيزنطة، فيما بعد بذلك، لمعرفة السفير أن ذلك مما لا يقره الإسلام وينافي عاداته[2].

ووقف السفير على بعد مائة ذراع ـ دليلاً على سعة المجلس ـ يخاطب الترجمان، والترجمان ينقل لوزير الخليفة الذي يقوم بدوره بايصال ترجمة كلامه إلى الخليفة مبالغة في احترامه واجلاله[3].

وأبلغ السفير الخليفة رغبة الامبراطور قسطنطين السابع في اجراء الفداء بين الدولتين وسلمه رسالته في هذا الشأن، كما التمس منه مفاداة بعض وجهاء أسرى الروم بدفع قيمة من المال معجلة عوضاً عنهم فتم له ذلك[4].

ومن المفهوم أن الخليفة قد عرف مطالب الامبراطور البيزنطي قبل دخول سفيره عليه حيث جرى العرف العباسي الرسمي أن يقابل وزير

---

(١) أبو هلال الصابىء: المصدر السابق، ص ١٢ ـ ١٣.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، جـ ١ ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٣) عريب بن سعيد: صلة تاريخ الطبري، جـ ١١ ص ٦٢.

(٤) مسكويه: تجارب الأمم، القاهرة، ١٣٣٢ هـ، جـ ١، ص ٥٥.

الخليفة السفراء قبل مقابلتهم إياه ليعرف الهدف الذي جاؤوا من أجله وتقرير الأمر معهم على الصورة التي يقابلون بها الخليفة بعد أخذ الإذن منه في مقابلته[١]. وهي أمور لا تخلو من مشابهة للتقاليد الدبلوماسية في العصر الحديث في مثل هذه المناسبات.

وفي نهاية اللقاء ناول الخليفة بيده السفير البيزنطي رسالته لامبراطوره كناية عن أهميتها وتقديراً للأمبراطور، وأظهر السفير غاية المجاملة عندما تناول كتاب الخليفة وقبله[٢].

ثم صرف السفير البيزنطي ومرافقوه في مركبة نهرية إلى الدار التي أعدت من قبل لإقامتهم وتسمى دار صاعد، وأمر الخليفة أن تحمل لهم هداياه، وكانت عبارة عن خمسين بدرة في كل واحدة خمسة آلاف درهم، كما خلع على مرافقهما والي الثغور العباسي بعض الخلع السلطانية[٣].

وبعد قليل انفصلت السفارة البيزنطية عن بغداد وغادرتها في طريق العودة إلى بلدها بصحبة مرافقها أمير الثغور العباسي أبي عمير وندب الخليفة مؤنس الخادم بالخروج معها لاتمام ما تقرر تنفيذه من اجراء الفداء وتبادل الأسرى[٤]. إلا أن المصادر لا تشير إلى المكان الذي توجه إليه المبعوث العباسي في الدولة البيزنطية، فلا نعلم ما إذا كان قد ذهب إلى القسطنطينية وقابل الامبراطور أم أنه أقام في مكان تبادل الأسرى باللامس ليشرف على جمع أسرى الروم وينتظر مقدم الأسرى المسلمين من القسطنطينية. ونرجح الفرض الثاني لأن أمور الفداء أحكمت فيما بين الخليفة والامبراطور ممثلاً بسفرائه، ولم يبق إلا عقده وتنفيذه.

---

(١) المصدر السابق، جـ ١ ص ٥٣.
(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، جـ ١ ص ١٠٥.
(٣) نفسه.
(٤) مسكويه: تجارب الأمم، جـ ١ ص ٥٥.

ويعتبر هذا الفداء من أكبر الأفدية التي أجريت بين المسلمين والروم من حيث ترتيبه والإعداد له وعدد الأسرى الذين أطلق سراحهم فيه، فقد بلغت عدتهم ثلاثة آلاف وثلاثمائة وستة وثلاثين أسيراً[١]، وهو يعتبر نتيجة ملموسة للاتصال الدبلوماسي السابق بين الدولتين وتحقيقه للغرض الذي جاءت من أجله السفارة البيزنطية عينها.

وفي رواية تاريخية أخرى أن هذا الاتصال حقق أهدافاً أخرى للجانبين، فقد هال البعثة البيزنطية ما رأته في بغداد من مظاهر قوة السلطان وأبهة الملك وحققت ما ابتغاه العباسيون من وصول هذه الصورة المشرقة إلى الامبراطور البيزنطي نفسه، ونقلها سفراؤه إليه، حتى ليقال أنه فكر من قبل في غزو العراق وجعل من مهام سفارته استقصاء امكانية ذلك الغزو، فلما أخبره مبعوثوه بما شاهدوه صرف النظر[٢].

وفي حدود ما عثرنا عليه من معلومات في المصادر خاصة بالسفارات التي نتناولها لم نجد أعظم من وصف روعة استقبال هذه السفارة، إلا أن السفارات الأخرى بطبيعة الحال لم تعدم الاستقبال المناسب.

واستمر الاتصال بين الدولتين في أواخر هذه الفترة على هذا المنوال من طلب الفداء والمحاورة بشأنه على فترات متباعدة، ففي سنة ثلاث مائة وثلاث عشرة (٩٢٥ م) ثم الاتفاق بين الدولتين على الفداء وفك الأسرى، فندب الخليفة المقتدر خادمه مفلح لمفاوضة قواد البيزنطيين على الحدود بشأنه، فتم له ما أراد وحقق مهمته، ثم أشرف على تنفيذه واطلاق الأسرى وساعده في ذلك أمير الثغور الشامية العباسي بشري الثملي، وعدد من فودي به من المسلمين خلال تسعة عشر يوماً ثلاثة آلاف وتسع مائة وثلاثة وثمانون أسيراً[٣].

---

(١) المسعودي: التنبيه والاشراف، ص ١٦٤.

(٢) العيني: عقد الجمان ـ مخطوط ـ جـ ١٤ ص ٢٢٧ وجه.

(٣) المسعودي: التنبيه والأشراف، ص ١٦٢.

كما جرى بين الجانبين اتصال دبلوماسي بشأن فداء آخر، وتمت المكاتبة بينهما لهذا الغرض، وورد كتاب الامبراطور قسطنطين السابع إلى الخليفة الراضي (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ/٩٣٤ - ٩٤٠ م) في سنة ثلاث مائة وست وعشرين (٩٣٧ م)، وكانت الرسالة مكتوبة بالرومية (اليونانية) المذهبة بينما كتبت ترجمتها العربية مفضضة، وتضمنت طلب الهدنة لاجراء الفداء بين الجانبين، كما حمل مبعوثو الامبراطور هدايا وألطاف فاخرة للخليفة، ومما جاء في كتابه للخليفة بشأنها «ولما بلغنا ما رزقته أيها الأخ الشريف الجليل من وفور العقل وتمام الأدب واجتماع الفضائل أكثر ممن تقدمك من الخلفاء حمدنا الله تعالى إذ جعل في كل أمة من يمتثل أمره وقد وجهنا شيئاً من الألطاف وهي أقداح وجرار من فضة وذهب وجوهر وقضبان فضة وسقور وثياب سقلاطون[١] ونسيج ومناديل وأشياء كثيرة فاخرة»[٢] وقد أورد القاضي الرشيد بن الزبير وصفا شاملاً لما احتوت عليه هذه الهدية من نفائس الذهب والجوهر وثمين الثياب والآنية[٣]. فرد الخليفة على الأمبراطور، بقبول هديته وموافقته على اجراء الفداء والهدنة اللازمة له[٤].

وبلغ من أطلق سراحه من المسلمين في هذا الفداء حوالي ستة آلاف وثلاث مائة أسير خلال ستة عشر يوماً على نهر البدندون[٥]، ولم تكن هذه

---

(١) ثياب سقلاطون: وجمعها سقلاطونيات، وقيل سجلاط بالجيم، وهي ضرب من الثياب الموشاة بالذهب التي اشتهرت بها بلاد الروم وقيل ان أصل التسمية رومية، الجواليقي: المعرب من الكلام الأعجمي، ص ١٨٤، ابن منظور: لسان العرب، جـ ٢ ص ١٠٢.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٢٩٣.

(٣) الرشيد بن الزبير: كتاب الذخائر والتحف، ص ٦٠ - ٦٣.

(٤) يحيى بن سعيد الأنطاكي: التاريخ، نشر ملحقاً بكتاب التاريخ المجموع الأفشيوس المكنى بسعد بن بطريق، بيروت ١٩٠٦ ص ١٢، ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٦ ص ٢٩٣.

(٥) البدندون أو البذندون إحدى مدن الثغور الشامية وتقع بالقرب من مدينة طرسوس =

المدة كافية فاتفق الطرفان على تمديد مهلة الفداء لمدة ستة أشهر لكي يتسنى للمسلمين جمع العدد الكافي من أسرى الروم في مقابل استنقاذ باقي أسراهم من أيدي الروم وقد أشرف على هذه العملية ابن ورقاء الشيباني من قبل الخليفة وبشري الثملي أمير الثغور الشامية[1]. كما وجه الامبراطور قسطنطين السابع في السنة نفسها رسالة إلى بطاركة بيت المقدس وانطاكية والاسكندرية حثهم فيها على الدعاء له في صلواتهم وهو تقليد جرى عليه بعض الأباطرة تبركاً برجال الدين إلا أنه كان قد انقطع منذ قيام الدولة العباسية[2].

وهكذا درج البيزنطيون على بعث سفاراتهم إلى الدولة العباسية غالباً في مناسبات الفداء أكثر من بعث العباسيين سفراءهم إلى الدولة البيزنطية لهذا الغرض، وربما أدرك البيزنطيون أن هذه السياسة أنجع في تحقيق الفداء مع المسلمين والتعجيل به. وهي سياسة حكيمة وفقت فيها الدبلوماسية البيزنطية، وزادها توفيقاً أن هذه السفارات كثيراً ما اصطحبت معها بعض الأسرى من المسلمين للدلالة العملية على حسن النية والتمهيد لتحقيق أهدافها بأشياء ملموسة ومرغوبة لدى الجانب الآخر، فلا أحب على الخلفاء المسلمين أن يطلق فكاك مقاتل مسلم من الأسر.

أما أن يكلف المبعوثون البيزنطيون بمهمات أخرى كأن يكلفوا بتقديم معلومات لدولتهم عن الوضع السياسي في البلاط العباسي وأحواله ومدى قوة الخلفاء وولاء الناس لهم، وما تحت أيديهم من قوات عسكرية ونحوها فهو أمر خارج عن مهماتهم الأصلية ولو أن العباسيين اتبعوا الأسلوب نفسه في بعض الأحيان.

= على نهر يسمى باسمها وتقع الآن في تركيا. انظر ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص ١٠٢ و ١١٠.

(١) المسعودي: التنبيه والأشراف، ص ١٦٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، بيروت ١٩٧٤ م، جـ ١١ ص ١٨٨.

(٢) يحيى بن سعيد الأنطاكي: التاريخ ص ١٣.

وهكذا أيضاً ازدهر الاتصال الدبلوماسي في هذه الفترة بين الدولتين وان انحصر في مجال الفداء وتبادل الأسرى وما رافقه من زيارات ومداولات، بل كان مشرقاً إذا ما أضيف إلى الصلات الأخرى التي قامت بين المسلمين والبيزنطيين في مجالات الحرب والثقافة والتجارة أكثر من سواها من جيران الدولة العباسية الآخرين، وهي مجالات خارجة عن موضوع البحث.

وكانت أيام الفداء في الثغور أيام أعياد يحضرها قادة الثغور وولاتها ومبعوثو الخلفاء والأباطرة ويشهدها أهلها في جموع كبيرة، ويخرج الجند في أحسن هيئة من الاستعداد والعدة وتخرج المراكب في المياه القريبة بنفس الاستعداد، ويكون البيزنطيون في العادة بمثل هذه الحال[١].

وكانت أيام الفداء أعراساً بين كثير من طبقات الناس بما يرافقها من الاحتفال بعودة أب أو أم أو شقيق أو قريب أو فارس عمر قضوا في الأسر سنوات بعد امتطاء صهوات الجياد وخوض غمار الوغى، وهي مظاهر معبرة بلسان الحال والمقال ومازالت بحاجة إلى البحث المتعمق لاستجلائها وابرازها بما تحويه من حياة مجتمع عاش بين الثغور والأربطة وحياة الصوائف والشواتي، إنها لتستحق جهد الباحثين بحق مبين.

ـ المكاتبة بين العباسيين والبيزنطيين في أمور أخرى:

في أواخر هذه الفترة من حياة الدولة العباسية التي نحن بصددها جرت اتصالات ومكاتبات مع الدولة البيزنطية بشأن أمور دينية تقدسها السلطة الدنيوية البيزنطية هدفت إلى الحصول على منديل يعتبره النصارى ذخيرة مقدسة كان المسيح عليه السلام يستخدمه، ويدعون أن أهل مدينة الرها[٢] عثروا عليه في بيعتها فحرص الامبراطور رومانوس على الحصول

---

(١) المسعودي: التنبيه والاشراف، ص ١٦١.
(٢) الرها: بالمد والقصر مدينة تقع في إقليم الجزيرة بالقرب من نهر الفرات، وتضم إحدى الكنائس القديمة المشهورة في المشرق، وتعرف هذه المدينة عند النصارى =

عليه تبركاً به وكاتب مسلمي الرها بغية اعطائه إياه مقابل اطلاق جملة من أسارى المسلمين فبعثوا إلى الخليفة المتقي بالله (٣٢٩ - ٣٣٣ هـ/ ٩٣٤ - ٩٤٠) لابلاغه بمطلب الامبراطور وأخذ رأيه، فاستفتى الخليفة القضاة والفقهاء في دفع هذا المنديل أولاً، فاشاروا عليه بعدم دفعه له بسبب وجوده منذ زمن طويل ولم يطلبه الأباطرة من قبله ثم أن في ذلك غضاضة على الإسلام فالمسلمون أحق بمنديل نبي الله عيسى. أما جماعة أخرى وفيهم علي بن عيسى الوزير السابق فأشاروا عليه بأن خلاص المسلمين من الأسر أفود وأحق من بقاء هذا المنديل بينهم، ونزل الخليفة المتقي على الرأي الثاني وأمر بارساله إلى الامبراطور وتخليص الأسرى، وبالفعل تم ذلك ووفي الأمبراطور بوعده وأطلق مائتين من الأسرى المسلمين و عقد هدنة مع أهل الرها ونقل هذا المنديل إلى هناك وأدخل كنيسة أيا صوفيا بالقسطنطينة[١]، ولا صحة لزعم فانلي من أن أحد القواد البيزنطيين تمكن من سلبه من مدينة الرها ونقله إلى القسطنطينية[٢].

ومع طرافة هذه الحادثة إلا أنها مؤكدة تواترت أخبارها عند المؤرخين المسلمين كابن الجوزي[٣] والمؤرخين النصارى كيحيى بن سعيد الأنطاكي[٤]، ويتفقان في تفاصيلها، ولا غرو في ذلك فإن كنيسة الرها تعد من الكراسي الكنسية المشهورة في المشرق، وليس بمستغرب أن توجد بين جنباتها هذه الذخيرة وأن تظل محفوظة فيها حتى هذا الوقت.

= باسم أذاسا أوأوديسا: انظر ياقوت: معجم البلدان، جـ ٣ ص ١٠٦.

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكي: التاريخ، ص ٩٩؛ ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٦ ص ٣٣١.

(٢) - Finalay: History of Greece Oxford MDCC IXXVI Val II p.308.

(٣) المنتظم، جـ ٦ ص ٣٣١، محمد بن عبد الملك الهمذاني: تكملة تاريخ الطبري، ص ٣٤٠.

(٤) تاريخه، ص ٩٨ - ٩٩.

ثم حدثت بعد ذلك ظروف سياسية في الدولة العباسية اختلفت عن سابقتها وتغلب على الخلفاء سلاطين آل بويه الشيعة كما كثر الثائرون وعلى رأسهم الفاطميون الذين استولوا على مصر والشام كما سيأتي بالتفصيل ومالت الصلات الدبلوماسية بين الدولتين العباسية والبيزنطية في هذه الأثناء نحو السلم أيضاً واتسمت بطابع المكاتبات بين الجانبين في أمور مختلفة كما سيتضح في دراسة الفترة التالية وما تم خلالها من صلات دبلوماسية على مدى قرن من الزمان.

٢ ـ السفارات العباسية إلى الدولة البيزنطية منذ عهد المطيع لله حتى منتصف عهد القائم بالله (٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ/٩٤٥ ـ ١٠٥٥ م):

اتسمت هذه الفترة بضعف الخلافة العباسية أكثر من سابقتها، وخضع الخلفاء لسيطرة آل بويه الشيعة، وتولوا مقاليد الدولة وتلقبوا بالسلاطين، وأبقوا على البيت العباسي مجرد اسم لا رسم حبيساً بين جدران قصره وارادة السلطان، فمثلاً في سنة ثلاث مائة وأربع وثلاثين قبض معز الدولة البويهي على الخليفة المستكفي وخلعه وعين المطيع لله خليفة مكانه[١]، دون أن يأبه بالبيت العباسي ومركزه الخلافي.

لذلك بلغ التنافس مداه وتجاوز الصراع حده في هذه الفترة بين الطامحين والطامعين والمتغلبين حول منصب امرة الأمراء في الدولة الذي استحدثه الخلفاء العباسيون في الفترة السابقة بغية الحد من سيطرة الوزراء والحجاب والولاة الأقوياء على الخلفاء أنفسهم وعلى أمور الدولة من ورائهم، وقد كان هؤلاء ينتمون إلى عناصر تركية وفارسية مكنت لهم وقوت من جانبهم في دواوين الدولة وطبقات الجيش، فتركوا مهماتهم الأساسية وسمو رسالتهم وانشغلوا بجمع المال والتنافس بل التكالب عليها والصراع بينهم وبين أمثالهم من العناصر الأخرى في الوصول إلى تلك المراتب والغايات الوخيمة.

فإذا ما أتينا إلى أحوال أطراف الدولة وعلاقاتها بجيرانها نجد اضطراب الأمور السياسية والإدارية الذي عانى منه مركز الخلافة في بغداد

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكي: التاريخ، ص ١٠٣.

أثرت في هذه الأطراف وانعكست عليها لكن على نحو إيجابي في أغلب الأحيان بمعنى أن أمراءها وولاتها وإن استغلوا هذه الظروف لصالحهم وصالح جماعاتهم وأبقوا تبعيتهم الاسمية للبيت العباسي أو خلعوها فإنهم لم يهنوا في مواجهة دار الحرب وحملوا لواء الدفاع عن دار الإسلام من جانبهم ولم يسمحوا للروم مثلاً بالنفوذ إلى دار الخلافة وتقويض الدولة العباسية نفسها وحملوا عبء الدفاع عنها أو حتى عن اماراتهم في وقت أشد ما كانت في حاجة إليه.

وقوى نفوذ كل من أمويي الأندلس والفاطميين الذين ناصبوا العباسيين العداء ونازعوهم في لقب الخلافة وقوة السلطان، وإذا اكتفى الأولون بأندلسهم ومواجهة أموره والنهوض بها في كل المجالات، فإن الفاطميين لم يكتفوا بولاية افريقية التي شهدت قيام دولتهم وإنما زحفوا نحو الشرق بعنف وانتزعوا إقليمي مصر والشام من أملاك الدولة العباسية وامتدت حدودهم حتى حاذت لحدود الدولة البيزنطية في أعالي الشام، وبالتالي فقدت الدولة العباسية إقليماً هاماً كانت الحرب بينها وبين البيزنطيين عبره محالاً لتبادل السفارات وحد وضعه الجديد منها، وفي الوقت نفسه ساعد على اتصالها مع الفاطميين كما سيأتي.

وهكذا امتدت علاقات الأمويين والفاطميين مع البيزنطيين سلماً وحرباً أيضاً ودرجت بينهم السفارات في أمور مختلفة كما سيأتي في الفصول التالية، وهي علاقات أثّرت في صلات البيزنطيين بالعباسيين في هذه الفترة بوجه من الوجوه ومن المحتمل أن البيزنطيين نظروا إلى علاقاتهم مع القوى الإسلامية المختلفة بمنظار مصلحتهم فقط، وعلى قدر ما يتحقق منها مع أيّ فإنها تولي هذا الجانب أو ذاك مزيداً من الاهتمام والتوثيق.

وفي المقابل كانت الدولة البيزنطية مازالت تعيش مرحلة مزدهرة ويتربع على عرشها نخبة من الأباطرة المقدونيين ذوي الماضي المجيد في

التاريخ السياسي البيزنطي، وعلى الرغم من الهنات السياسية في تاريخ أباطرة هذه الأسر المقدونية إلا أن عصرها يعتبر ناصعاً في التاريخ البيزنطي إذا ما قورن بتاريخ الخلافة العباسية المعاصر له، وهناك تشابه كبير بين أباطرة هذه الأسرة والأسرة الأيسورية التي سبق أن تسلم أباطرتها عرش الدولة البيزنطية في القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) مع اختلاف الظروف والمشكلات التي واجهها أباطرة الأسرتين ويتضح الفرق بين الحالين في الدولتين العباسية والبيزنطية إذا ما عرف أن أولئك الأباطرة العظام عاصرهم خلفاء صدر العصر العباسي العظام أيضاً أمثال المنصور والرشيد والمأمون.

وهكذا وجدت ثلاثة عوامل هامة أثرت في ضعف الاتصال الدبلوماسي بين الدولتين العباسية والبيزنطية، أولها هو ضعف الدولة العباسية وانشغالها بمشكلاتها الداخلية وعلى رأسها النزاع حول السيطرة على الخلفاء أنفسهم وحجابتهم وتولي الوزارة لهم من قبل الطامعين أو متغلبين تعددت أجناسهم واختلفت مطامعهم مما أفقد الخلفاء مسؤوليتهم وأفقد الخلافة هيبتها.

ثانيها سيطرة الفاطميين على الشام وهو محور هام من محاور الاتصال العباسي البيزنطي وأدى فقده إلى ضعف هذا الاتصال ذلك أن من يستولي على الشام وفلسطين يصبح أكثر اتصالاً بالروم من سواه، ويملك قناة اتصال بين الشام والقسطنطينية تتعدد مجالاتها في كل العصور.

أما العامل الثالث فقد تمثل فيما قام به ولاة الثغور في هذه الفترة من دور بارز في الذب عن ثغور الدولة ومجاهدة البيزنطيين ومناهضتهم عندما كانت الدولة العباسية تعاني من وضعها الداخلي، وتطلب هذا الموقف أن يتصل هؤلاء الولاة أو أمراء هذه الدويلات مثل الحمدانيين في حلب بالبيزنطيين بشأن الصلح أو عقد الهدن معهم أو حتى دفع الجزية لهم اتقاء

لغزوهم[1]، وهي أمور تتطلب بحثاً مستقلاً يعنى بها ويدرسها على حدة. هذا بالإضافة إلى عوامل اقتصادية ألمت بالدولة العباسية في ذلك الوقت مثل مجاعة سنة ثلاث مائة وأربع وثلاثين حيث اضطر الناس إلى أكل الميتة ونحوها وهلك خلق كثير بسببها[2]. وقد ساهمت هذه الظروف مجتمعة في ضعف الاتصال الدبلوماسي بين الجانبين وعلى الرغم من العوامل السابقة فإنه وجد اتصال محدود بين الدولتين العباسية والبيزنطية تم على فترات متباعدة مشوبة بالفتور في دواعيها ونتائجها، مما أضفى عليها مزيداً من الغموض وعدم الأهمية والاهتمام من قبل المؤرخين، في سردها ودراستها وتحليلها، ويحسن بهذا البحث أن ينوء باستجلاء ذلك ويحاوله.

استهلت هذه الفترة بمفاوضات حول اجراء فداء بين الدولتين فأرسل الأمبراطور رومانوس الأول رسالة بشأنه إلى محمد بن طفج الأخشيد والي مصر والشام تضمنت فميا تضمنت أن ليس من تقليده أن يراسل الولاة المسلمين بهذا الخصوص وإنما يراسل الخلفاء فأمر الأخشيد بكتابة عدة أجوبة ترفع إليه ليختار ما دبجه الكاتب إبراهيم بن عبد الله النجيرمي، وقد أوضح فيها منزلة الأخشيد والولايات التي تحت حكمه، وأن التقليد الذي تكلم عنه رومانوس لم يلتزمه أسلافه، كما أبلغه موافقته على اجراء الفداء[3].

وقد تم اجراء هذا الفداء في سنة ثلاث مائة وخمس وثلاثين (٩٤٦ م) في خلافة المطيع (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ/٩٤٦ - ٩٧٤ م)، وذلك أن الدولة البيزنطية أوفدت رسولاً إلى دمشق في ذي الحجة من السنة السابقة

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، دمشق ١٩٥١ م، جـ ١ ص ١٦٣ - ١٦٨.

(٢) يحيى بن سعيد الأنطاكي: التاريخ، ص ١٠٤.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٧ ص ١٠، انظر نص الرسالة في ملحق رقم (٢).

يسمى يوانس انسيبطوس. وذلك للمفاوضة مع محمد بن طفج الأخشيدي متولي الشام ومصر من قبل العباسيين في أمر هذا الفداء وكان يرافق المبعوث البيزنطي أبو عمير عدي بن أحمد أمير الثغور الشامية السابق، وكان هذا المبعوث شخصية بارزة في ثقافته وسعة معرفته وقد وصفه المؤرخ المسعودي عندما قابله في الشام بأنه على حد تعبيره «كان ذا رأي وفهم بأخبار ملوك اليونانيين والروم ومن كان في أعصارهم من الفلاسفة، وقد أشرف على شيء من آرائهم»[(١)] إلا أن الأخشيدي كان في مرض الموت فتوفي في الحال فخلفه ابنه كافور في منصبه وكر راجعاً إلى مصر، واصطحب معه المبعوث البيزنطي فلما وصل إلى فلسطين صرفه ومرافقه بعد أن أعطى لهم مبلغاً من المال لتغطية أمور الفداء، فركبا البحر من مدينة صور[(٢)] وسار إلى طرسوس، فلما علم أمير الثغور آنذاك نصر الثملي بهما كاتب أبا حسن علي بن حمدان صاحب الثغور الشامية والجزرية بشأن اجراء الفداء مع البيزنطيين فوافق عليه وجد في اتمامه في ربيع الأول من سنة ثلاث مائة وخمس وثلاثين وعرف هذا الفداء باسمه، وكان عدد من فودي به من المسلمين ألفين وأربع مائة واثنين وثمانين أسيراً[(٣)]، وبالرجوع إلى سنوات حكم الأباطرة البيزنطيين يتضح أن الامبراطور الذي تم هذا الفداء في عهده هو قسطنطين السابع وهكذا نرى ملامح ضعف الخلفاء العباسيين في هذا الوقت وبالتالي ضعف الصلات الدبلوماسية بين البلاطين العباسي والبيزنطي حتى أنه ليتم الفداء دون مخاطبة الخليفة أو مفاوضته فيه على عكس الحال في العصور السابقة، كما يظهر من خلاله الدور البارز

---

(١) المسعودي: التنبيه والاشراف، ص ١٦٥.

(٢) صور: بضم الأول وسكون الثاني مدينة تقع على بحر الروم - في لبنان حالياً - واشتهرت بتحصينها إذ يحيط بها البحر من ثلاث جهات. ياقوت: معجم البلدان، جـ ٣ ص ٤٣٣.

(٣) المسعودي: التنبيه والأشراف، ص ١٦٥.

الذي قام به أمراء الثغور وولاتها من جانبهم واستأثروا به دون خلفاء هذا العصر.

واستمرت الحال على هذا المنوال بين الدولتين مدة طويلة نافت على ثلاثين عاماً دون قيام صلات دبلوماسية بينهما خلالها، ويرجع ذلك إلى العوامل التي ذكرت من قبل من ضعف الخلفاء وسيطرة سلاطين البويهيين عليهم وظهور المتغلبين والمناوئين في أرجاء مختلفة من الدولة العباسية حتى أن الروم كبسوا إقليم الجزيرة وديار بكر في أعالي العراق في هجمات قوية وقتلوا خلقاً كثيراً من سكانها سنة ثلاثمائة وواحد وستين (٩٧١ م)، ففزع نفر منهم إلى الخليفة المطيع في بغداد يستصرخونه ويستنصرونه فلم يغثهم ووجد أن الملك بختيار البويهي يمنعه من ذلك فهدد الخليفة بالاستقالة ولكن لم يغير تهديده شيئاً فخلع الخليفة نفسه بعد سنتين من ذلك[١]، ولو أن ذلك عزي في وقته لأسباب مرضية[٢]، وللقارىء أن يتصور الموقف العباسي لو عانقت هذه الصرخة مسامع هارون الرشيد أو المعتصم ومواقفهما في مثلها مشهورة معروفة. إلى هذا الحد وصلت الأوضاع سوءاً في البلاط العباسي خليفة عباسي على رأس الخلافة وسلطان فارسي متحكم فيه يسيطر على أمور الدولة دون أن يكون للخليفة حول ولا طول.

وطالما الحالة السياسية في الدولة العباسية على هذه الصورة فليس المنتظر أن تعيرها السياسة البيزنطية اهتماماً أو اعتبارا. وأعلنت بيزنطة الحرب الضروس ضد المدن الشامية مثل انطاكية وحلب وطرسوس وطرابلس تحت قيادة الأمبراطور نقفورفوقاس Nicephorus II Phocas (٣٥٢ ـ ٣٥٩ هـ/٩٦٣ ـ ٩٦٩ م) الذي اشتهر بغاراته الحاسمة ضد المسلمين وهو الامبراطور الذي يرجع نسبه إلى أصول إسلامية، فقد ولد

---

(١) العيني: عقد الجحمان مخطوط، جـ ١٥ ص ٢٧٣ وجه.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٦٥م، جـ ٨ ص ٦٣٧.

لأب مسلم تنصر كان يعيش في مدينة طرسوس كما تذكر الروايات التاريخية[1]، فكان أشد وأنكى على أجداده.

ثم دارت مكاتبات ووفادات بين الدولتين بعد ذلك لكنها لم تكن بهدف اجراء الفداء وعقد الصلح وإنما كانت بشأن لجوء أحد الثائرين البيزنطيين إلى الدولة العباسية ففي سنة ثلاث مائة وستين (٩٧٦ م) ثار القائد البيزنطي Sclerus المعروف في المصادر الإسلامية باسم وَرد ضد خصمه برداس الذي كان وصياً على الامبراطورين القاصرين باسيليوس الثاني وقسطنطين الثامن وطمع في الحكم وزحف بمؤيديه إلى القسطنطينية فلاقاه الجيش البيزنطي وهزمه. فانهزم ورد وكر راجعاً حتى دخل بلاد المسلمين لاجئاً مع مجموعة من أنصاره، ونزل بظاهر ميافارقين[2] وبعث أخاه إلى عضد الدولة البويهي في بغداد سنة ثلاث مائة وتسع وستين (٩٧٩ م) الذي كان متولي السلطة للخليفة بل السيطرة عليه بشأن إيوائه وانجاده فوعده عضد الدولة جميلاً[3].

كذلك بعث الامبراطور باسيليوس الثاني Basilus II رسولاً له إلى عضد الدولة يحمل مكتوباً منه يطلب فيه من عضد الدولة القبض على الثائر ورد وبعثه إليه ويشبه هدف السفير البيزنطي هنا هدف سفارة حنا النحوي التي جاءت من قبل في عهد الخليفة المأمون بشأن اللاجىء البيزنطي مانويل Manuel على الرغم من التباعد الزمني بينهما وتفاوت السفيرين في الشهرة[4]. فاجتمع رسول الامبراطور ومبعوث اللاجىء ورد

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٨ ص ٦٠٧.

(٢) ميافارقين: بفتح أوله وتشديد ثانيه مدينة مشهورة بديار بكر في شمال العراق وقد كانت خاضعة للروم قبل أن يفتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب انظر ياقوت: معجم البلدان، جـ ٥ ص ٢٣٦ - ٢٣٨.

(٣) أبو شجاع الروذراوري: ذيل كتاب تجارب الأمم، القاهرة ١٩١٦ ص ١٤.

(٤)
- Ostrogorsky; History of the Byzantine State. pp. 299 - 300.
- Burry: A History of the Eastern Roman Empire, p. 256.

عند عضد الدولة في البلاط العباسي «خاضعين يتنافسان فيه ويتزايدان في التقرب إليه ويستبقان إلى التماس الذمام منه»[١] فتردد عضد الدولة في ذلك، ولكنه رجع أخيرا جانب الامبراطور، وكاتب والي ميافارقين بالقبض على ورد وأصحابه، فقبض عليه وساقه مع جماعته إلى بغداد، وأودعهم الاعتقال دون أن يعاد إلى الروم الآن كما سيتضح. وأصبح بوضعه الجديد بمقامه في بغداد في الاعتقال هدفاً مناسباً للمساومة عليه دون الحاق ضرر به ثم بعث العباسيون سفارتهم إلى بيزنطة لايضاح موقفهم من اللاجىء ورد للمفاوضة بشأن مدينة حلب التي هاجمها البيزنطيون منذ سنة ثلاثمائة وتسع وخمسين ووقع أهلها معهم هدنة مهينة واضطروا إلى دفع الخراج إليهم[٢].

فلما عاد سفير الامبراطور السابق من بغداد أنفذ عضد الدولة معه أبا بكر محمد بن الطيب الباقلاني[٣] مبعوثاً من قبل الدولة العباسية إلى العاصمة البيزنطية ولا يعرف على وجه التحديد القضايا التي ناقشها هذا المبعوث مع البيزنطيين إلا أنها بدون شك كانت تتعلق بوضع اللاجىء البيزنطي ورد وأصحابه، ثم بشأن مدينة حلب التي اضطر سكانها إلى دفع خراج بلدهم إلى البيزنطيين، حيث ساء العباسيون هذا الوضع وطالب سفيرهم بالغاء المعاهدة التي أبرمها البيزنطيون وقبل بها أهل حلب تحت وطأة هجومهم على المدينة والتهديد باجتياحها[٤].

ومع أن المصادر لم توضح هذه الأمور التي فاوض فيها المبعوث العباسي أبو بكر الباقلاني عند ذكر خبر هذه السفارة أو عند الترجمة له إلا أنها عرفت وجاء ذكرها من خلال مداولة سفارة عباسية تالية مع البلاط البيزنطي، كما سنعرف، ولكن سفارة أبي بكر الباقلاني على الرغم من علو

---

(١) مسكويه: تجارب الأمم، جـ ٢ ص ٣٩٧.
(٢) ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، جـ ١ ص ١٦٣ - ١٦٨.
(٣) سوف تأتي ترجمته بوصفه سفيراً عباسياً بارزاً في الفصل الأخير.
(٤) المصدر السابق.

مكانته العلمية وسداد شخصيته واحتفاء البيزنطيين به وعقد بعض المناظرات العلمية معه[1]، إلا أنها لم تحقق الهدف السياسي وذلك لصعوبة الاتفاق مع البيزنطيين واقناعهم ببقاء اللاجىء البيزنطي ورد في بغداد وهو الأمر الذي حاول الباقلاني اقناع البيزنطيين به فيما يظهر، حيث بقي ورد هناك ما يقرب من خمس سنوات أخرى، أما موضوع مدينة حلب وتحديد الأقاليم التي تتبع البيزنطيين في دفع الخراج لهم من أقاليم الثغور ومدنها، فإن سوء فهم وغموض حدثا في تفسير الشروط التي اتفق عليها الطرفان كما يظهر من وقائع السفارة العباسية القادمة.

ذلك أن أبا بكر الباقلاني المبعوث العباسي عاد إلى بغداد ومعه رسول بيزنطي يسمى ابن قونس[2]، ولا يعرف ما هي مهمته إلا أنه من المرجح أنه حمل رسالة من الأمبراطور البيزنطي رداً على مهمة السفير العباسي السابق.

وينحصر التاريخ الذي ذهب فيه الباقلاني إلى القسطنطينية بين عام ثلاث مائة وسبعين وعام ثلاث مائة وواحد وسبعين (٩٧٩ ـ ٩٨١) حيث لجأ في العام الأول ورد اللاجىء البيزنطي إلى الدولة العباسية الذي من الواضح أن قضيته كانت من الأمور التي تباحث فيها الباقلاني مع البيزنطيين، والعام الثاني هو التاريخ الذي ذهب فيه المبعوث العباسي الآخر ابن شهرام[3] الذي وردت جملة من أخبار سفارة الباقلاني أثناء حواره مع البيزنطيين كما سيأتي ويحدده ابن الأثير بسنة ثلاث مائة وواحد وسبعين (٩٨١ م)[4]، وبالتالي تصبح الرواية التاريخية التي تحدد ذهاب الباقلاني إلى هناك بسنة

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، جـ ٥ ص ٣٧٩.
(٢) أبو شجاع الروذراوري: ذيل كتاب تجارب الأمم، ص ٢٣.
(٣) ابن شهرام: بحثت في كتب التراجم والسير والإعلام المتاحة فلم أعثر له على ترجمة.
(٤) الكامل: ٩ ص ١٦.

ثلاث مائة ونيف وثمانين[1] غير مقبولة البتة، ولا سيما أن عضد الدولة الذي تمت هذه السفارة في عهد سلطنته توفي سنة ثلاث مائة واثنين وسبعين أي قبل التاريخ الذي تحدده تلك الرواية بوقت طويل.

فلما غادر المبعوث البيزنطي السابق الذي قدم من قبل مع الباقلاني بغداد أواخر سنة ثلاث مائة وواحد وسبعين رافقه أبو إسحق بن شهرام، وسلكا طريق البريد إلى القسطنطينية، وهو الطريق المعتاد الذي غالباً ما كانت تسلكه السفارات فلما وصلا إلى مدينة خرشنة[2] في آسيا الصغرى بلغهما أن الدمستق - وهو لقب يطلق عادة على قائد الولايات الشرقية للامبراطورية - خرج من القسطنطينية لمهاجمة بعض مدن الشام، وعسكر بالقرب من مدينة خرشنة فعرج المبعوث البيزنطي ابن قونس بالمبعوث العباسي ابن شهرام عليه حيث قابله فوجده شاباً معجباً بنفسه لا يؤيد قيام هدنة مع العباسيين، لأمور منها خوفه على مركزه، ثم مخافة التنافس بينه وبين الامبراطور الذي لا يأمن بوائقه فيما لو تخلى عن قيادة الجيش وبقي في العاصمة، وأخيراً دعم مركزه في الجيش وما يتمتع به من شهرة بين أفراده[3]، إلا أن مهمة المبعوث كانت في غاية الصعوبة لأسباب تتضح من خلال حواره مع الجانب البيزنطي.

وهو حوار قاس إلا أنه شيق في الوقت نفسه أجراه ابن شهرام مع

---

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، بيروت (بدون تاريخ)، ص ٤٠ ٨

(٢) خرشنة: بفتح الحرف الأول وتسيكن الثاني مدينة من أرض الروم تقع بالقرب من مدينة ملطية في آسيا الصغرى كانت تتعرض كثيراً لغارات المسلمين في عصور مختلفة. يقول أبو فراس الحمداني وقد مر بها أسيراً من قبل الروم:

إن زرت خرشنه أسيراً ... فلكم حللت بها مغيرا

وتقع حالياً في تركيا، انظر:

ياقوت: معجم البلدان، جـ ٢ ص ٣٥٩.

(٣) أبو شجاع الروذراوري: ذيل كتاب تجارب الأمم، ص ٢٩.

الامبراطور باسيليوس الثاني وعدد من مسؤولي البلاط البيزنطي واستغرق أكثر من شهرين، وأظهر المبعوث العباسي خلاله أنه على دراية وحنكة بارزتين بالأمور السياسية، وانه مفاوض دبلوماسي من الطراز الأول يحاول تحقيق مطالب دولته ومصالحها باصرار دون تصلب يفشل مهمته أو يحرج مناظريه.

وتبرز أهمية هذا الحوار أيضاً أنه كتب بخط المبعوث العباسي ابن شهرام كما يخبرنا أبو شجاع، ثم نقله عنه المؤرخون مما يعدو وثيقة تاريخية هامة وصلتنا عبر المصادر التاريخية المعاصرة لها، فيروي أبو شجاع أن فصول هذا الحوار مع الدمستق القائد البيزنطي السابق ابتدأت عندما عرض عليه ابن قونس موقف العباسيين فقال الدمستق: لو تم للرؤساء أن نخلي لهم عما يرونه من البلدان والحصون باللطف والرفق لكان كل رئيس يتلطف ويستغني بذلك عن جميع الرجال وبذل الأموال. فأجابه السفير العباسي ابن شهرام: «إذا كان اللطف والرفق من وراء قوة وقدرة فهو دليل الفضل ويجب تلقيه بالقبول»[١].

وكان العباسيون يحاولون استرداد تبعية حلب لهم ورفع الأصر البيزنطي عنها بدفع الخراج كما مر، وكذلك الاحتفاظ ببعض الحصون في أقليم الثغور بينما يصر البيزنطيون على الإبقاء على كل ذلك، ولهذا أوضح الدمستق للمبعوث العباسي بقوله ـ على حد رواية أبي شجاع ـ: «ان حلب ليست ببلدكم ولا يريدكم صاحبها وهذا رسوله ـ وكان معه ـ يبذل لنا خراجها ويسأل الذب عنها، وأما الحصون فإنها أخذت في زمان عمي نقفور وغيره من الملوك، ولا فسحة في النزول عنها، فإن كان معك غير هذا وإلا فلا تتعب نفسك بطول الطريق»، فأجابه ابن شهرام: «إن كان أمرك ملك الروم بانصرافي فعلت وإن كنت قلته من تلقاء نفسك فيجوز أن يسمع الملك كلامي وأسمع جوابه وأعود بحجة، فأذن لي في السير»[٢].

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ٣٠.

(٢) المصدر نفسه.

إلا أن ذلك كان بطبيعة الحال رأي الدمستق الخاص كما يظهر لنا، على أية حال سمح الدمستق لابن شهرام بمواصلة سيره إلى العاصمة البيزنطية فلما وصل إلى مشارفها تلقاه مرافق من قبل الامبراطور وأحسن استقباله، وأنزله في دار لنقفور الكانكلي الذي وصل معه أيضاً من قبل الدمستق، وكان مقرباً من الأمبراطور. ثم طلب من السفير العباسي مقابلة البركموس[1].

فلما قابله ابن شهرام سأله في استغراب: «أليس قد تقرر الأمر مع محمد ابن الطيب الباقلاني على ما طلبتموه من ترك خراج بلد أبي تغلب الماضي[2] والمسأنف ورضي بما شرطناه عليه من رد الحصون التي أخذت منا والقبض على ورد، وقد رضي مولاك بما شرطنا[3] وفعل ما أردنا»[4].

إلا أن ابن شهرام نفى - رداً على البركموس - أن يكون سلفه الباقلاني قد عقد مع البيزنطيين شيئاً من هذا القبيل يتعلق بتسليم بعض حصون الثغور وترك خراج حلب يؤدى إليهم، بينما أصر المحاور البيزنطي البركموس على المطالب البيزنطية وقال ان هذه المطالب تقررت من قبل مع المبعوث العباسي السابق، غير أن ابن شهرام اتهم ابن قونس السفير البيزنطي للبلاط العباسي أمام البركموس بأنه هو الذي وضع هذه الشروط وقررها دون اطلاع المبعوث العباسي آنذاك عليها، ولما نهره البركموس بشأن ذلك نفى التهمة[5].

---

(١) البركموس Para Koimomenos هو لقبه وأما اسمه فهو باسيل خال الأمبراطور باسيل، وكان يشغل كبير الوزراء، انظر: الباز العريني: الدولة البيزنطية، بيروت ١٩٨٢ م، ص ٥٧١.
(٢) المقصود ببلد أبي تغلب، وهو أبو تغلب الحمداني - حلب.
(٣) قد يقصد بكلمة مولاه هنا الخليفة الطائع لله أو عضد الدولة البويهي.
(٤) أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم، ص ٣٠.
(٥) المصدر السابق، ص ٣١.

وانصرف ابن شهرام إلى دار مقامه، وبعد أيام استدعي إلى مقابلة البركموس وجرى بينهما حوار شبيه بالحوار السابق حاول البركموس أقناعه بمطالب بيزنطة.

وعند ذلك قال ابن شهرام: «إن هذا محال وما عنده إلا ما ذكره من حال حلب والحصون على ما تضمنه الشرط الذي أوقفه عليه». فاجاب البركموس «لو كان ورد في عسكره وقد أخذتمونا كلنا أسرى ما زاد على هذا، فكيف أسير».

وهنا نهض ابن شهرام موضحاً هذه القضية وكأن اثارتها لاقت عنده استحساناً فقال: «أما قولك لو كان ورد في عسكره فهو غلط لأنك تعلم أن أبا تغلب عاون ورداً فأهلك ملك الروم فكيف لو أمده عضد الدولة بعساكره وهو اليوم وان كان أسيراً في أيدينا فإننا لم نفعل به ما تفعلون أنتم بأسراكم من المثلة، وكونه بالحضرة أحوط لنا لأننا لم نستأسره[1] لربما كان يضيق صدره بمدافعتنا إياه أو ييأس منا فيستوحش، ويمضي، والآن فهو متصرف على أمرنا وساكن إلى ما شاهده بالحضرة والعز الأمن، والحبل بأيدينا بأطرافه».

وهنا أشتد على البركموس خطاب ابن شهرام ووجم منه وعرف صحته وقال: «الذين تطلبه لا طريق إليه، فإن أردت امضاء ما تقرر مع محمد بن الطيب وإلا فانصرف»، فقال ابن شهرام: «إن أردت أن انصرف من غير أن أسمع كلام ملك الروم فعلت. فقال البركموس: «ما أقوله أنا عنه ولكن استأذنه في ذلك»[2].

وبعد أيام استدعي ابن شهرام فحضر واستعاد ملك الروم ما جرى فأعيد عليه بحضوره، فقال الامبراطور: «يا هذا قد جئت بأمر منكر لأنه

---

(١) يظهر أن الأصل لو لم، حتى يستقيم المعنى لكن سقطت لو من النص.
(٢) أبو شجاع الروذراوري: ذيل كتاب تجارب الأمم، ص ٣١ ـ ٣٣.

جاءنا رسول لكم فشرط علينا ما أجبناه إليه وشرطنا عليه رد الحصون التي أخذت أيام العصيان وترد حصوناً أخر وبلاد أخذها الملوك من قبلي فإن رضيتم بما تقرر أولاً وإلا فامض بسلام».

فرد ابن شهرام: «أما محمد بن الطيب فما قرر شيئاً، وأما الشرط الذي قد ورد معه فقد قطعتم فيه نصف بلدنا فكيف يجوز أن نقره علينا فإن الحصون التي في ديار بكر منها شيء قبضك وإنما هو في أيدينا وليس لك فيها غير المنازعة ولا تدري ما يحل منها»[١]. وعندئذ قال البركموس مخاطباً الامبراطور: «هذا رجل ذو جدل، وتمويه للأقوال والموت خير من الدخول تحت هذا الحكم فدعه ينصرف إلى صاحبه»، فنهض الامبراطور وقام المبعوث العباسي وتفرقا من مجلسهما[٢].

ثم استدعى البركموس ابن شهرام مرة أخرى وعقد مناظرة بينه وبين عدد من رجال البلاط ذوي الخبرة بأمور الحرب، إلا أن ابن شهرام أصر على موقفه ونفى مرة أخرى أي اتفاق سابق مع البيزنطيين، ومع أن صاحب حلب حمل خراجها في هذه الأثناء إلى البيزنطيين واحتجوا به دليلاً على تبعيته لهم إلا أن ابن شهرام فسر ذلك بأنه حيلة دبرها البيزنطيون لاقناعه، وقال: «فأما بغير حيلة فإنه لا يكون»[٣]. وهذا ينم عن قوة وفطنة منه.

وعندئذٍ أُمر بتوديع الامبراطور والانصراف، فوجدها ابن شهرام فرصة مناسبة لاقناعه بموقفه وبسطه له بعد أن لمس أن القواد ومن حوله لا يؤثرون الصلح وما يترتب عليه من هدنة، فأصحاب السيوف يخافون لئلا تبطل سيوفهم وتنقص أرزاقهم على رسم الروم إذا هادنوا ولم يبق له طريق سوى مداراة ملك الروم والرفق به، فقال له: «أيها الملك يجب أن تتأمل ما فعله عضد الدولة معك ولم يعاون عليك عدوك ولم يتعرض لبلادك أيام اشتغالك

(١) المصدر السابق، ص ٣١ ـ ٣٢. والنص فيه ضعف في الأسلوب.
(٢) نفسه.
(٣) المصدر السابق، ص ٣٣.

بمن عصى عليك وتعلم أنك إن أرضيته وحده وهو ملك الإسلام وإلا احتجت أن ترضي ألوفاً من أصحابك، ثم لا تدري هل يرضون أم لا، ثم إن لم يرضوا ربما احتجت إلى رضائه من بعد. وتعلم أن كل من حول عضد الدولة لم يرغبوا في هدنتك وإنما هو وحده أراد ففعل ما أراد ولم يقدم أحد على مراجعته وأراك تريد هدنته ولعل من حولك لا يساعدونك على مرادك، فاهتز لخطابي وبان في وجهه الامتعاض من علمي بالإعتراض عليه من أصحابه وقام وانصرفت»[1].

ثم عمد ابن شهرام إلى مداهنة أحد رجال الامبراطور واستمالته واسمه نقفور الذي رافقه في قدومه من عند الدمستق ونزل في داره، ووعده بجائزة له من عضد الدولة في أن يسعى إلى إيصال رسالة أخيرة منه إلى الامبراطور، وكان مضمونها: «أنه يجب عليك أولاً أن تحفظ أيها الملك نفسك ثم ملكك ثم أصحابك ولا تثق بمن صلاحه في فسادك فإن بمعاونة أبي تغلب عليك تم في بلد الروم ما جرى وكيف تكون الحال مع عضد الدولة إن عاون عليك أيها الملك، وأني أرى أصحابك لا يريدون تمام الهدنة بينك وبين أوحد الدنيا وملك الإسلام[2]، والإنسان لا يخفى عليه إلا ما لم يجربه، وأنت فقد جربت سبع سنين عند عصيان من عصي عليك لملكك، وملكك لا يبقى[3] نفسك الروم، فيما يبالون هذا إن لم يتحرك هو بنفسه، وقد نصحت لما رأيت من ميل صاحبي إليك وإثارة لك فتأمل خطابي واعمل بعد ذلك برأيك»، فعاد نقفور إلى ابن شهرام وأبلغه أن الأمبراطور يقول له: «إن الأمر كما ذكرت ولكن ليس يمكن مخالفة

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٤.
(٢) هذه مبالغة من ابن شهرام.
(٣) هذه الجملة غير مفهومه ومصحح النص آمد روز قال: «لعله وملكك لا نفسك تبقى الروم (المصدر نفسه، ص٣٥، هامش١) ولعل الأقرب للمعنى أن تكون: وملك لا يقي نفسك الروم.

الجماعة، ويروني بصورة من قد خانهم وأهلكهم ولكن سأتم الأمر وأفعل ما يمكن فعله»[1].

ومن الاتفاق المواتي أن البركموس مرض في هذه الأثناء مرضاً شديداً حال دون حضوره لقاءات ابن شهرام بالامبراطور ومخاطبته مباشرة بدعم من نقفور الكانكلي الذي كان ينافس البركموس أيضاً. وتم الاتفاق على الهدنة لمدة عشر سنين بالشروط التي جاء بها المبعوث العباسي عدا قضية حلب ولما اشتد ابن شهرام في المطالبة بها خاطبه الامبراطور قائلاً: «دع هذا فلا نسلم غير ما سلمنا ولا نخلي عن بلد نأخذ خراجه إلا بالسيف» ولكني أحملك رسالة إلى صديقي ومولاك فانني أعلم أنه فاضل وإذا عرف الحق لم يعدل عنه. ثم قال لمن حوله: تباعدوا وقال لي سراً من كل أحد: قل له: والله إني أشتهي رضاك ولكني أريد حجة فيه فإن أردتم أن نحمل الخراج عن حلب أو تركه لكم تأخذونه على أن تصرفوا ابن حمدان عنها فافعلوا ما بذلتموه على لسان ابن قونس «اشارة إلى تسليم ورد» فقلت: ما سمعت هذا ولا حضرته وإنني استبعد فعله، فتنكر علي وقال: دع التطويل فما بقي شيء تراجعني فيه». ثم أمر الامبراطور أن تكتب الكتب بما تقرر بينه وبين المبعوث العباسي. ولما تم الاتفاق على الهدنة وكتبت العهود بذلك بين الجانبين نصح ابن شهرام الامبراطور أن يعطي رسوله الذاهب معه إلى البلاط العباسي صلاحية في البت على ما يعرض، وأن يوافقه على ما يجريه بحسب ما يراه ويشاهده فأشار عليه بأنه فعل ذلك[2].

وتقرر في البلاط البيزنطي أن يرافق المبعوث العباسي في عودته نفقوراً الكانكلي ليمضي مع عضد الدولة في بغداد ما تقرر في العاصمة

---

(١) أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم، ص ٣٥.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٥ ـ ٣٦.

البيزنطية مع مبعوثه ابن شهرام وليحضر القبول النهائي به واقرار عقده، ولكن نقفور امتنع في البداية، وحاول الامبراطور اقناعه ثم ساعده البركموس كبير وزارئه وألح عليه بالذهاب حتى لاحظ ابن شهرام ذلك ووصفه بقوله: «وجد في الأمر حتى ظننت أنه فعل ذلك ايثاراً لابعاده، وحسداً لما رأى من اختصاصه بالامبراطور»(١).

أما ما تقرر بين الجانبين في هذا الحوار الطويل المتشعب بشأن اللاجىء ورد فهو أن يقيم نقفور المبعوث البيزنطي في بغداد ويبعث أحد مرافقيه مع مبعوث عباسي إلى القسطنطينية ليأخذ عهداً من الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني موقعاً بخاتمه يضمن فيه أولاً عدم التعرض أو المعاقبة لابن ورد وأخيه عندما يعودان إلى العاصمة البيزنطية واعادتهما إلى مراتبهما فإذا وافق على ذلك عادا مع مبعوثه نقفور عند رجوعه من بغداد، بينما يبقى ورد مقيماً في بغداد فإذا مضت ثلاث سنوات وتوثق من وفاء الامبراطور بعهده لابنه وأخيه، يؤخذ له نفس العهد ويلحق بهما(٢).

وبعد مضي ثلاث سنوات أفرج عن ورد، وفي هذه الأثناء توفي عضد الدولة وخلفه في السلطنة أخوه صمصام الدولة فاشترط عدة شروط على ورد قبل أن يفرج عنه منها أن يعترف بصنيعة العباسيين عليه، وأن يكون سلماً على من سالمهم، حرباً على من حاربهم، وأن يسعى في الإفراج عن المسلمين هناك ممن أحاطت ربقة الأسر بأعناقهم ويعينهم على النهوض إلى بلادهم موفودين مصونين، وألا يساعد في تجهيز الجيوش ضد المسلمين أو يعين عليها، كما اشترط أن يخلي سبيله هو وأصحابه الذين جاؤوا معه من قبل، وأن يضمن حمايتهم حتى يدخلوا بلادهم فلما استوثقت الشروط من الجانبين رفعت إلى الخليفة الطائع واستؤذن في توقيعها فأذن فيها وأمر

---

(١) أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم، ص ٣٨.
(٢) نفسه.

باحكامها واجرائها[1]. ويفهم مما سبق أن ورد خرج من بغداد في سنة ثلاث مائة وست وسبعين (٩٨٧ م).

وهكذا عاد هذا اللاجىء السياسي البيزنطي ورد بعد أن مكث في الدولة العباسية أكثر من خمس سنوات لقي خلالها من كريم المعاملة وحسن الرعاية أشياء كثيرة من العباسيين، حتى أنهم سعوا له لدى البيزنطيين وجرت بينهم وفادات ومحادثات في سبيل تأمينه والتوثق من معاملته وأصحابه بالحسنى وإعادة اعتبارهم إليهم. وهي صورة مشرقة لمعاملة اللاجئين السياسيين بين المسلمين والروم في ذلك العصر تضاهي في كثير من جوانبها معاملة اللاجئين السياسيين في كثير من الدول في عصرنا الحاضر وأكثر.

وانقطع الاتصال الدبلوماسي بين العباسيين والبيزنطيين بعد ذلك لفترة طويلة امتدت أكثر من خمسين عاماً لأسباب عديدة أبرزها ضعف الدولة العباسية الآخذ في الازدياد نتيجة سيطرة الأمراء والملوك الشيعة من بني بويه والصراع فيما بينهم وضعف الخلفاء وكثرة الثائرين وظهور الدول المتغلبة في أنحاء مختلفة من أقاليم الدولة العباسية[2].

كما انشغلت الدولة البيزنطية في هذا الوقت بالثائرين على البلاط البيزنطي وعلى رأسهم ورد الذي سبق أن خرج من الدولة العباسية، فثورة

---

(١) المصدر السابق، ص ١١١ - ١١٢، انظر أيضاً القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤ ص ٢٠ - ٢٣.

(٢) في هذا العصر من حياة الدولة العباسية تعددت الدويلات واختلفت مشاربها ومذاهبها، فاحياناً ترتبط بالخلافة العباسية بابقاء الخطبة باسمها وأحياناً تقطعها، وأحياناً تبقي ولاءها الأسمى لها ثم تقطعه وهكذا دواليك، ففي ديار بكر وآمد قامت الدولة المروانية (٣٨٠ - ٤٨٩ هـ) وكانت حلب قاعدة للدولة الحمدانية حتى ضمها الفاطميون لأملاكهم في الشام ثم استقل بها بعد ذلك بنو مرداس (٤١٤ - ٤٧٢ هـ) وفي الموصل قامت دولة بني عقيل (٣٨٦ - ٤٨٩ هـ)، كما ظهرت دويلات مشابهة في فارس واليمن.

برداس فوكاس سنة ثلاث مائة وست وسبعين (٩٨٦م) لاغتصاب العرش البيزنطي من الامبراطور باسيل الثاني حتى اضطر الامبراطور إلى طلب المساعدة من جند الروس للقضاء على الثورة فتم له ذلك في العام التالي[١]، ليعود ورد إلى الثورة من جديد في سنة ثلاث مائة وتسع وسبعين (٩٨٩م) بعد أن قبض عليه برداس فوقاس وأودعه الاعتقال لاختلاف بين الثائرين من قبل، لكن ثورة ورد الجديدة لم تستمر طويلاً فقد حسمها مع الامبراطور سلمياً وحاز ورد من المكاسب ما يشبه تلك التي اشترطها له العباسيون من قبل على الامبراطور باسيل الثاني نفسه، كما عينه الامبراطور والياً على ثغر الأرميناق[٢] في آسيا الصغرى[٣]. أما ما وعد به ورد العباسيين عند اطلاقه فلم ينفذ منه شيئاً ذا بال لأن ورد لم يتمكن من تسلم العرش البيزنطي. ثم انشغلت الدولة البيزنطية بعد ذلك بمحاربة البلغار على الجبهة الشمالية الذين اشتدت غاراتهم على الدولة في هذه الفترة.

وظلت الأوضاع في الدولة العباسية على الصورة التي عرفناها قبل قليل حتى زال سلطان بني بويه عن الخلفاء العباسيين وذلك على يد السلاجقة في سنة أربع مائة وسبع وأربعين كما سيأتي وبدأت بزوالهم مرحلة جديدة من السياسة العباسية.

---

(١) الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص ٦١٣ - ٦١٤.

(٢) الأرميناق: أحد بنود بلاد الروم الهامة في آسيا الصغرى مما يلي الثغور الإسلامية وهي البنود التي كانت تشابه الولايات عند المسلمين في بعض النواحي الإدارية. انظر المسعودي: التنبيه والاشراف، ص ١٥٢.

(٣) الباز العريني: المرجع السابق، ص ٦١٧.

٣ ـ السفارات العباسية إلى الدولة البيزنطية في الفترة منذ أواخر عهد القائم حتى سقوط الدولة العباسية:

في النصف الثاني من عهد الخليفة القائم انتقلت السيطرة السياسية في الدولة العباسية من أيدي البويهيين إلى سلاطين السلاجقة، ففي الثاني والعشرين من شهر رمضان سنة أربع مائة وسبع وأربعين (١٠٥٥ م)، خطب في بغداد باسم السلطان طغرل بك السلجوقي[١]. وابتدأت مرحلة جديدة في تاريخ الدولة العباسية تختلف عن سابقتها مذهباً وسياسة وقوة واحتكاكاً بالروم إلا أن الشيء الذي لم يتغير هو استكانة الخلفاء العباسيين أنفسهم وخضوعهم للسيطرة الجديدة، وإن خفت وطأتها عن سابقتها ومع ذلك ظلت الخلافة العباسية تسير نحو الاضمحلال البطيء دون أن ينهض من البيت العباسي من يقيلها أو يقيم عثارها فيقيم صلبها ويعيد لها سابق مجدها وماضي عزها.

وحفلت هذه المرحلة بأحداث عظام في أراضي الدولة العباسية ابتدأت بدخول البساسيري[٢] بغداد والخطبة للفاطميين فيها، ثم دخول الصليبيين الشام وفلسطين وانتهت بسقوط الخلافة العباسية نفسها في بغداد

---

(١) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ١ ص ٧٦.

(٢) البساسيري: هو أبو الحارث أرسلان بن عبد الله قائد تركي كان مملوكاً لبني بويه ومقرباً من الخليفة القائم العباسي، وقلده أمور الدولة فعظم أمره، فلما تمكن أعلن خلع طاعته وخطب للخليفة الفاطمي المستنصر سنة أربع مائة وخمسين وسيطر على بغداد لمدة سنة حتى استنجد الخليفة القائم بالقائد طغرلبك السلجوقي فتمكن هذا من القضاء عليه وحز رأسه، وعاد الخليفة إلى عاصمته بغداد. انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، بيروت ١٩٦٨ هـ، ج ١ ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

سنة ست مائة وست وخمسين (١٢٥٨ م)، وقد أثّرت هذه الأحداث تأثيراً جذرياً في علاقات الدولة العباسية بالدولة البيزنطية، فقد خلت هذه الفترة من وفادات عباسية دبلوماسية ذهبت إلى العاصمة البيزنطية، وأخرى بيزنطية قدمت منها عدا ما حدث من اتصال بين الجانبين حول معركة ملاذكرت. ففي سنة أربع مائة وثلاث وستين (١٠٧١ م) أصاب بلاد الشام غلاء فاحش فأرسل السلطان ألب أرسلان كثير من أتباعه وجنده إلى خراسان لارتفاع كلفة مؤونة بقائهم في الشام، ولم يبق إلا نحو أربعة آلاف من جنده. وفي هذه الأثناء ظهرت حشود رومية في أعالي آسيا الصغرى للإغارة على الثغور الإسلامية، فقصدها ألب أرسلان وهزم الحامية البيزنطية هناك، فأرسل الامبراطور رومانوس الرابع (٤٦١ - ٤٦٣ هـ/١٠٦٨ - ١٠٧١ م) مبعوثاً له إلى الخليفة القائم يطلب منه السعي عند ألب أرسلان لوقف مهاجمته لأرض الروم، وفي الوقت نفسه عزز من موقف قواته المحاربة وزحف على رأس جيش كبير اختلفت الروايات التاريخية حول قوته التي تراوحت فيها بين سبعين ألف مقاتل ومائتي ألف أما جيش ألب أرسلان فقد بلغ في جملته بين خمسة عشر ألفاً وعشرين[١].

ولما رأى السلطان أن لا طاقة له بمحاربة الأمبراطور في ظل قوته الضاربة والفارق العددي بين جيشيهما أوفد له رسولاً من قبله يبلغه موافقته بقبول وساطة الخليفة التي طلبها الأمبراطور من قبل بشأن عقد هدنة، وأن يعود ألب أرسلان إلى بلده بعد عقد الصلح[٢]، فعاد مبعوث السلطان من عند الأمبراطور بالرسالة التالية «إنني قد أنفقت الأموال الكثيرة وجمعت العساكر الكثيرة للوصول إلى مثل هذه الحالة فإذا ظفرت بها فكيف أتركها، هيهات لا هدنة إلا بالري ولا رجوع إلا بعد أن أفعل ببلاد الإسلام

(١) ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٨ ص ٢٦٠ - ٢٦١، الحسيني: كتاب أخبار الدولة السلجوقية، بيروت ١٩٨٤ م، ص ٤٧.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم جـ ٨ ص ٢٦٠ - ٢٦١.

مثل ما فعل ببلاد الروم[1]، بل أن الأمبراطور أردف بأحد مبعوثيه إلى السلطان يبلغه مدى قوة جيش الأمبراطور وحسن استعداده ويعده إن هو دخل في طاعته باقطاعه عدداً من الأقاليم، وإن لم يفعل فإنه سوف يدك بلاد المسلمين بجيش عرمرم لا قبل لهم به، فاستشاط السلطان غضباً وأخذته عزة الإسلام وقوة الملك، فقال للرسول: «قل لصاحبك أنك أنت ما قصدتني، ولكنّ الله سبحانه حملك إليّ، وجعلك وعساكرك طعمة للمسلمين، فأنت أسيري وعبدي، وعساكرك بعضهم قتلاي وبعضهم أسراي، وخزانتك كلها ملكي ومالي، فأثبت للمقارعة وتهيأ للمكافحة فسوف ترى أن عساكرك هي رقاب تساق إلى ضاربها، وخزانتك هي أموال تحمل إلى ناهبها»[2].

وتأكدت الحال لألب أرسلان أنه لا مندوحة عن الحرب ومواجهة رومانوس. فأعد السلطان المسلم نفسه وجنده لملاقاته في معركة حاسمة فخطب فيهم خطبة مودع في ظهر يوم الجمعة السابع عشر من شهر ذي القعدة سنة أربع مائة وثلاث وستين فقال: «أريد أن أطرح نفسي عليهم في هذه الساعة التي يُدعى فيها لنا وللمسلمين على المنابر فإما أن أبلغ الغرض، وإما أن أقضي شهيداً إلى الجنة. فمن أحب أن يتبعني منكم فليتبعني ومن أحب أن ينصرف فليمض مصاحباً عني فما ها هنا سلطان يأمر ولا عسكر يؤمر فإنما أنا اليوم واحد منكم وغاز معكم فمن تبعني ووهب نفسه لله تعالى فله الجنة والغنيمة ومن مضى حقت عليه النار والفضيحة»[3]. فأجابه الجند أن يفعل ما يريد فزحف بهم والتحموا مع الروم بقيادة الامبراطور البيزنطي في يوم حامي الوطيس حتى كتب الله لهم النصر وهزموا الروم هزيمة نكراء، وما كاد غبار المعركة ينجلي حتى جاء البشير بأن الامبراطور وقع

---

(١) نفسه.
(٢) الحسيني: كتاب أخبار الدولة السلجوقية، ص ٥١ ـ ٥٢.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٨ ص ٢٦٢؛ الحسيني: كتاب أخبار الدولة السلجوقية، ص ٥٠.

أسيراً فأندهش ألب أرسلان ولم يصدق مبشره فبعث معه من سبق له مقابلته ومعرفته ضمن وفده له قبيل بداية المعركة، فرجع له المبعوث بالخبر اليقين أن الامبراطور أسر بالفعل، وهنا أمر ألب أرسلان أن تضرب له خيمة خاصة وأن يساق إليها مقيداً مكبلاً، فلما حل رومانوس بالخيمة صفعه ألب أرسلان وقال له: «ألم أذن لرسل الخليفة في قصدك وامضاء الهدنة معك وأجابتك في ذلك إلى ملتمسك، ألم أرسل لك الآن وأبذل لك الرجوع عنك فأبيت إلا ما يشبهك، وأي شيء حملك على البغي؟ فقال: «قد جمعت أيها السلطان واستكثرت واستظهرت وكان النصر لك فافعل ما تريد ودعني من التوبيخ، قال: فلو وقعت معك ماذا كنت تفعل بي. قال: «القبيح، قال: «صدق والله ولو قال غير هذا لكذب، وهذا رجل عاقل جلد لا ينبغي أن يقتل»، قال: «وما تظن الآن أن يفعل بك، قال: «أحد ثلاثة أقسام الأولى قتلي والثاني إشهاري في البلاد التي كدت بقصدها وأخذها والثالث لا فائدة في ذكره فإنك لا تفعله»، قال: «فاذكره، قال: «العفو عني وقبول الأموال والفدية مني واصطناعي وردي إلى ملكي مملوكاً لك نائباً في ملك الروم عنك»، فقال: «ما اعتزمت فيك إلا هذا الذي وقع يأسك منه وبعد ظنك عنه فهات الأموال التي تفك رقبتك، فقال: «يقول السلطان ما شاء، فقال: «أريد عشرة آلاف ألف دينار»[1].

وهذا المبلغ الذي حدده ألب أرسلان يساوي بحسابنا عشرة ملاين دينار فلم يشأ الأمبراطور رد طلب السلطان ولكنه اعتذر عن دفع هذا المبلغ بأنه لا يملكه لأنه أنفق مثله على الاستعداد لهذه الحملة، وأخيراً تم الاتفاق بينهما على دفع نصف المبلغ السابق، وأن تعقد بين الطرفين هدنة يدفع الأمبراطور ثلاثة ألاف ألف وستين ألف دينار في كل سنة منها. وأن يطلق أسرى المسلمين الموجودين في بلاد الروم، وأن يعيد الروم مدينتي انطاكية

---

(١) المصدر السابق، جـ٨ ص٢٦٣، انظر أيضاً ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ١٠ ص ٦٧.

والرها التي استولى عليها الروم منذ وقت قريب، ولكن الأمبراطور طلب تأخير تنفيذ هذا الشرط لأنه لا يستطيع البدء به عند عودته إلى بلده، ووافق على الشروط الأخرى، فتقدم إليه السلطان وفك قيده بنفسه وأمر أن يعطى قدحاً من الماء ليسقيه إياه فحسب الأمبراطور أن القدح له فأراد أن يشربه - ولعله تظاهر بذلك - فأفهموه أن يسقيه السلطان الذي تقدم إليه وجز قليلاً من شعر رأسه(١)، وكل ذلك ليظهر السلطان استعلاءه عليه في مثل هذا الموقف.

بعد ذلك انصرف الأمبراطور إلى خيمته واستوهب جماعة من بطارقته فأجيب إلى طلبه، وفي اليوم التالي أحضروا الأمبراطور وخلع عليه السلطان وألبسه ما يليق وقال له: «قد أصطنعتك وقنعت بقولك وأنا أسيّرك إلى بلادك وأردك إلى ملكك». فقبّل الأمبراطور الأرض بين يدي السلطان فقعد له السلطان راية مكتوباً عليها «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ورفعت فوق رأسه وأمر له بحاجبين ومائة غلام لمرافقته في طريق عودته إلى عاصمته القسطنطينية، وشيعه السلطان مسافة فرسخ وعانقه عند الوداع وعاد إلى معسكره(٢).

وكان رومانوس قد طلب من ألب أرسلان سرعة التعجيل في اطلاق سراحه قبل أن يثور عليه الروم فلا يتمكن من تنفيذ ما التزم به للمسلمين. وبالفعل حدث ما توقعه الأمبراطور فقد قامت ثورة ضده في البلاط البيزنطي وأعلنت خلعه مما اضطره إلى عدم دخول القسطنطينية واللجوء إلى أحد الأديرة والعيش فيه بقية حياته مترهباً(٣).

ولجأ البيزنطيون إلى هذه السياسة بغية الحيلولة بينه وبين العرش فهو شخص ذاق مرارة الهزيمة وأحاطت بعنقه ربقة الأسر والمذلة وطوق بفضل

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٨ ص ٢٦٣ - ٢٦٤.
(٢) نفسه.
(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ ٢٠ ص ٦٧.

المسلمين وجميل صنيعهم عليه. وخلْعه قبل عودته يجعل الحكومة البيزنطية في حل من تنفيذ ما التزم به للمسلمين لا سيما دفع تلك الأموال الكبيرة التي سوف تكلف خزينتها كثيراً وتجهد مواردها.

وكان في إمكان المسلمين ضرب عنق الأمبراطور عند القبض عليه على صعيد المعركة ولكن رأوا في سياسة حكيمة وبعد في موازنة الأمور أن يعاملوه معاملة أسير حرب تليق بمقامه وتتفق مع خلق المحاربين المسلمين، كما رأوا أن العفو عنه ورده إلى بلده واصطناعه مهما كانت العواقب التالية موقف سوف يذهل البيزنطيين ويبقي للمسلمين ذكراً طيباً على مر التاريخ فلا أشجع وأنبل من العفو عند المقدرة.

وفي أواخر القرن الخامس الهجري بدأت الحروب الصليبية، وتغيرت مجريات الأحداث بين العباسيين والبيزنطيين حيث تمكن هؤلاء الغزاة الجدد من تأسيس أول أمارة صليبية في الرها سنة أربع مائة وواحد وتسعين (١٩٨ م)[١]، بل استولوا على بيت المقدس في شعبان سنة أربع مائة واثنين وتسعين(١٠٩٩ م)[٢]، وتوالت جحافلهم في حملات متفرقة على المشرق الإسلامي طيلة قرنين من الزمان انصرف المسلمون خلالها لمقاومة الخطر الصليبي في الشام وفلسطين وساهمت هذه الأوضاع مجتمعة في قطع الاتصال الدبلوماسي بين العباسيين والبيزنطيين لزوال أسبابه وامتناع أهدافه.

فعلى الرغم من أن الخلفاء العباسيين أنفسهم لم تكن لهم جهود بارزة في مواجهة الغزو الصليبي ودفعه إلا أن القوى السياسية القائمة في كنف الدولة العباسية والموالية لها ـ ولو إسمياً ـ في الشام انشغلت بمقاومة

---

(١) أبو سعيد: الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية. القاهرة ١٩٧١ م، جـ ١ ص ١١٨ و١٤٥ ـ ١٥٠.
(٢) نفسه.

هذا الخطر الداهم وتولت مقارعته بعد أن كانت تلك المنطقة وقواها مجالاً هاماً لاتصال العلاقات العباسية البيزنطية.

أما الدولة البيزنطية فقد شهدت في بداية هذه المرحلة نهاية الأسرة المقدونية الحاكمة فيها المعروفة بقوتها وبأس أباطرتها في سنة أربع مائة وست عشرة (١٠٢٥ م) وأعقب سقوطها فترة من الإضطراب والإنهيار السياسي في الدولة، ففي الداخل دب الصراع بين فئات الجيش وبين السلطات المدنية في السيطرة على العرش وتدهورت الأحوال الإقتصادية في البلاد من زراعة وتجارة.

وفي الخارج اشتدت غارات الأمم المجاورة لها في هذه الفترة، ففي الشمال اشتدت غارات شعوب البجناك والغز، وفي الغرب النورمان وفي الشرق اشتدت غارات السلاجقة المسلمين حتى تمكنوا من أسر الأمبراطور رومانوس الرابع كما سبق في معركة ملاذكرت. وجرى تبعاً لذلك اقتطاع أقاليم متعددة من أراضي الأمبراطورية وتراجعت حدودها في كثير من الجهات[١].

وهكذا ساهمت الظروف السياسية في الدولتين العباسية والبيزنطية ثم ظهور قوى سياسية جديدة حاجزة بينهما ومؤثرة في أوضاع أقاليم الدولتين المتجاورة في تدهور الصلات الدبلوماسية وانقطاعها في هذه المرحلة من تاريخهما كما سلف، ولكن كانت في الجانب العباسي أميل وأوضح حيث شهد حوادث عظام من غزو صليبي وزحف تتري أثرت بوضوح في علاقاته بالبيزنطيين، بل ألغتها وقضت أخيراً على العباسيين أنفسهم، ثم نشأت بعدهم دول إسلامية حملت اللواء وقارعت الأعداء وسامتهم خسفاً وطرداً.

---

(١) الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص ٨٢٢ - ٨٢٣.

الفصل الرابع

سفـارات الدولـة الأمويـة في الأنـدلس إلى الـدولـة البيزنطية

أ ـ السفارات الأموية إلى الدولة البيزنطية في عَهد الإمارة.

ب ـ أهداف السفارات الأمويَة في عهد الإمارة.

ح ـ السفارات الأمويَة إلى الدَولة البيزنطية في عهد الخلافة.

د ـ أهداف السفارات الأمويَة في عهد الخليفة عبد الرحمنْ النَاصر.

هـ ـ السفارات الأموية إلى الدولة البيزنطية في أواخر العهد الأموي.

سفارات الدولة الأموية
إلى الدولة البيزنطية

قامت الدولة الأموية في الأندلس سنة مائة وثمان وثلاثين (٧٥٥م) بعد أن سقطت دولة أجدادهم في المشرق قبل ذلك بست سنوات على يد العباسيين، وأصبحت الأندلس قاعدة الحكم الأموي الجديد بعد أن كانت ولاية أموية تابعة لدولتهم السابقة، وتبع انتقال السلطة الأموية من الشرق إلى الأندلس تحولاً في علاقة الأمويين مع دول العالم آنذاك، فبعد أن كان لهم في المشرق علاقات مع ممالك الهند والصين وبيزنطة أصبحت علاقاتهم في الأندلس ترتبط فضلاً عن البيزنطيين بدولة الفرنجة في غالة والممالك النصرانية في شمال الأندلس.

وهكذا يلاحظ أن الأمويين ظلت تربطهم علاقات مختلفة بالدولة البيزنطية سواء عندما كانت دولتهم قائمة في المشرق أو عندما نهضت من جديد في الأندلس، إلا أنه يجب التفريق بين مستوى تلك العلاقات ومجالاتها بين الأمويين والبيزنطيين عندما كانوا متجاورين في الشرق وحملات الشواتي والصوائف المعروفة لا تكاد تفتر عبر حدودهم وبين وضعهم الحالي حيث أصبح يفصل بينهم الآن بحر الروم فضلاً عن الدول الأخرى التي كانت تحكم جزره وتفصل بينهم مثل الفاطميين والنورمانديين من بعدهم.

وفي الوقت نفسه انشغل كل طرف بجيرانه الأقربين حرباً أو سلماً، وهي عوامل أسهمت بداهة في قلة الاتصال بينهم وعدم وضوحه. ذلك أن

ما تم منه يعتبر محدوداً في مجالاته وأهدافه، وعلى الرغم من ذلك تفرض طبيعة بحثنا دراسته وتتبعه ما أمكن، وهو أمر يحسن تقصيه حسب ما تم منه في عهدي الإمارة والخلافة في العصر الأموي في الأندلس.

أ ـ السفارات الأموية إلى بيزنطة في عهد الإمارة:

انشغل الأمويون في الأندلس في أول عهدهم بتأسيس دولتهم وترتيب دواوينها، وإخماد الفتن والثورات الداخلية المناهضة لها، والقضاء على مناوئيهم من الثائرين والطامعين، كما انصرفوا إلى مجابهة الأخطار الخارجية التي كانت تحدق بهم وتهدد دولتهم، لا سيما خطر الممالك النصرانية على حدودهم الشمالية.

واستغرق ذلك وقتاً طويلاً قد يفسر ـ بالإضافة إلى ما سبق ـ تأخر الاتصال الأموي البيزنطي في عهد الإمارة، فقد مضى قرابة قرن على قيام الدولة الأموية في الأندلس دون وجود أي ذكر لاتصال أموي بيزنطي في المجال الدبلوماسي.

ورد أول ذكر لاتصال العلاقات الأموية البيزنطية في حدود علمنا في سنة مائتين وخمس وعشرين (٨٣٩ م) عندما قدم رسل الأمبراطور البيزنطي ثيوفيلوس Theophilus (٢١٤ ـ ٢٢٨ هـ/٨٢٩ ـ ٨٤٢ م) موفدين إلى الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ/٨٢١ ـ ٨٥٢ م)[1]، في سفارة تعددت أهدافها وأغراضها، ونالت بالتالي حظها من اهتمام المؤرخين المعاصرين واللاحقين وسوف ندرس الظروف التي قدمت فيها هذه السفارة، ورد الإمارة الأموية عليها ثم نناقش أهدافها وآراء الباحثين حولها.

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ط ٣، بيروت ١٩٦٧ م، جـ ٤ ص ٢٨٢؛ المقري: نفح الطيب، بيروت ١٩٦٨ م، جـ١ ص ٣٤٦.

تكـاد تتفق المصادر الإسـلامية ـ وهي أنـدلسية غـالباً ـ على بـداية الاتصال بين الأمويين في الأندلس والبيزنطيين بتحديده بسنة مائتين وخمس وعشرين (٨٣٩ م) عندما قدمت أول سفارة بيزنطية إلى الأندلس الأموية[١].

ولم تشر المصادر إلى كيفية استقبال الأمير الأموي لمبعوثي الامبراطور البيـزنطي وعلى أي هيئـة قابلهم، ومن حضـر هذه المقـابلة من الجانب الأموي، واكتفت، في هذا الصدد بذكر أن البعثة البيزنطية كانت بزعامـة قراطيوس Kratius الذي كان ترجماناً في البلاط البيزنطي، وأنهم قـابلوا الأمير عبد الرحمن وقدموا له هدية من قبل الامبراطور، وأن الأمير الأموي قبلها، ثم أمر أن يكافأ الأمبراطور بمثلها[٢]، وهو تقليد جرت عليه الدول آنذاك وما زال متبعاً إلى اليوم مع اختلاف يتناسب مع ارتقاء الأمم. ثم ندب الأمير عبد الرحمن يحيى الغزال ـ أحد رجال بلاطه ـ ليكون سفيراً من قبله إلى الأمبراطور البيزنطي، ويرافق البعثة البيزنطية في عودتها[٣].

سار يحيى الغزال ومعه رجل آخر يسمى أيضاً يحيى بـرفقة الـوفد البيزنطي من قرطبة العاصمة الأموية نحو الجنوب الشرقي ومن هناك ركبو البحر نحو القسطنطينية أي أنهم ساروا في البحر المتوسط تجاه الشرق. وقد عانوا من أهوال البحر وأمواجه حتى أشرفوا على الهلاك وجادت قريحة الغزال بوصف الموقف شعراً، إلا أن أحـداث هذه الـرحلة اختلطت في الظاهر بأحداث رحلة الغزال إلى بلاد دانمرقة (الدانمرك) النورمانيـة في الشمال، غيـر أن عودة الـوفد الأمـوي عن طريق مينـاء شنت يـاقب[٤] في الشمـال الغـربي

---

(١) ابن خلدون: العبر، جـ ٤ ص ٢٨٢.

(٢) نفسه.

(٣) ابن حيان: المقتبس نقلاً عن المقري: نفح الطيب، جـ ٢ ص ٢٥٨.

(٤) شنت ياقب: ثغر من ثغور مارده في أقصى الشمال الأندلسي، وأصلها موقع لكنيسة هامة ذكر أن يعقوب الحوري نقلت جثته من بيت المقدس ودفن هناك، وبنيت على قبره كنيسة أصبحت مزاراً للنصارى. انظر: الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، بيروت ١٩٧٥ م، ص ٣٤٨.

للأندلس يؤكد ذهابه إلى هناك بعد انتهاء مهمته في القسطنطينية بعد غياب دام تسعة أشهر[1]، وسوف يرد مزيد من التفصيل عند دراسة أهداف هذه السفارة فيما بعد إن شاء الله.

ذهب يحيى الغزالي سفيراً إلى القسطنطينية في هذه السفارة التي تعتبر أول سفارة أموية أندلسية تذهب إلى بيزنطة. كان يحيى الغزالي جميلاً بهي الطلعة حاضر البديهة موهوباً حكمة وشعراً، وتجلت كل هذه الصفات في تصرفه الحاذق ازاء المواقف التي واجهته في البلاط البيزنطي[2]، وهو ما سوف يأتي في ترجمته.

أما مهمته الدبلوماسية وحنكته السياسية فإن هذه المهمة لم ترد في المصادر معلومات بشأنها، ولكن لا نستبعد أن يكون قد أظهر براعة خلال مفاوضاته مع البيزنطيين ومداولتهم في أمور الحرب والسلام، إلا إذا كان قد اكتفى بتسليم رسالة أميره إلى البيزنطيين وإيضاح مهمته. وكل ما نعرفه أن هذه الرسالة تتبعت مطالب الأمبراطور البيزنطي بنداً بنداً وهكذا وهو ما سوف نعرض له عند الحديث عن أهداف هذه السفارة بعد قليل.

أما أهداف السفارة البيزنطية التي سبقت الإشارة إليها والتي كانت سفارة الغزالي رداً عليها فقد ظلت مجهولة حتى عهد قريب حين اكتشف المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال في النصف الأول من القرن الهجري الماضي (القرن التاسع عشر الميلادي) جزءاً مخطوطاً من كتاب المقتبس لابن حيان المتوفي في سنة أربع مائة وتسع وستين (١٠٧٦ م) تتعلق بحوادث من تاريخ الأندلس إبان إمارة عبد الرحمن الثاني رواها ابن حيان

---

(١) ابن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب، ص ١٣٩ - ١٤٢؛- المقري: نفح الطيب، جـ ٢ ص ٢٥٤ - ٢٥٩، انظر أيضاً:
حسن مؤنس: «غارات النورمانيين على الأندلس» - المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثاني، العدد الأول مايو ١٩٤٩ م، ص ٤٦ - ٤٧ و ٦٠ - ٦٣.

(٢) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلي المغرب، القاهرة ١٩٥٥ م، جـ ٢ ص ٥٨.

عن مؤرخيْن أندلسيّين عاشا في القرن الرابع الهجري هما محمد بن مفرج، وعيسى بن أحمد الرازي[١] اللذان ضاعت مؤلفاتهما التاريخية ولم يصلنا منها إلا شذرات متناثرة نقلها عنهما مؤرخون متأخرون[٢]، بل الأدهى من ذلك أن القطعة التي عثر عليها ليفي بروفنسال من تاريخ ابن حيان ضاعت هي الأخرى بعد وفاة مكتشفها ولم يعثر عليها في تركته المكتبية حتى الآن، ولم يعد أمامنا سوى الاعتماد فقط على ما نشره أو كتبه ليفي بروفنسال عنها[٣].

أما ما أوردته المصادر الإسلامية الأخرى عن السفارات بين الأمويين والبيزنطيين فهو نزر يسير لا يتعدى ما ورد سابقاً عند استعراض تلك السفارات.

كما أن ما أورده الباحثون المحدثون لا يتعدى ذلك أيضاً مع اختلاف آرائهم وتباينها في استنتاج أهداف تلك الاتصالات.

---

(١) عيسى بن أحمد الرازي مؤرخ أندلسي عاش في القرن الرابع الهجري، وقد أشتهر عدد من أفراد أسرته بالاشتغال بالتأليف إلا أن مؤلفاته التاريخية ضاعت ومن أشهرها كتاب الحجاب للخلفاء بالأندلس. ابن الأبار: كتاب الحلة السيراء القاهرة ١٩٦٣م، جـ١ ص ١٣٨، انظر أيضاً:

- Encyclopedie de L'Islam. Leiden. 1939. Tom III. P. 1216.

(٢) بروفنسال: تاريخ الإسلام في المغرب والأندلس، القاهرة ١٩٦٥م، ص ٩٦ ـ ٩٧.

(٣) ابن حيان: المقتبس مقدمة المحقق، ص ١١٨ ـ ١١٩.

ب ـ أهداف السفارات الأموية في عهد الإمارة:

يذكر ابن حيان فيما رواه أن المبعوث البيزنطي قراطيوس حمل رسالة من الأمبراطور ثيوفيلوس إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط يطلب فيها تحقيق ما يأتي:

١ ـ المواصلة بين الجانبين الأموي والبيزنطي، وطلب تبادل المبعوثين بينهما.

٢ ـ ترغيب الأمير الأموي في ملك أسلافه بالمشرق، وأنه على استعداد لمساعدته على تحقيق ذلك.

٣ ـ طلب عودة جزيرة أقريطش إلى الدولة البيزنطية، وطرد فاتحيها الأندلسيين الجدد منها.

٤ ـ عقد معاهدة صداقة بين الدولتين[١].

أما الرد الجوابي الذي أرسله الأمير عبد الرحمن مع مبعوثه يحيى الغزالي ومرافقه فقد كان يناقش مطالب الامبراطور البيزنطي ويرد على رسالته فقرة فقرة، حتى أن المطلع عليه ليستطيع أن يستنتج مطالب الامبراطور التي وردت آنفاً. وقد جاء في الرسالة الأموية باجمال ما يأتي[٢]:

الإفادة بوصول كتاب الامبراطور، وتفهم ماجاء فيه حول مشاعر

(١) بروفنسال: تاريخ الإسلام في المغرب والأندلس، ص ٩٧ ـ ٩٨.
(٢) انظر الرسالة كاملة في ملحق رقم (٣).

الصداقة التي كانت قائمة بين أجداد الامبراطور والأمير الأموي في الشام والرغبة في تجديدها ثم بعث رسول أموي لمقابلة الأمبراطور لتأكيد ذلك وتوثيقه بما يظهره له الامبراطور من حفاوة وترحيب يدل على ذلك ويؤثر عليه.

ثم بين الأمير عبد الرحمن له رغبته في تجديد المواصلة والتمسك بها، وأن ذلك أمر محبب بين الملوك يتواصون به ويشددون عليه. ثم أظهر الأمير تقديره الشخصي للأمبراطور ثيوفيلوس لما أبداه في رسالته من مشاعر تجاه المصير المؤلم الذي انتهى إليه مروان بن محمد (١٢٧ - ١٣٢ م) آخر خلفاء دولة بني أمية في المشرق على يد العباسيين.

وفيما يختص بتعريض الامبراطور البيزنطي بالخليفتين العباسيين المأمون والمعتصم، وندبهما بابني مراجل وماردة[1]، وذكر فساد سيرتهما وشدة سياستهما في رعيتهما، وأن نهاية دولتهم قربت لتعود الخلافة للبيت الأموي، وأنه سوف يناصر الأمويين عند ذلك ويعينهم على استرجاع ملكهم في المشرق، فقد أشار الأمير الأموي إلى أن عودة الأمويين إلى المشرق تبقى أمنية لهم ولأنصارهم في الشام والأندلس، وأنه يعلم أن الامبراطور حينئذ لن يتخلى عنهم نظراً لما بينهما من صداقة ومودة لو حدثت تلك العدوة.

أما فيما يتعلق بطلب مساعدة الأمويين ضد مسلمي أقريطش الأندلسيين لما يقومون به من غارات على الأسطول البيزنطي والجزر المجاورة لهم فقد أجابه الأمير بأن أولئك خارجون على الدولة الأموية في الأندلس ولا تربطهم بهم علاقة أو ولاء، بل أصبحوا تابعين للخليفة

(١) كانت أم الخليفة المأمون جارية تسمى مراجل، وكانت تسمى أم الخليفة المعتصم ماردة. انظر:
ابن قتيبة: المعارف ط ٤، القاهرة ١٩٨١ م، ص ٣٨٧ و ٣٩٢.

العباسي، فهم والامبراطور وما يراه فيهم، وفي حالة عودة الأمويين إلى المشرق سوف ينظرون في وضعهم عند ذلك.

ثم إن أموراً بين الدولتين لم تكتب في رسالة الأمير عبد الرحمن إلى ثيوفيلوس وإنما سبق شرحها مشافهة للسفير البيزنطي، ولا نستبعد أن تكون هذه الأمور قد وضحت للمبعوثَيْن الأمويَيْن إلى هناك، ويتضح ذلك من الفقرة الأخيرة من الرسالة التي يقول فيها الأمير للامبراطور:

«وقد أدخلنا رسولك قرطيوس علينا، وكشفناه على الذي أوصيت به إلينا، وعن كل ما يجب لصديق أن يعرفه من حال صديقه، ووجهنا إليك بكتابنا هذا رسولين من صالحي من قبلنا، فاكتب إلينا مفهماً بالذي أنت عليه من الأمر الذي كتبت به إلينا، والذي يجب عليك من سائر خبرك ومتعه عافيتك، لننظر فيما ينصرفان به مِنْ عندك على حسب ما يأتينا به مَنْ عندك، إن شاء الله»[١].

ودراسة الظروف السياسية في الدولتين الأموية والبيزنطية التي تمت فيها تلك السفارات يمكن أن تلقي مزيداً من الضوء على أهدافها، ومطامح كل طرف من ورائها، ثم تكشف عما تحقق من تلك الأهداف والنتائج التي جناها كل طرف من وراء اتصاله بالطرف الآخر.

تأتي سفارة الامبراطور ثيوفلوس إلى الدولة الأموية في الأندلس في وقت اشتدت فيه الغارات العباسية على الحدود الجنوبية للدولة البيزنطية، وبلغت ذروتها في عهد الخليفة المعتصم الذي خاض بنفسه موقعة عمورية سنة مائتين وثلاث وعشرين (٨٣٧ م) ضد البيزنطيين[٢]، وانهزم الامبراطور ثيوفليوس فيها هزيمة نكراء أثارت رعباً وهلعاً في أرجاء الامبراطورية،

---

(١) بروفنسال: تاريخ الإسلام في المغرب والأندلس، ص ١١٨ وانظر الرسالة بالتفصيل ملحق رقم (٣).
(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ ٩ ص ٥٧ - ٧٩.

فسارع إلى الاستنجاد بالأمم النصرانية في الغرب، فبعث مندوبيه في سنة مائتين وخمس وعشرين (٨٣٩ م) إلى ملك الفرنجة لويس التقي (١٩٩ - ٢٢٦ هـ/٨١٤ - ٨٤٠ م)، ودوقية البندقية بغية الحصول على دعم موقفه ومآزرته ضد العباسيين[١].

بل تعدى ذلك إلى حد الاستعانة بقوة إسلامية تناصب العباسيين العداء هي الدولة الأموية في الأندلس، وحاول في رسالته السابقة التي حملها سفيره إلى الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط أن يستخدم كل دهائه وذكائه في استمالة الأمويين إلى جانبه وعقد حلف معهم ضد العباسيين، وذلك من خلال أسلوبيْن: الأول هو تذكير الأمير الأموي بالصداقة والموادعة التي كانت تربط بين أسلافه في الشام وبين الأباطرة البيزنطيين، وهو أمر لا يخلو من مبالغة ومجاملة درجت الأعراف الدبلوماسية على ترديدها في كل عصر تغطية لأغراضها الحقيقية، لأن ما تم من تلك الصداقة المشار إليها كان تحت وطأة حملات الصوائف والشواتي التي قرعت أبواب القسطنطينية نفسها في العهد الأموي السابق[٢].

الأسلوب الثاني هو استنهاض الأمويين واستعداؤهم ضد العباسيين المسلمين في المشرق - لكن العداء بين الأمويين والعباسيين لم يكن مستطيراً إلى هذا الحد الذي تصوره الامبراطور - في ظل نقمته على العباسيين - حتى يصل إلى محالفة الأمويين للنصارى وموالاتهم ضد العباسيين أعدائهم السياسيين وإخوانهم المسلمين وهم أمر لم يقدم عليه الخلفاء والأمراء المسلمون المعتبرون في التاريخ، وإنما يلجأ إليه أحياناً

---

(١) فازيلييف: العرب والروم ص ١٦٤.

- Eduxyn Hole; Andalus: Spain Under The Muslims London. 1958. PP. 82 - 83.

Brebier; The Life and Death of Byazantium Holand. 1977. PP. 75 - 76.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ ٦ ص ٥٣٠ - ٥٣١.

بعض الطامعين والثائرين ممن أغواهم حب السلطة والتسلط وضلوا السبيل، وهم موجودون في كل أمة وفي كل عصر.

والأمويون الذين عاشوا في عصر مبكر وحكموا مجتمعاً إسلامياً صالحاً على العموم لم يكونوا ليقدموا على التحالف الذي كان البيزنطيون يعملون على عقده ضد العباسيين، بل إن أمويي الأندلس لم ينازعوهم لقب الخلافة حفاظاً على وحدة الخلافة الإسلامية وعدم تعددها في هذه الفترة، واكتفوا ـ تبعاً لذلك ـ بلقب الأمارة، ولم يتلقبوا بلقب الخلافة إلا بعد قرابة قرن من الآن عندما رأوا ضعف الخلفاء العباسيين، وتلقب الفاطميين بها وهم شيعة، ثم أهليتهم هم لها بعد أن طبقت شهرة دولتهم الأفاق ازدهاراً وحضارة.

ومهما حاول الامبراطور من التبكيت والقدح في العباسيين بغية تأليب الأمويين ضدهم(١) فهو لم يبلغ مرامه في ظل الواقع التاريخي، لأن العباسيين كفوا منذ قرابة سبعين عاماً خلت عن محاولة ضم الأندلس الأموي، وانشغلوا بأمور المشرق عنها بل إنهم لم يحاولوا ذلك في أقاليم أقرب إليهم من الأندلس استقل بها متغلبون، فلم يحاول العباسيون استردادها مثل المغرب الذي استقل به الأدارسة(٢) منذ خلافة هارون الرشيد.

والخطر الذي يواجه الأمويين في الأندلس لم يكن في الحقيقة عباسياً حتى يتطلب أن يعقدوا حلفاً مع البيزنطيين ضد العباسيين وهو ما طمح

---

(١) من البديهي أن يقال ان الأمبراطور البيزنطي لجأ إلى هذه السياسة بغية تعميق جذور الخلاف بين القوتين الإسلاميتين العباسية والأموية، آنذاك، وتأليبهم ضد بعضهم البعض، واستغلال الخلاف بينهما لمصالحه وأطماعه، وهو أسلوب تلجأ إليه الدول المعادية للدول الإسلامية في كل زمان ومكان.

(٢) الأدارسة نسبة إلى أدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي قامت دولتهم على يده في المغرب الأقصى (١٧٢ ـ ٣٦٤ هـ) وقد لبثت هذه الدولة قرنين من الزمان حتى سقطت على أيدي أمويي الأندلس.

البيزنطيون أولاً إلى تحقيقه من سفارتهم هذه، وإنما كان هناك خطر أقرب إليهم وأكثر قسوة والحاحاً، وهو خطر الممالك النصرانية في شمالي الأندلس نفسها، وفيما بعد خطر الأدارسة والفاطميين في المغرب[١].

كذلك انشغل الأمويون بأمورهم الداخلية من فتن وثورات داخلية صرفت جهودهم لمواجهتها دون النظر إلى المشرق البعيد[٢]، وما أبداه الأمير الأموي في رسالته للأمبراطور البيزنطي لا يتعدى نطاق المجاملة والأماني، بعيداً عن مفاهيم إقامة الأحلاف، والبون شاسع بين هذه الدعوة وبين حقيقة الواقع.

بل أن الأمير لم يظهر تجاوباً أو موقفاً إيجابياً لمساعدة الامبراطور إزاء ما طلبه منه من إيقاف خطر مسلمي جزيرة أقريطش الأندلسيين ضد الدولة البيزنطية وهو ما طمح البيزنطيون أيضاً إلى تحقيقه، وهدفت إليه سفارتهم إلى أمويي الأندلس[٣]، أكثر من افهامه والتأكيد له بأن هؤلاء الأندلسيين لم يعودوا تابعين للدولة الأموية، فقد بعدت ناحيتهم وتغير ولاؤهم فشأن الأمبراطور وإياهم على الرغم من إظهار عجزه أمام قوتهم الفتية وغارتهم الموجعة.

ومن كل ما سبق يتضح أن الامبراطور البيزنطي لم يظفر بشيء ملموس من الأمير الأموي عدا عبارات الاحترام والمجاملة وبذل الوعود المبهمة وتعليقها بالمستقبل، وهو أسلوب ربما تطلبه المقام الملح من الامبراطور ورأت الدبلوماسية الأموية آنذاك استحسانه.

وهكذا يظهر أن ما يردده بعض الباحثين المحدثين مثل فازيلييف

---

(١) بروفنسال: تاريخ الإسلام في المغرب والأندلس، ص ٩٤.

(٢) Imamuddin: A Political History of Muslim Spain. Scan, E. Dacca 967. P. 102.

(٣) المرجع السابق، ص ٩٩.

وجميل نخله المدور وصلاح الدين المنجد وآخرين[1] من قيام حلف بين الأمويين والبيزنطيين ضد العباسيين نتيجة اتصال السفارات بين الجانبين في هذا الوقت أنه في الحقيقة أمر هدف له البيزنطيون وأهمله الأمويون، وليس أدل على ذلك من رسالتهم السابقة للبيزنطيين التي اتسمت بالفتور وإن حفلت بالمجاملة، بل إن هذا الفتور شمل أشياء أقل من التحالف أهمية كمساعدة الأمويين لهم ضد مسلمي جزيرة أقريطش مثلاً[2].

وبالتالي يصبح هذا الحلف أمراً وهمياً لا وجود له في الواقع التاريخي، ذلك أن ما تم طرحه من قبل البيزنطيين مشروعاً للتحالف مع الأمويين لا يعني وجوده وقيامه على صفحة الواقع ومن ثم قبول الأمويين به، والبون شاسع بين الحالتين.

ومن البداهة بمكان الإشارة إلى أنه لو تم حلف كهذا بين الجانبين لجرت بينهما السفارات والإتصالات بين الحين والآخر لتوثيقه وتقريره واستمراره، أو يشيع نقضه وانخرامه على الأقل فيعرف ويستبين جرياً على قاعدة أن كثيراً من الأمور السياسية تتضح وتظهر عند نهايتها أو حلها - لو سلمنا بسرية مثل هذه الأحلاف في الماضي جدلاً - وهو أمر غير معروف في الحالتين.

ثم لما حدث بينهما هذا الانقطاع الدبلوماسي طيلة قرن من الزمان استغرق عهود الأمراء التالين ليبدأ فصل جديد من الاتصالات بين الجانبين في عصر الخلافة، وهو ما سوف تأتي دراسته فيما بعد.

وينحو بعض الباحثين مثل فازيلييف ورانسيمان Runciman وبكلر

(١) العرب والروم، ص ١٦٥، حضارة الإسلام في دار السلام القاهرة ١٩٣٦ م، ص ٢١١، فصول في الدبلوماسية، ص ١٥٨ - ١٥٩.

(٢) O'Callagban: A History of Spain. Amarica 1975. P. 109.
مصطفى: دولة بني العباس، الكويت ١٩٧٤ م، ص ٥٥٩.

Buckler وجميل نخله المدور وعبد العزيز سالم وبيريـن Pirenne وإبراهيم العدوي وآخرين[1] منحى آخر مفاده أن هذا الاتصال الأموي البيزنطي جاء رداً على الاتصـال الدبلومـاسي الذي تم منـذ ثلاثين عـامـاً أو أكثـر بين العباسيين وملوك الفرنجة في بلاد غاله حيث فسروا الأخير بأنه موجه ضد الأمويين والبيزنطيين، فرأى الأمويون ضرورة قيام اتصال أو تحالف بالمقابل ضد العباسيين والفرنجة على السواء.

وهـذا منحى مازالت تعـوزه الأدلة التـاريخية الصـريحـة بعيـداً عن التفسيرات والاجتهادات أو بعيداً عن مصطلحات العصر الحديث ومفاهيمه على الأقـل، حيث لم يوجـد من القوة والحـرارة في عـلاقـات الأمـويين بالبيزنطيين ما يشيع أو يدعم هذا الرأي. ولم يكن خطر الفرنجة ماثلاً على الأمويين في الأندلس حتى يلجـأوا إلى البيزنـطيين لمحاولـة تخفيف هذا الخطر بل إن علاقات الجارتين هنا اتجهت إلى الإنفراج إبان فترة اتصال السفرات الأموية مع بيزنطة أكثر من ذي قبل[2]، حيث بدأت دولة الفرنجة

---

(١) فازيلييف: هارون الرشيد، ص ٧٧، نقلاً عن بارتولد: دراسات في تاريخ فلسطين في العصور الوسطى، بغداد ١٩٧٣ م، ص ١١٨.

- Runciman: Charlemagne and Palestine. English Wistarical Review Vol. L, Dct. 1935. PP. 608 - 609.

- Buckler: Charles the Creat and Hasun Al - Rashid. U. S. A. 1931. P. 9.

- جميـل نخلة المـدور: حضـارة الإسـلام في دار السـلام، ص ٢١١ - ٢١٣؛ عبـد العزيـز سالم: دراسـات في تاريـخ العرب، الاسكنـدرية ١٣٩٨ هـ، جـ ٣ ص ٢٤٢ - ٢٤٤.

- Pirenne: Mohammed and Charlemagne. London. 1974. P. 160.

العدوي: السفارات الإسلامية إلى أوروبا، ص ١٠٠؛ حبيبه: **مع المسلمين في الأندلس**، ط ٢، جدة ١٩٧٢ م، ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

(٢) لمزيد من التوسع في دراسة العلاقة بين الأمويين والفرنجة انظر، الشيخ: دولـة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، الاسكندرية ١٩٨١ م، ص ٢١٥ - ٢٩٠.

تأخذ في الضعف والانحدار وتفقد خطورتها بالنسبة لجيرانها في الجنوب. وإذا كان البيزنطيون والفرنجة نصارى فإن العباسيين والأمويين على دين واحد يمثل دستوراً لهم ومن مبادئه عدم جواز الاستعانة بأهل دار الحرب وموالاتهم ضد المسلمين الآخرين مهما كان العداء بينهم سافراً[1].

وذهب بعض الباحثين أبعد من ذلك بقولهم أن سفارة الغزال لم تذهب إلى القسطنطينية، وإنما توجهت إلى ملك دانمرقة في الشمال واعتمدوا في ذلك على رواية ابن دحية المتوفي في سنة ست مائة وثلاث وثلاثين (٦٣٣ هـ) الذي تحدث عن ذلك باسهاب في كتابه المطرب[2]، ولم يشر إلى أية بعثة قام بها يحيى الغزالي إلى بلاط القسطنطينية، وعلى العكس من ذلك ما ذكره كثير من المؤرخين ممن عاشوا قبله كابن حيان، أو بعده كابن خلدون والمقّرى، فقد أخبروا أن الغزال ذهب في سفارتين إحداهما إلى بيزنطة الآنفة الذكر والأخرى إلى دانمرقة في الشمال، وهي خارج موضوع هذا البحث[3].

والمصادر التي تذكر ذهاب سفارة الغزال إلى القسطنطينية كابن حيان وابن خلدون والمقرى تحددها بسنة مائتين وخمس وعشرين (٨٣٩ م) بعد مقدم رسل بيزنطيين إلى قرطبة في السنة نفسها، بينما تكون رحلة الغزال في الواقع إلى بلاد النورمان التي أسهب ابن دحية في وصفها قد تمت في أواخر سنة مائتين وثلاثين (٨٤٤ م)، أي بعد انتهاء غارات النورمان على الأندلس في هذه السنة.

---

(١) حول علاقات العباسيين بالفرنجة وصلتها وآثارها على علاقات العباسيين بالبيزنطيين والأمويين وعلاقة هؤلاء بالفرنجة وبيزنطة وآراء الباحثين حول تلك العلاقات. انظر:
الرحيلي: العلاقات السلمية بين الدولة العباسية وأوروبا في العصر العباسي المبكر، ص ٩٥ - ١٣٣.
(٢) ص ١٣٩ - ١٤٤.
(٣) انظر الصفحة التالية حاشية رقم (١).

وعلى هذه الصورة هناك قرابة أربع إلى خمس سنوات فرقاً بين الرحلتين ومن غير المقبول أن يكون الغزال قد قضى هذه المدة متنقلاً بين القسطنطينية ومملكة النورمان، ولا سيما أن بعض هذه المصادر تشير أن رحلته استغرقت تسعة أشهر دون تحديد، وهو ما يمكن قبوله وقتاً استغرقته رحلته إلى إحدى الجهتين والشمالية منهما أكثر احتمالاً لبعدها، بالإضافة إلى أن الطريق إليها لم يكن مألوفاً أو مرتاداً فضلاً عن كثرة مخاطره بسبب أمواجه وخلجانه، ولهذا يتبادر إلى الذهن أن الغزال لا بد قد عاد إلى قرطبة بعد أن أنهى مهمته في القسطنطينية ومكث فيها ثلاث سنوات أو أكثر ثم وقع عليه الاختيار مرة ثانية للذهاب في سفارة جديدة إلى ملك النورمان في الشمال وذلك بسبب خبرة الغزال التي اكتسبها في سفارته الأولى إلى القسطنطينية. ومن ثم رأى البلاط الأموي أن الغزال هو أصلح من يقوم بهذه المهمة، واختلاف التاريخ بين الرحلتين والظروف التي تمت فيها كل منهما قد يكون السبيل الوحيد الذي يمكن التفريق بينهما على أساسه لا سيما بعد اختلاط وصفهما في بعض المصادر الأصلية كابن دحية في مطربه[1].

وقد انقسم الباحثون في هذا المجال إلى ثلاثة فرقاء، فريق يرى أن الغزال ذهب في سفارتين إحداهما إلى الدولة البيزنطية في الشرق، والأخرى إلى مملكة دانمرقة في الشمال بل أن بعضهم يرى أن هاتين السفارتين كانتا متصلتين. وهذا الفريق هم الأكثر ومنهم فازيلييف وحسين مؤنس، وشاكر مصطفى وادوين هول[2].

---

(١) ص ١٣٨ ـ ١٤٤، ولا يتسع المجال لدراسة سفارة الغزال إلى النورمانيين بالتفصيل والتحليل أكثر من معرفة الصلة بينها وبين سفارته إلى البيزنطيين التي وضحت في المتن، لأن الأولى خارج موضوع هذا البحث ولمزيد من التفصيل والدراسة حولها انظر:

مؤنس: «غارات النورمانيين على الأندلس» المجلة التاريخية المصرية المجلد الثاني، العدد الأول مايو ١٩٤٩ م، ص ٤٢ ـ ٥٢.

(٢) فازيلييف: العرب والروم، ص ١٦٤ ـ ١٦٥.
مؤنس: المرجع السابق، ص ٤٤ ـ ٤٥.
=

وفريق يرى أن يحيى الغزال توجه في سفارة وحيدة إلى الدولة البيزنطية وينكر الأخرى وأشهر من يرى ذلك المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال[١].

وفريق ثالث يرى أن سفارة يحيى الغزال كانت إلى دانمرقة في الشمال ويعالج هذه السفارة بوضوح دون أن يشير إلى رأيه في سفارة الغزال إلى القسطنطينية ومنهم إبراهيم العدوي وألن Allen[٢].

والرأي الأول أوفق تبعاً لروايات المصادر التاريخية وسردها لحوادث سفارة يحيى الغزال، وقد اتضح ذلك من خلال مناقشة أحداث تلك السفارة وأهدافها فيما سبق، ولا حاجة لتكرارها مرة أخرى هنا.

= مصطفى: دولة بني العباس، جـ ٢ ص ٥٥٨ ـ ٥٥٩.

- Eduxyn Hole: Andalus Spain under the Muslims pp. 84 - 85.

(١) بروفنسال: تاريخ الإسلام في المغرب والأندلس، ص ١١٣ ـ ١١٤.

(٢) العدوي: المسلمون والجرمان، القاهرة ١٩٦٠ م، ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠، السفارات الإسلامية إلى أوروبا، ص ١١٢ ـ ١١٦.

- Allen: The Poet and the Spae - Wife. An attempt to reconstrnet.

Al - Ghazal's embassyt's the Vikings London 1960. pp.43 - 47.

جـ ـ السفارات الأموية إلى الدولة البيزنطية في عصر الخلافة في الأندلس:

بلغت الدولة الأموية في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣١٦ - ٣٥٠ هـ/٩١٢ - ٦٦١ م) شأوا بعيداً من الحضارة والازدهار، وأصبحت مهيبة الجانب عزيزة السلطان وطبقت شهرتها الآفاق فإذا وفود الدول المعاصرة لها تتقاطر عليها من كل حدب وصوب، يقول ابن حيان المتوفى سنة أربع مائة وتسع وستين: «إن ملك الناصر بالأندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن، وهادتة الروم، وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والأفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة وانصرفت عنه راضية»[1].

وهكذا فقد تعددت وفود بعض دول العالم آنذاك إلى بلاط الخليفة عبد الرحمن الناصر في النصف الأول من القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي) من مختلف الجهات، سواء كانت تلك الدول مجاورة للأندلس أم بعيدة عنها، وربما تصادف وجود أكثر من وفد في بلاطه، وعلى رأس هذه الوفود سفراء الدولة البيزنطية الذين بعثهم الامبراطور قسطنطين السابع إلى الدولة الأموية في عهد خليفتها الأول عبد الرحمن الناصر.

واختلفت المصادر الإسلامية في تحديد تاريخ هذه السفارة على وجه الدقة فعلى حين يذكر ابن جلجل المتوفى في أواخر القرن الرابع الهجري

(١) المقري: نفح الطيب، جـ ١ ص ٣٦٦.

أنها كانت في سنة ثلاث مائة وسبع وثلاثين[1] (٩٤٨ م)، يذكر ابن حيان المتوفى سنة أربع مائة وتسع وستين أنها كانت في شهر صفر سنة ثلاث مائة وثمان وثلاثين[2] (٩٤٩ م) ويذكر ابن عذارى المتوفى سنة ست مائة وخمس وتسعين أنها كانت في سنة ثلاث مائة وثمان وثلاثين[3]، ويرى ابن خلدون أنها كانت في سنة ثلاث مائة وست وثلاثين[4] (٩٤٧ م).

والاختلاف في وفود هذه السفارة على الخليفة الناصر لا يتجاوز التفاوت بين السنة والسنتين وهو في واقعه لا يغير مجرى أحداثها أو مغزاها، فلما ترامت أنباء وصول السفارة البيزنطية إلى أراضي الدولة الأموية أوعز الخليفة الناصر إلى أحد رجال دولته وهو يحيى بن محمد بن الليث بتلقيهم عند نزولهم في مدينة بجاية على الشاطىء الأندلسي الشرقي وأن يرافقهم في الطريق إلى قرطبة ويذلل لهم أسبابه[5].

كما أمر بأن يبالغ في حسن استقبالهم وإكرامهم وأن تظهر لهم عظمة الدولة وفخامتها، فلما كانوا على مشارف قرطبة تلقتهم كتائب الجيش في صفوف طويلة على رأس كل كتيبة قائدها في أحسن عدة وعتاد[6]. وقد كان ذلك اظهاراً للعزة السياسية والمكنة العسكرية في الدولة.

---

(١) ابن جلجل: كتاب تفسير أسماء الأدوية من كتاب ديسقوريدس ـ صفحات منه ـ نقلاً عن ابن أبي أصيبه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت ١٩٦٥ م، ص ٤٩٤.

(٢) المقتبس نقلاً عن المقري: نفح الطيب، جـ ١ ص ٣٦٦.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ ٢ ص ٢١٥ وله رواية أخرى قريبة من هذا النص جـ ٢ ص ٢١٣ أنها كانت سنة ثلاث مائة وأربع وثلاثين هـ وينفرد بهذا التاريخ.

(٤) ابن خلدون: العبر، جـ ٤ ص ٣٠٩.

(٥) المقري: نفح الطيب، جـ ١ ص ٣٦٦.

(٦) ابن حيان: المقتبس نقلاً عن المقري: نفح الطيب، جـ ١ ص ٣٦٦، ابن خلدون: العبر جـ ٤ ص ٣٠٩.

وقد خصص الخليفة للسفراء قصر ولي العهد الحَكَم لضيافتهم مبالغة في الاحتفاء بهم، ورتب لهم الحجاب والحشم الذين اختيروا بعناية للاشراف على خدمتهم ليلاقوا من حسن الخدمة ما يليق بكرم الدولة المضيفة. وازدان قصر الخلافة في قرطبة بأبهى أنواع الزينة وأصناف الستائر والدلايات الجميلة، وفرش صحنه بأنفس البسط وأفخمها، وأحاطت به الكتائب العسكرية في حلة قشيبة لاظهار عظمة الدولة وقوتها.

فلما تمت ترتيبات مظاهر الاستقبال بالصورة اللائقة التي لا تختلف عن الصور المشاهدة في العصر الحديث في مثل هذه المناسبات، وحل يوم السبت الحادي والعشرون من ربيع الأول سنة ثلاث مائة وثمان وثلاثين (أوائل سبتمبر ٩٤٧ م)، وهو اليوم المعد لاستقبال السفارة البيزنطية، كان يوماً مشهوداً في تاريخ قرطبة جلس فيه الخليفة عبد الرحمن الناصر في قاعة الاستقبال الكبرى المسماة ببهو المجلس الزاهر وجلس عن يمينه وشماله أبناؤه وكبار رجال الدولة، وحضر الوزراء والحجاب والموالي والوجهاء، وفي وسط روعة الاستقبال وفخامته دلف رسل امبراطور الروم، فدهشوا من روعة المقام وفخامة السلطان وهالهم ما رأوا من جمال الأبهة وحسن الترتيب وبهاء الرونق، ثم سلموا رسالة امبراطورهم الرسمية للخليفة، وجاء في عنوان الرسالة «من قسطنطين ورومانس المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم» إلى «العظيم الاستحقاق المفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس أطال بقاءه»[1].

وكانت الرسالة مكتوبة في رق مصبوغ بلون سماوي، ومكتوبة بالخط الأغريقي (اليوناني) المذهب، وداخلها رقعة أخرى مكتوبة بالفضة فيها وصف للهدية التي حملها السفراء معهم للخليفة، وختم كتاب الأمبراطور بطابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل على أحد وجهيه صورة المسيح عليه السلام،

---

(١) ابن حيان: المقتبس نقلاً عن المقري: نفح الطيب، جـ ١ ص ٣٦٨.

وعلى الآخر صورة الأمبراطور قسطنطين السابع وشريكه رومانوس الثاني[1].

وقد وصف ابن جلجل الذي كان عائشاً في ذلك الوقت هدية الأمبراطور للخليفة بقوله: «وهاداه بهدايا لها قدر عظيم فكان في جملة هديته كتاب دسقوريدس[2] مصور الحشائش بالتصوير الرومي العجيب. وكان الكتاب مكتوباً بالأغريقي الذي هو اليوناني وبعث معه كتاب هروسيس[3] صاحب القصص وهو تاريخ للروم عجيب، فيه أخبار الدهور

---

(١) ابن حيان نقلاً عن المقري: نفح الطيب، جـ ١ ص ٣٦٦، ابن الخطيب كتاب أعمال الأعلام، ص ٣١٧، ابن خلدون: العبر، جـ ٤ ص ٣٠٩.

(٢) يعتبر كتاب الهيولى في الطب DeMateriamedica لدسقوريدس Discorides الذي عاش في القرن الأول الميلادي من أهم كتب اليونان في الأدوية وتركيبها وفوائدها الطبية موضحاً بشروح وافية وصور للحشائش واستخدامها. وقد عرف هذا الكتاب في بغداد وترجم إلى العربية على يد اصطفن بن باسيل الترجمان وصحح هذه الترجمة حنين بن إسحاق إلا أن ترجمته ظلت غير وافية وبقيت بعض مصطلحاته مستحكمة، واهتم بهذا الكتاب أهل الصفة من الأطباء والصيادنة المسلمين ومن أوائل من درسه وألف في مجاله في الأندلس الطبيب ابن جلجل الذي أدرك نيقولا الذي بعث به الأمبراطور رومانوس الثاني إلى عبد الرحمن الناصر ليترجم له هذا الكتاب، ثم توالت المصنفات عربية التي ألفت في المشرق والمغرب. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٤٩٣، انظر أيضاً: ابن جلجل: طبقات الأطباء. القاهرة، ١٩٥٥ م، ص ٢١، وحاشية رقم ٧ ص ٢٢؛ الغمراوي: الأصول المعجمية، القاهرة ١٩٧٩، ص ٥١.

(٣) هروسيس Orasius قس إسباني عاش بين القرنين الرابع والخامس الميلاديين وألف سبعة كتب في الرد على الوثنيين:

- Histariarum Adversus paganus libriseptem.

بين سنتي ٤١٧ - ٤١٨ م، وهو أحد تلامذة (القديس) أوغسطين Augustinus الذي كلفه بتأليف هذا الكتاب. الغمراوي: الأصول المعجمية، ص ٥١ هامش ب - ج.

وإذا كان كتاب دسقوريدس من كتب التراث اليوناني الهامة في مجال الطب والمداواة فما الذي دعا الأمبراطور رومانوس إلى إهداء كتاب هروسيس في الرد على الوثنيين بالذات دون كتب التراث الروماني الأخرى اللهم إلا إذا كان لدى الأمبراطور دافع وراء ذلك. ويرى أستاذنا الدكتور علي الغمراوي أنه من المحتمل أن يكون ذلك تعبيراً عن اتهام الأمبراطور للمسلمين بالوثنية من وجهة نظره وأراد أن =

ومصص الملوك الأول وفوائده عظيمة. وكتب أرمانيوس في كتابه إلى الناصر أن كتاب دسقوريدس لا تجتنى فائدته إلا برجل يحسن العبارة باللسان اليوناني ويعرف أشخاص تلك الأدوية، فإن كان في بلدك من يحسن ذلك فزت أيها الملك بفائدة الكتاب. وأما كتاب هورسيس فعندك في بلدك من اللطينيين من يقرأه باللسان اللطيني، وأن كشفتهم عنه نقلوه لك من اللطيني إلى اللسان العربي.

ولم يكن يومئذ بقرطبة من نصارى الأندلس من يقرأ اللسان الأغريقي الذي هو اليوناني القديم فبقي كتاب ديسقوريدس في خزانة عبد الرحمن الناصر باللسان الأغريقي ولم يترجم إلى اللسان العربي وبقي الكتاب بالأندلس، والذي بين أيدي الناس بترجمة أسطفن الواردة من مدينة السلام ببغداد. فلما جاوب الناصر أرمانيوس الملك سأله أن يبعث إليه برجل يتكلم بالأغريقي واللطيني ليعلم له عبيداً يكونون مترجمين، فبعث أرمانيوس الملك إلى الناصر براهب كان يسمى نقولا فوصل إلى قرطبة سنة أربعين وثلاث مائة، وكان يومئذ بقرطبة من الأطباء قوم لهم بحث وتفتيش وحرص على استخراج ما جهل من أسماء عقاقير كتاب دسقوريدس إلى العربية»[1].

ويذكر ابن جلجل هنا أن هذه الهدية بعث بها الأمبراطور رومانوس، وهذا يخالف ما ورد في المصادر الأندلسية السابقة كابن حيان وابن عذارى وابن خلدون ولسان الدين ابن الخطيب من أن هذه الهدية بعثت للخليفة الناصر باسم الأمبراطور قسطنطين وولده، أي قسطنطين السابع وولده رومانوس الثاني، ولم يعتل الابن العرش إلا بعد وفاة أبيه في سنة ثلاث

= يضمّن هديته تهجمه على المسلمين في صيغة دبلوماسية، ونرى أن هذا الرأي لا يبعد عن الحقيقة.

(١) ابن جلجل نقلاً عن ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٤٩٤.

مائة وثمان وأربعين[1] (٩٥٩م) أي بعد التاريخ الذي حدده ابن جلجل نفسه لوصول الهدية بأحد عشر عاماً.

أما الأمبراطور رومانوس الأول فكان قد توفي قبل ارسالها بأربعة أعوام، وقد يكون حدث لبس عند ابن جلجل بين رومانوس الأول الأمبراطور ورومانوس الثاني ابن قسطنطين السابع الذي كان والده هو الأمبراطور الفعلي في بيزنطة في ذلك الوقت.

على أية حال تعد هدية الأمبراطور إلى الخليفة قيّمة بحق لقيمة كتاب دسقوريدس الطبية وأهميته في مجاله، ولما تدل عليه من اهتمام الأمبراطور بالمعرفة واطلاعه على أمهات الكتب في فروعها، ثم لتقديره للخليفة وادراك مدى افادته منه وشغفه بمثل هذه الكتب.

وكان الاستقبال الذي أعدته قرطبة لاستقبال سفراء القسطنطينية رائعاً ويحكي بوضوح الصورة التي كانت الدولة الأموية تستقبل بها السفراء الوافدين من مختلف الدول والأقطار، وهي صورة مشرفة حقيقة تحاكي في روعتها وجلالها مظاهر الاستقبال في بغداد والقاهرة عندما يقدم إليها السفراء البيزنطيون وغيرهم.

وكان مقرراً في هذا الاحتفال أن يقوم الخطباء والشعراء بين يدي الخليفة ويلقوا خطبهم وشعرهم بهذه المناسبة، ويزيدوا برونق المقال في بهجة الاحتفال، ويوضحوا الحال الذي عليه الدولة والعهد المزدهر الذي تعيشه ويبينوا قوة ركنها وعظم هيبتها.

---

(١) توفي الأمبراطور قسطنطين السابع في هذه السنة بعد أن مكث في الحكم ثمانية وأربعين عاماً منها سبع سنوات تحت وصاية أمه زوى ومنها ست وعشرون سنة بالاشتراك مع حميه رومانوس الأول وانفرد بالحكم طيلة الخمسة عشرة سنة الأخيرة، وعند وفاته اعتلى ابنه رومانوس الثاني العرش بعده.
يحيى بن سعيد الأنطاكي: التاريخ، ص ٨٠.

وكان ترتيب الحفل الذي كان يشرف عليه ابن الخليفة وولي عهده الحكم تأكيداً على أهمية هذه المناسبة ومبالغة في الاحتفال بها أن يخطب فيه الفقيه محمد بن عبد البر[1]، غير أنه من هول المقام وعظمته ارتج عليه وسقط على الأرض مغشياً عليه، فأوعزوا إلى أبي علي القالي[2] أن يخطب بدلاً منه لينقذ الموقف فارتج عليه أيضاً ولم يستطع[3]، فنهض منذر بن سعيد البلوطي[4] وخطب وأثنى على الخليفة، وذكر اجتماع شعبه عليه وتعلقه به، وأشار إلى الرخاء والاستقرار الذي تعيشه الأندلس في عهده

---

(١) محمد بن عبد البر: عمل بديوان القضاء بقرطبة وعرف بالعلم والزهد، وكانت له وجاهة عند الخاصة والعامة في قرطبة توفي بالشام حوالي عام ٣٤١ هـ أثناء إحدى رحلاته إلى المشرق. انظر: ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، القاهرة ١٩٥٤، ص ٦٠ - ٦١.

(٢) أبو علي القالي: هو أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي اللغوي نسبة إلى قرية قالى قلا في ديار بكر، كان أحفظ أهل زمانه للغة والشعر، درس في بغداد وأقام فيها مدة ثم رحل إلى الأندلس ونزل قرطبة سنة ثلاث مائة وثلاثين واستوطنها حتى توفي سنة ثلاث مائة وست وخمسين، وله عدد من المؤلفات في النحو والأدب منها كتاب الأمالي وكتاب البارع.
ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ١ ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٦٦ - ٦٧؛ ابن خلدون: العبر، جـ ٤ ص ٣٠٩.

(٤) منذر بن سعيد البلوطي هو أحد فقهاء قرطبة واشتهر أمره بعد موقفه أعلاه وقرّبه الخليفة فولاه قضاء قرطبة عام ٣٣٩ هـ، واستمر في هذا المنصب حتى وفاته سنة ٣٥٥ هـ، كان جهوراً بالحق صريحاً فيه، وكان متفنناً في ضروب العلم وله عدد من المؤلفات في الفقه وغيره، وكان يقرض الشعر ومن شعره يصف ما وقع له في هذا الاحتفال:

مقال كحد السيف وسط المحافل ... فرقت به ما بين حق وباطل
ترى الناس أفواجاً يؤمون بابه ... وكلهم ما بين راجٍ وآمل
وفود ملوك الروم وسط فنائه ... مخافة بأس أو رجاء لنائل

انظر: أبو الحسن النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٦٦ - ٧٥.
المقري: نفح الطيب، جـ ١ ص ٣٧٢ - ٣٧٥.

وحرصه على مباشرة أمور الدولة بنفسه ومتابعته لها، ونوّه بأهمية الاجتماع والوحدة وبسوء عاقبة الشقاق والفرقة حتى قال: «وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم، وآمال الأقصين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم، يأتون من كل فج عميق وبلد سحيق لأخذ حبل منه ومنكم جملة وتفصيلاً ليقضي الله أمراً كان مفعولاً». ثم أكد على أهمية الاجتماع والتضامن بين الخليفة وشعبه كما أكد على أن في ذلك كل القوة والنصر على الاعداء المحدقين بالدولة المتربصين بها[1]، وكان لا بد أن يذكر البلوطي كل تلك الأمور ليعرّف سفراء الدولة البيزنطية ووفود الممالك النصرانية الأخرى الذي حضروا هذا الاحتفال مصادفة ما تتفيأه الدولة الأموية في هذا الوقت من أمن واستقرار مشهودين وقوة وعزة متمكنتين، ورقي وازدهار يانعين. وقد وصف المقري هذه الخطبة بأنها بليغة ناسبت المقام وأخذت بلباب الحضور وأعجبت كل من سمعها، وعلى رأسهم الخليفة والسفير البيزنطي الذي وصف الخطيب نفسه بأنه شيخ القوم بحق[2].

ولا تزودنا المصادر بعدد أفراد هذه السفارة أو أسمائهم كما لا نعرف أهدافاً محددة لها ـ وسوف تأتي دراسة ذلك فيما بعد ـ إلا أن الخليفة الناصر رد على هذه السفارة البيزنطية وبعث عند مغادرتها قرطبة رسولاً بهدية حافلة ليؤكد المودة ويحسن الإجابة ورجع بعد سنتين وقد أحكم من ذلك ما شاء وجاءت معه رسل قسطنطين[3]. ويضيف ابن خلدون أن هذا السفير ذهب ليجدد الهدنة ويكد المودة ويحسن الإجابة[4]، وقد ورد اسمه في طبعة المقري هشام بن هذيل وفي طبعة ابن خلدون هشام بن كليب،

---

(١) أبو الحسن النباهي: المصدر السابق؛ المقري: نفح الطيب، جـ ١ ص ٣٦٨ - ٣٧٠.

(٢) المصدر السابق، جـ ١ ص ٣٧٢.

(٣) المقري: نفح الطيب، جـ ١ ص ٣٦٥.

(٤) ابن خلدون: العبر، جـ ٤ ص ٣١٠.

وكلاهما غير معروف وظيفته في الدولة أو تفاصيل أخرى من حياته في المصادر المتاحة لنا.

أما بالنسبة لمهمة مبعوث الامبراطور البيزنطي فسوف تأتي مناقشتها في دراسة أهداف السفارات الأموية. أما الإشارة في هذه الرواية إلى مجيء رسل بيزنطيين بعد مغادرة سلفهم بسنتين مرافقين للمبعوث الأموي في عودته فإن ذلك لم تشر إليه المصادر الأخرى، ولا يعتقد بأن الأمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع قد بالغ في صلاته بالخليفة الأموي الناصر إلى الحد الذي جعله يبعث رسلاً له بين الفينة والأخرى. وليس معروفاً - إلى الآن - أمر بينهما يدعو إلى ذلك ويمكن تفسير مجيء مبعوثين بيزنطيين آخرين بأن الخليفة الناصر طلب من مبعوثه للامبراطور أن يبلغه رغبته في مترجم لكتاب دسقوريدس السابق الذكر الذي أهداه إياه الامبراطور يقول ابن جلجل المتوفى في أواخر القرن الرابع الهجري: «فلما جاوب الناصر أرمانيوس[1] الملك سأله أن يبعث إليه برجل يتكلم بالأغريقي واللطيني ليعلم له عبيداً يكونون مترجمين فبعث أرمانيوس الملك إلى الناصر براهب كان يسمى نفولا، فوصل إلى قرطبة سنة أربعين وثلاث مائة»[2].

والتاريخ الذي ذكره ابن جلجل لوصول المترجم إلى قرطبة يتفق مع مضي سنتين على مغادرة السفارة البيزنطية لقرطبة لاسيما إذا رجحنا أن تلك السفارة كانت في أواخر سنة ثلاث مائة وسبع وثلاثين أو سنة ثلاث مائة وثمان وثلاثين ومن المحتمل أن بعض المؤرخين عد وصول المترجم البيزنطي إلى قرطبة رسولاً من قبل الامبراطور. ثم أن مجيء المترجم في صحبة مبعوث الخليفة أثناء عودته ربما أوهم بأنه رسول بيزنطي آخر.

---

(١) انظر البحث، ص ١٥٨ - ١٥٩ وحاشية رقم ١.

(٢) ابن جلجل: تفسير أسماء الأدوية المفردة نقلاً عن ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٤٩٤.

د ـ أهداف السفارات الأموية في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر:

على الرغم من الوصف الدقيق الذي أوردته المصادر لرسالة الامبراطور قسطنطين السابع التي حملتها سفارته للخليفة عبد الرحمن الناصر من لونها ونوع خطها والختم المختومة به وتوقيعها، إلا أنها لا تذكر مضمونها والمواضيع التي تناولتها إن وجدت، وكذلك رسالة الخليفة في الرد عليها أو حتى مقتبسات منهما في المصادر التاريخية المتأخرة التي وصلتنا حتى يمكن استقراؤهما وتفسيرهما على وجه صحيح. وبالتالي فإن ما سوف يقال هنا فهو رأي يُستلهم من مجريات الأحداث والظروف التي تمت فيها هذه السفارات، مُن غير تحميل للنصوص ما لا تتضمنه أو يفهم منها، لكنه مجرد استنتاج قد يحالفه التوفيق وقد يخالفه. فقد عاشت الدولة الأموية في عهد حاكمها عبد الرحمن الناصر ـ أميراً وخليفة طيلة خمسين عاماً ـ مرحلة تألق وازدهار في شتى مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية، وبلغت من الحضارة والعمران شأواً بعيداً لم تبلغه من قبل ومن بعد، حتى بزت عاصمتها قرطبة منافستيها بغداد والقسطنطينية طيلة هذا العهد على الأقل[1]. وغدت قبلة الغرب ومنتداه في ازدهارها ومجدها، يؤمها العلماء من كل صوب، ويخطب ود خليفتها الملوك والأباطرة فأخذت وفودهم تتقاطر عليها من كل ناحية فهذا أوتو الأول Otto I (٣٢٥ ـ ٣٦٣ هـ/٩٣٦ ـ ٩٧٣ م)ملك ألمانيا يبعث بسفرائه إلى قرطبة في سنة ثلاث مائة واثنين

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢ س ٢١٨، المقري: نفح الطيب، جـ١ ص ٣٦٥؛ انظر أيضاً الحجي: أندلسيات، ص ٤٦.

وأربعين، وهذه ممالك الشمال الأندلسي النصرانية مثل قشتاله[١] وليون[٢] تبعث وفودها إلى بلاد عبد الرحمن الناصر أكثر من مرة[٣].

ويندرج في هذا المجال مقدم السفارة البيزنطية السابقة في هذا الوقت، حيث جاءت تشهد مظاهر هذا العهد المشرق في عاصمته الزاهرة وترى حاله ومآله، وتؤكد روابط الصداقة والمجاملة بينها وبينه، وهو تقليد مجاملة جرت به العادة بين الدول في تلك العصور كثيراً، دون ضرورة لتحديد أهداف جادة لكل هذه السفارات، لا سيما أن البيزنطيين ربطتهم سفارات وصلات طيبة منذ عهد عبد الرحمن الأوسط، بل إنه تمت المهادة بين الجانبين من قبل في عهد الناصر عندما أسهم الامبراطور البيزنطي قسطنطين السابع في بناء مدينة الزهراء سنة **٣٢٥ هـ (٩٣٦ م)** بإرسال مائة وأربعين سارية من الرخام على سبيل الاهداء[٤]، وهي المدينة الخلافية التي أصبحت مقراً للبلاط الأموي ومركز دواوينه، والتي استقبلت الوفود السياسية فيما بعد.

وعلى الرغم من ذلك يضيف ابن خلدون مقصداً آخر للسفير الأموي الذي ذهب برفقة السفارة البيزنطية عند عودتها فيقول: «إنه ذهب ليجدد

---

(١) قشتالة: مملكة قامت بين مملكتي ليون ونيباره في القسم الشمالي الغربي من شبه الجزيرة الإيبرية، وكانت تخضع في أوائل عهدها إلى مملكة ليون، ثم استقلت عنها على يد ملكها فران غونراليز في منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). الحجي: أندلسيات، ص ٥١.

(٢) ليون مملكة نصرانية عرفت باسم عاصمتها مدينة ليون، وأول من اتخذ ليون عاصمة لهذه الدولة فرسية بن الفونسو الثالث (**٢٩٧ - ٣٠١ هـ/٩٠٩ - ٩١٣ م**)، وقد عاصرت الدولة الأموية ثم أخذت بعد ذلك تتوسع على حساب المسلمين؛ الحجي: أندلسيات، ص ٤٦ - ٤٨.

(٣) ابن حيان: المقتبس نقلاً عن المقري: نفح الطيب، جـ١ ص ٣٦٦.

- O'Callagban: A History of Spain. p 120.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢ ص ٢٣١.

الهدنة ويؤكد المودة ويحسن الإجابة»[١]، وتأتي الرواية نفسها عند المقري مع حذف صدرها مع أهميته، ومع أنه من الممكن أن يقال أن اختلاف الروايات في حادثة ما قد يشكك في واقع حدوثها ومؤداها إلا أنه من الأوفق من ناحية أخرى دراسة العلاقات الحربية بين الدولتين في هذه الأثناء بشيء من الإيجاز لنرى مدى حاجتهما إلى هدنة من عدمها.

إن الدارس لأكثر المصادر الأندلسية في فترة قيام الاتصال بين الخليفة والامبراطور يجد أنها لم تذكر أي احتكاك بحري بين الجانبين طيلة السنوات العشر السابقة لاتصالهما الدبلوماسي على الأقل حتى يمكن أن تصلح السياسة ما أفسدته الحرب خلالها، ويكون ذلك الاصلاح والبلسم هو عقد الهدنة بين الدولتين الذي ذكره ابن خلدون. وسوف يكون ذلك مقبولاً عندما يتم العثور على حوادث سياسية تكون مبرراً لقيام الهدنة، وفي حالة عدمها تصبح حاجة الطرفين غير مواتية لعقدها وتصبح الرواية التاريخية السابقة إبهاماً ولبساً لا طائل من ورائه.

ومن ناحية ثانية فقد فسر الفاطميون أعداء الأمويين أن الاتصال بين البيزنطيين والأمويين كان على حسابهم، واتهموا الخليفة الناصر بمحالفة البيزنطيين وموالاتهم ضدهم، وقد ذكروا ذلك صراحة لمبعوث الناصر إليهم الذي جاء يطلب الصلح بين الدولتين الإسلاميتين، فأبى الفاطميون ذلك لاتهامهم صاحبه بموالاة الكفار ومؤازرتهم ضدهم[٢].

ولا يعرف أن سفارات تبودلت بين الأمويين والبيزنطيين لهذا الغرض في الفترة التي احتدم الصراع والتنافس خلالها بين الفاطميين والأمويين في الفترة من سنة ثلاث مائة وأربع وأربعين إلى سنة ثلاث مائة وثمان

---

(١) ابن خلدون: العبر، جـ ٤ ص ٣١٠.

(٢) القاضي النعمان: كتاب المجالس والمسايرات، تونس ١٩٧٨ م، ص ١١٥ و ١٦٧ و ١٦٩.

وأربعين[١]، والمعروف أن الاتصال السابق بين البيزنطيين والأمويين كان قد مضى عليه في هذه الأثناء ست سنوات على الأقل، ومن المستبعد أن يكون اتخذ فيها موقف ضد الفاطميين ولم ينفذ حتى هذا الوقت، وعموماً سوف ترد دراسة في هذا الموضوع أكثر تفصيلاً في الفصل الخامس بإذن الله.

وبحكم أنه لا يوجد اجراء محدد تم بين الخليفة والأمبراطور في ضوء المصادر المعروفة لنا إلى الآن فإنه يمكن قصر أهداف هذه السفارات في هذا العهد على تأكيد علاقة الصداقة والاحترام المتبادل ومعرفة كل جانب لأحوال بلاط الجانب الآخر، فضلاً عن تبادل نفائس الهدايا ونوادر الكتب وأهمها، وهي أمور درجت بين بلاطات الملوك في تلك العصور، ومنحى له ما يبرره ويدعمه من المصادر السابقة نفسها. بل إن بعض الباحثين يقصر أهداف هذه السفارات على المجالات الثقافية أولاً في ظل ما عرف عن الأمبراطور قسطنطين السابع من شغف بالعلم والتاريخ وفنون التصوير والنحت كان له أثر بارز في تنشيط الحياة العلمية في الدولة البيزنطية، وقد قضى هذا الأمبراطور نحو ربع قرن من حياته بين كتبه وأبحاثه قبل أن ينفرد بعرش الأمبراطورية[٢]، ثم إن شهرة قرطبة العلمية طبقت الآفاق وازدهرت فيها الحياة العلمية ازدهاراً لامعاً، وأولى أمراؤها وخلفاؤها الأمويون رعاية فائقة للعلم وطلابه، وقد وصفتها الشاعرة الألمانية روزفيتا Hrosvitha في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بأنها كانت «جوهرة العالم»[٣].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) رستم: الروم، جـ ١ ص ٢٨.

(٣) نقلاً عن الحجي: أندلسيات، ص ٤٦ هامش (١).

O'Callaban: A History of Spain p 116.

وهو أمر يُعنى الأمبراطور به ويقدسه، ويهمه أن تقوم بين الدولتين ـ والحال هذه ـ روابط ثقافية، ولهذا أرسل سفارته إلى قرطبة لتحقيق هذه الـرغبة وتوثيقها[١].

(١) بيضون: الدولة العربية في إسبانيا، ط ٢، بيروت ١٩٨٠ م، ص ٣٢٠.

هـ ـ السفارات الأموية إلى الدولة البيزنطية في أواخر العهد الأموي:

في الحقيقة لا توجد سفارات ذات أهمية بين الأمويين والبيزنطيين أواخر العهد الأموي، فقد انتهى عصر الإزدهار الأموي في الأندلس وبدأ عصر الضعف والانحطاط حتى السقوط، وترد اشارات طفيفة لاتصالات أموية بيزنطية تمت في هذا العهد في مجالات سياسية وعمرانية.

ومعروف أن الخليفة الحكم بن عبد الرحمن الناصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ/ ٩٦١ - ٩٧٦ م) شيد الجامع الكبير في العاصمة قرطبة وبالغ في تجميله وتزويقه وجلب له المؤن من مختلف الأصقاع، فبعث إلى الدولة البيزنطية بغية الحصول على بعض أدوات البناء، والزخرفة من هناك، وخاطب الامبراطور البيزنطي بذلك فأهدى له ثلاث مائة وعشرين قنطاراً من الفسيفساء وبعثها مع أحد الحاذقين في تركيبها، فأنزلت بالجامع سنة ثلاث مائة وأربع وخمسين (٩٦٥ م)، ورتب الحكم جملة من مماليكه لتعلم تركيبها من معلمها البيزنطي فأربوا عليه فاستغنى عنه بعد قليل، ومن ثم صدر راجعاً إلى بلده بعد أن أجزل له الخليفة العطاء والهبات[1]. ويظهر أن الامبراطور البيزنطي الذي خاطبه الخليفة الحكم هو نقفور فوقاس. بعد ذلك وصلت الحكم رسالة ودية أخرى من الأمبراطور حنا زيمسكس (ابن الشمشقيق) لسبع بقين من جمادى الأولى سنة ثلاث مائة وواحد وستين (٩٧١ م)، وقد سلمها له مبعوث الأمبراطور ويسمى قسطنطين الملقي[2]،

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ ٢ ص ٢٣٧ - ٢٣٨.
(٢) ربما يكون هذا السفير من أصل أندلسي ينتسب إلى مدينة ملقة الأندلسية واختاره الأمبراطور ليكون أدرى بالاتصال مع حكومة الأندلس.

فأكرم وفادته وخصص قصراً يسمى منية البنتي لنزوله[1] ولا يعرف الغرض الذي جاء من أجله السفير البيزنطي وفحوى هذه الرسالة التي حملها، غير أن من الممكن أن تكون رسالة ودية بين الخليفة والأمبراطور[2].

ومضت قرابة خمس وثلاثين سنة أخرى قبل أن يستأنف الاتصال الأموي البيزنطي من جديد، ففي سنة ثلاث مائة وست وتسعين (١٠٠٥ م) قدم أحد رسل الأمبراطور باسيل الثاني والتقى بالحاجب عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر القائم على حجابة الخليفة هشام الثاني ابن الحكم (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ/٩٧٦ - ١٠٠٩ م) وحجبه والمتصرف في شؤون الدولة.

سلم المبعوث البيزنطي كتاب امبراطوره المكتوب بالذهب إلى الحاجب عبد الملك «يسأله المواصلة على سبيل سلفه مع ملوك المروانية (الأمويين) وساق له هدية وعدة من أسارى الأندلس»[3].

وعبارة «المواصلة على سبيل سلفه» هي الصيغة التي درج البيزنطيون على استخدامها مع الحكام المسلمين سواء كانوا عباسيين أم فاطميين أم أمويين كما مر، ورأينا أكثر من مرة أنهم يحرصون في رسائلهم على تأكيد المواصلة والصداقة، ويذكّرون من يخاطبونه بامتداد تلك العلائق إلى الأسلاف والأجداد وسيلة لتحقيق مطالبهم وأنها لها رصيد تاريخي سالف وليست بالأمر الجديد كما يرون.

---

(١) ابن حيان: المقتبس. تحقيق عبد الرحمن الحجي. بيروت، ١٩٦٥ م، ص ٧١ - ٧٢.

(٢) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ط ٤، القاهرة ١٩٦٩، جـ ٢ ص ٤٩١.

(٣) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، قسم ٤ مجلد ١ ص ٨٦، وقال أحد الشعراء مادحاً عبد الملك بن المنصور بهذه المناسبة:

زلزلت بالمراهفات صاحب قسطنطين حتى اتاك بالكتب

يطلب فيها رضاك مجتهداً ... من قبل أن يتقيك بالهرب

فليس بالفائت البعيد مع الله ... إذا ما هممت بالطلب

وليس البلدان متجاورين أو في علاقاتهما ما يدعو الأمبراطور أن يتقي الحاجب عبد الملك، ولكنها مبالغة شاعر.

وهـذا الأسلوب حتى وإن ورد في طلب اتصـال عـرى الصـداقـة والمجاملة بين الدولتين فهو ينم عن حذق دبلوماسي ومن في الوصول إلى الغاية المبتغاة، ولا يزال الأسلوب نفسه مستعملاً في كثير من الأحيان في مراسلات بعض الدول في العصر الحاضر.

وقد تم هذا اللقاء في مدينة سالم[1] عندما كان الحاجب عبد الملك عائداً من إحدى غزواته في الشمال، حيث كان متصرفاً في شؤون الدولة بعد أن قلده الخليفة إياها بعد وفاة والده المنصور، أما هشام نفسه فقد كان قابعاً في قرطبة لاهياً لاغياً بين ملذاته بل موبقاته على الأصح، حتى أن المبعوث البيزنطي لم يقابله في قرطبة كما يظهر وذلك غير مستبعد في ظل تلك الظروف والأحوال.

وهكذا انقطع اتصال السفارات بين الدولتين، ولم يعد ذلك ممكناً فإن الدولـة الأمويـة ضعفت واستولى عليهـا الحجاب، وتـوارى خلفاؤهـا المتأخرون خلف الحجاب، واستبد بهم الـطامعون، ثم عصفت بـالدولـة الفتن وسقط الصرح الأموي العـظيم في سنة أربـع مائـة واثنين وعشرين (١٠٣١ م) وقامت على أنقاضه دول ودويلات تتفق حيناً وتتصارع أحياناً، وما أشبه الليلة بالبارحة!.

---

(١) مدينة سالم Medinaceli تقع في الشمال الشرقي من مدينة مجريط على نهر شلون بالقرب من قلعة أيوب. انظر ابن الدلائي: نصوص عن الأندلس ـ مدريد ١٩٦٥ م، ص ٢٢ و ١٥٠.

الفصل الخامس

سفارات الدولة الفاطمية إلى الدولة البيزنطية

١ ـ سفارات الدولة الفاطمية في المغرب.

٢ ـ سفارات الدولة الفاطمية في مصر إلى الدولة البيزنطية.

أ ـ السَفارات الفاطميَة في عهد الخليفة المعز في مصر.

ب ـ السفارات الفَاطمية في عهد الخليفة العزيز بالله.

ح ـ السفارات في عهد الحاكم بأمر الله.

د ـ السفارات في عهد الخليفة الظاهر بالله.

هـ ـ السفارات في عهد الخليفة المستنصر بالله.

و ـ السفَارات في عهُود بقية الخلَفاء الفَاطميين.

١ ـ سفارات الدولة الفاطمية في المغرب:

قامت الدولة الفاطمية أول ما قامت في أفريقية كما هو معروف، وبعد أن أصبحت ولاية أفريقية فاطمية على أثر استيلاء الفاطميين عليها من أمرائها الأغالبة ولاة العباسيين، تبع ذلك خضوع جزيرة صقلية وتبعتها لهم، كما انشغل الأمويون في الأندلس بأمورهم الداخلية، وهكذا أصبح الفاطميون مصاقبين لحدود الدولة البيزنطية عبر بحر الروم، وأقليم قلورية في جنوبي أيطاليا، بغية تحقيق أهداف سياسية تمثلت في طموح الفاطميين في إنشاء قوة بحرية تكون قاعدتها جزيرة صقلية تصد غارات البيزنطيين ضد سواحل أفريقية، وتحقق أطماعهم في مصر والشام فيما بعد، وأهداف اقتصادية تتمثل في أن من يسيطر على جزيرة صقلية يتحكم في كثير من طرق تجارة البحر المتوسط الهامة، فضلاً عن الاستيلاء على موارد صقلية الغنية بزراعتها ومعادنها[١].

ثم تبع ذلك نشوء علاقات حربية بين الدولتين تخللتها فترات قصيرة من الاتصال السلمي بينهما، لكن يجب أن نضع في الاعتبار أن هذا كان محدوداً يختلف في وضوحه وأهميته عن ما تم بينهما من سفارات واتصالات أخرى عندما استقر الفاطميون في مصر كما سنعرف فيما بعد.

ويعود ذلك الاتصال المحدود إلى عدة أسباب أهمها هو أن الدولة الفاطمية مازالت في مرحلة النشوء والاستقرار، وتثبيت دعائم نفوذ الفاطميين في أقاليم حديثة عهد بالولاء العباسي المعادي لهم، ثم بعد الشقة بينهم

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ط ٣، القاهرة ١٩٦٤م، ص ٩٩-١٠٠.

وبين البيزنطيين لا سيما إذا كانت هذه المسافة بحرية، وعامل آخر هو حالة الحرب بينهم في صقلية وقوة ولاتها، الذين أجروا كثيراً من الاتصالات وعقد الهدن مع القواد البيزنطيين مباشرة دون الحاجة إلى إرسال سفير من الخليفة الفاطمي إلى البلاط البيزنطي، وربما تطلب ذلك شدة المعارك واحتدامها بين الجانبين في صقلية وشبه جزيرة قلورية في جنوبي إيطاليا.

وفي سنة ثلاثمائة وخمس (٩١٧ م) طلب الأمبراطور قسطنطين السابع من الوالي البيزنطي على قلورية أن يسعى لعقد معاهدة مع الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي (٢٩٧ هـ - ٣٢٢ هـ/٩٠٩ - ٩٣٣م) وأنه على استعداد لدفع جزية سنوية له مقدارها اثنان وعشرون ألف قطعة ذهبية[١]، وقد هدف البيزنطيون من وراء ذلك إلى التفرغ لمواجهة خطر البلغار الذين اشتد أوار غاراتهم في هذه الفترة بقيادة ملكهم سيمون Symeon (٨٩٣ - ٩٢٧ م) ضد الدولة البيزنطية مما حدا بها إلى إرسال بعثة مماثلة إلى الدولة العباسية لهذا الغرض، كما مر من قبل. وفي سنة ثلاثمائة وواحد وأربعين (٩٥٢ م) بعث الأمبراطور قسطنطين أحد مبعوثيه إلى الخليفة الفاطمي المنصور بالله (٣٣٤ - ٣٤١ هـ/٩٤٥ - ٩٥٣ م) بشأن طلب الهدنة بعد مهاجمة المسلمين للحامية البيزنطية في شبه جزيرة قلوريه في السنة السابقة، فقابل المبعوث الخليفة في عاصمته المنصورة[٢] فيما يظهر، ولما تقبّل المنصور هديته كتب

(١) الباز العريني: الدولة البيزنطية ص ٤٢٧؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ١١٠.

(٢) المنصورة: هي إحدى المدن الفاطمية في إفريقية، وتقع بالقرب من القيروان، بنيت في سنة ثلاث مائة وتسع وثلاثين، وقد توسعت في عهد الخليفة المعز أبو تميم معد. واشتهرت بأبوابها الخمسة الباب القبلي والباب الشرقي وباب زويله وباب كتامة وباب الفتوح، كما اشتهرت بتجارتها وتقع حالياً في تونس، الحميري: الروض المعطار، ص ٥٥٠.

إلى جوذر مولاه وواليه على المهدية[1] ليكافأ بأحسن منها[2]، ثم أوكل إلى واليه على صقلية الحسن بن علي الكلبي بمفاوضة المبعوث البيزنطي بشأن الهدنة فأجابه الوالي إلى طلبه، ووقعت الهدنة بين الطرفين، وكان من شروطها بناء مسجد في مدينة ريو Reggio بقلورية، وأن يتعهده البيزنطيون بالمحافظة عليه والسماح لأسرى المسلمين بأداء الصلات فيه[3].

ثم جاء مبعوث بيزنطي آخر في سنة ثلاث مائة وخمس وأربعين (٩٥٦ م) إلى المنصورة عاصمة الفاطميين في أفريقية، وأبدى للمعز رغبة بلاده في عقد هدنة معهم فسأل المعز أهل الرأي عنده في ذلك فأشاروا عليه بمهادنة الروم حتى تصرف الدولة جهودها بجملتها إلى الأمويين في الأندلس الذين كانوا في صراع بحري معهم في هذا الوقت، ولكن المعز رأى من الأولى أن يبدأ بمناهضة البيزنطيين وعدم مهادنتهم، وأوعز إلى أسطوله في المهدية بمهاجمة الأسطول البيزنطي عند سواحل صقلية، فدحرهم الأسطول الفاطمي وقتل عدداً من رجالهم، وألجأهم إلى بر قلورية بعد هزيمتهم[4]، وكان ذلك باعثاً للبيزنطيين إلى أن يطلبوا الهدنة من جديد في عام ثلاث مائة وست وأربعين (٩٥٦ م) فقدم إلى المنصورة سفير بيزنطي يحمل معه هدايا وأموالاً كبيرة، ويبلغ الخليفة المعز رغبة الأمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع في وقف الغارات الإسلامية على أرض قلورية،

---

(١) المهدية: مدينة تقع في إفريقية (تونس حالياً) بناها عبيد الله الشيعي في سنة ثلاث مائة ونسبت له فهو يسمى أحياناً عبيد الله المهدي - بينها وبين القيروان ستون ميلاً، ويحيط بها البحر من ثلاث جهات إمعاناً في تحصينها وكانت عاصمة للدولة الفاطمية قبل انتقالها إلى مصر.
الحميري: الروض المعطار، ص ٥٦١.

(٢) الجوذري: سيرة الاستاذ جوذر، القاهرة ١٩٥٤ م، ص ٦٠ - ٦١.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ ٨ ص ٤٧٤.

(٤) القاضي النعمان: المجالس والمسايرات ص ١٦٦ - ١٦٧؛ أدريس عماد الدين القرشي: عيون الأخبار وفنون الآثار، بيروت ١٩٧٥ م. السبع الخامس ص ٣٣٨.

ويتعهد بدفع الجزية، وأن يطلق عدداً من أسرى المسلمين في المشرق[1]، منجمين بعدد سنوات الهدنة لعدم وجود أسرى فاطميين فيما يظهر، فقبل الخليفة ذلك ورأى فيه صلاحاً للدين وللمسلمين[2].

ولم تستمر هذه الهدنة طويلاً ففي سنة ثلاث مائة وخمسين (٩٦١ م) وصلت إلى المعز استغاثة مسلمي جزيرة أقريطش عندما كبسهم الأمبراطور رومانوس الثاني (٣٤٨ - ٣٥٢ هـ/٩٥٩ - ٩٦٣ م) بهجوم قوي لم يقدروا على مقاومته فرأى الخليفة المعز أن ينجدهم ولا يسلمهم للبيزنطيين، بأن يمدهم بالأساطيل والرجال على الرغم من أنهم يتبعون الخلافة العباسية، ويخالفون الدولة الفاطمية في دعوتها، لكن الكل مسلمون والعدو هنا مشترك. رأى الخليفة قبل أن ينفذ مساعدته لهم أن ينبذ إلى الامبراطور البيزنطي المعاهدة السابقة معه، لكي لا يتهم بالغدر والخيانة بالاخلال بالعهود والمواثيق عملاً بقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ الآية[3]، فكتب بذلك كتاباً للأمبراطور البيزنطي مما جاء فيه:

«ولا ترى أن دعوة أهل أقريطش قبل اليوم إلى غيرنا وقد أنابوا اليوم إلينا واستغاثوا بنا، مما يوجب لك عندنا تمام الموادعة بتركهم إليك وترك اعتراضك فيهم.

إن امتناع أهل الباطل من أهل الحق ليس بمزيل حقهم وإن تغلبوا عليه دونهم، هو لهم بتصيير الله إياه إليهم. فاقريطش وغيرها من جميع الأرض لنا بما خولنا إليه منها وأقامنا له فيها، أطاعنا منها من أطاع وعصانا

---

(١) لم يفرق المعز عند المطالبة بفك الأسرى سواء كانوا تابعين للدولة الفاطمية أو مشارقة تابعين للخلافة العباسية، فالجميع مسلمون، وهذه منقبة تذكر له، وقد فاخر بها رسول عبد الرحمن الناصر خليفة الأندلس عند مقابلته له فيما بعد. انظر: القاضي النعمان: المجالس والمسايرات، ص ١٧٥.

(٢) القاضي النعمان: المصدر نفسه، ص ١٦٧.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٥٨.

من عصى، وليس بطاعتهم يجب أنا أن نملك ولا بعصيانهم يحق علينا أن نترك. . . . . . . وعهدك أن تماديت على حرب من أناب إلينا منبوذ إليك، فانظر لنفسك ولأهل ملتك فإنا مناجزوك وإياهم الحرب بعون الله لنا وتأييده، ولا حول ولا قوة إلا به»(١).

كما جرد البيزنطيون حملة كبيرة ضد الفاطميين أنفسهم في صقلية في سنة ثلاث مائة وثلاث وخمسين (٩٦٤ م)، ودارت بينهم معركة المجاز المشهورة التي انتصر فيها المسلمون وانهزم البيزنطيون هزيمة منكرة ذهب فيها جملة من قوادهم وأسطولهم(٢).

ونتيجة لذلك قرر البيزنطيون عقد هدنة جديدة مع الفاطميين، وجاء أحد أشرافهم سفيراً مبعوثاً من قبل الأمبراطور نقفور الثاني فوقاس (**٣٥٢ - ٣٦٦ هـ/٩٦٣ - ٩٧٦ م**) ويقدم بين يديه مالاً كبيراً، وهدية نفيسة شملت بعض الأواني الذهبية المرصعة بالجوهر، وأبلغ الخليفة المعز رغبة سيده في تقرير الهدنة، بشروط الهدنة الأخيرة من وقف القتال ودفع الجزية واطلاق سراح مجموعة من أسرى المشرق(٣).

وقد دار الحوار بين المعز والسفير البيزنطي لاقرار هذه الهدنة بين

---

(١) القاضي النعمان بن محمد: المجالس والمسايرات، ص **٤٤٤ - ٤٤٥**، وهكذا نرى أن الخليفة المعز قد ناصر مسلمي أقريطش الذي يختلفون معه مذهباً وولاء ضد البيزنطيين، بل كاتب أيضاً ولاة مصر الأخشيديين التابعيين للعباسيين بشأن مساعدة مسلمي أقريطش، ويطمأنهم أن أسطوله لن يتعرض لجنودهم عندما يجتمع الأسطولان هناك، وأوضح المعز لهم ذلك بقوله: «في تظافر المسلمين على عدوهم واجتماع كلمتهم اعزاز لدين الله وكبت لأعدائه»، وذلك تطبيقاً لمبدأ أن اختلاف المسلمين فيما بينهم لا يلغي وحدتهم واتحادهم في وجه أعدائهم وهي قاعدة يجب أن تطبق في كل زمان ومكان.

(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص **٥٥٦ - ٥٥٨**.

(٣) القاضي النعمان: المجالس والمسايرات، ص **٣٦٧ - ٣٧٠**؛ أيضاً انظر:

- Stene. «An Embassy of the Byzantine emperor to the Fatimedi Caleph al - Muizz». Byzantion 20 (1950) PP. 239 - 258.

الجانبين كما يصفه قاضي المعز وكاتب سيرته النعمان محمد على النحو الآتي [1]:

أولا: طلب السفير البيزنطي أن تكون الهدنة مؤبدة بين الدولتين فأجابه الخليفة المعز بأن ذلك لا يجوز في الشريعة الإسلامية، فإن الموادعة إنما تجوز لمدة معلومة على ما يراه إمام المسلمين صلاحاً لهم وللدين، ثم نبهه المعز أن المفروض في الأمبراطور أن يكون عارفاً بشريعة من يخاطبهم، والا يغيب عنه ذلك، فيسأل ما يخالف ما توجبه، فأحرج بذلك المبعوث البيزنطي، وشعر أن ذلك مما لا يليق.

ثم طلب السفير البيزنطي تجديد الهدنة السابقة إذن، وزيادة مدتها، فأجابه الخليفة بأن الأمر على ما وضحه في رسالته التي أعطيت له من قبل، ثم عرّض بغدر البيزنطيين وخفرهم بشروط الصلح في الماضي، فأجابه السفير بأن ذلك كان خارجاً عن إرادة الأمبراطور، وأنه حاسب عليه، فرد الخليفة في تهكم، إذا كان الأمبراطور مغلوباً عليه، ويعجز عمن خالفه فلا حاجة لنا في موادعته والصلح معه، ثم استطرد بأنه لو صالح الأمبراطور بشأن عدم غزو الحمدانيين له في الشام لضمن له ذلك في عدم خروجهم على الاتفاق الذي يعقده معه، وأراد بهذا أن يفحم المبعوث البيزنطي في إثارة مواقف معه لم يكن مستعداً بالإجابة عنها، ليرى مدى حنكته السياسية، كما أوضح المعز ذلك لأصحابه بعد انصراف المبعوث [2].

ثم سأل السفير البيزنطي الخليفة أن يبعث معه رسولاً فاطمياً لمقابلة الأمبراطور رداً على مبعوثيه للدولة الفاطمية، فأجابه المعز: «إن أحداً من الناس لا يرسل رسولاً إلى أحد إلا لحاجة له إليه ولأمر يجب له عليه، ونحن بحمد الله فلا نعلم أن لنا إلى صاحبك من حاجة، ولا له علينا أمر واجب، فلماذا نرسل إليه؟».

---

(١) انظر: الحوار في ملحق رقم (٣).
(٢) القاضي النعمان: المجالس والمسايرات، ص ٣٧٠.

وفسر له أن ذلك فيما يتعلق بأمور الدنيا. أما لو أن الأمر كان «لوجه الله عز وجل وابتغاء ثوابه» لما تأخر في ذلك، فتعجب السفير البيزنطي، وأثنى على الخليفة وشكره، ثم ألمح له الخليفة بانتهاء الحوار، وأمره بالإنصراف إلى مكان إقامته[1].

ولم يذكر القاضي النعمان تاريخ هذه السفارة، وليس في الحوار الطويل الذي دار بين المعز والسفير البيزنطي ما يشير إلى ذلك.

وقد أورد القاضي النعمان خبر سفارتين بين البيزنطيين والفاطميين، كانت الأولى في سنة ثلاث مائة وست وأربعين (٩٥٧ م) بعد معركة بحرية بالقرب من صقلية، وانتهت بعقد هدنة بين الجانبين. ومن غير المحتمل أن يبعث البيزنطيون بسفارة أخرى، والهدنة الأولى قائمة، والراجح أنهم بعثوا سفارتهم الثانية، بعد هزيمة كبيرة لهم في موقعة المجاز في سنة ثلاث مائة وأربع وخمسين (٩٦٥ م)، إذ يتطلب الموقف بعدها عقد هدنة بين الجانبين، وقد يكون في لين السفير البيزنطي، والحاجة بعقدها وأن تكون طويلة ما يشير أنها تمت في هذا الأثناء.

ويرى بعض الباحثين أن البيزنطيين هدفوا ـ أيضاً ـ من هذه السفارة إلى التنسيق مع الفاطميين، في خلق موقف بيزنطي فاطمي واحد ازاء خطر أمبراطور ألمانيا أوتو الأول Otto I حيث كان يطمح إلى توحيد إيطاليا، وطرد الفاطميين والبيزنطيين[2] منها.

وهي بادرة خطيرة من الدولة البيزنطية ـ لو صحت ـ في أن تتحالف مع قوة إسلامية تناصبها العداء من قبل، إلا أن شيئاً ملموساً لم يحدث في هذا المجال فيما يبدو.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٦٩.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ١٠٥ ـ ١٠٧.

كذلك لم يشر القاضي النعمان إلى اسم السفير البيزنطي، ولكن مجريات هذه السفارة تشير أن الذي زار الدولة الفاطمية في أفريقية في هذه الأثناء هو نيقولا Nicholas أحد أشراف البلاط البيزنطي آنذاك، وقد قابل هذا السفير الخليفة المعز في القاهرة عام ثلاث مائة وخمس وستين (٩٧٥ م) كما سيأتي، ومما يؤكد هذا الترجيح ما ذكره ابن الأثير من أن نيقولا هذا قابل المعز في القاهرة وذكر أنه سبق أن اجتمع به في المهدية في أفريقية قبل مجيئه إلى القاهرة وعبر له عن اعجابه بالبلاط الفاطمي هناك[١].

ولا نجد بعد ذلك ذكراً لأي اتصال دبلوماسي بين الفاطميين والبيزنطيين في أفريقية، ويعزى هذا إلى انتقال الخلافة الفاطمية من أفريقية إلى مصر واتخاذها قاعدة لحكمها، وهو تحول سيجعل الفاطميين أكثر احتكاكاً بالبيزنطيين، ويوطد من اتصال الجانبين الدبلوماسي في المرحلة المقبلة، لا سيما بعد ضم الفاطميين لبلاد فلسطين والشام إلى حوزة دولتهم كما سنرى فيما بعد.

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٦٦٣، وقد حسب الدكتور حسن إبراهيم حسن أن إعجاب السفير البيزنطي بالبلاط الفاطمي كان عند مقابلته له في المهدية بافريقية وحدده بتاريخ سنة ٣٥٧ هـ(تاريخ الدولة الفاطمية، ص ١٠٥) والأمر مختلف تماماً، فقد أبدى السفير ذلك عندما قابل الخليفة المعز في القاهرة، في سنة ٣٦٥ هـ(٩٧٥ م)، كما أورد ابن الأثير ذلك أعلاه.

٢ ـ سفارات الدولة الفاطمية في مصر إلى الدولة البيزنطية:

دلف الفاطميون بجيوشهم ـ كما هو معروف ـ إلى مصر واستولوا عليها في سنة ثلاث مائة وثمان وخمسين بقيادة قائدهم المشهور جوهر الصقلي، وفي العام نفسه بنى مدينة القاهرة وأصبحت حاضرة الدولة الفاطمية في مصر، وفي العام التالي زحفت الجيوش الفاطمية إلى فلسطين والشام فاخضعتهما، وأصبحتا ولايتين فاطميتين.

وبذلك أصبحت الدولة الفاطمية مجاورة للدولة البيزنطية من الجنوب، وللدولة العباسية من الغرب، وسوف ندرس هنا صلاتها الدبلوماسية مع البيزنطيين أما علاقتها مع العباسيين فهي خارجة عن مجال هذا البحث.

لقد دخل الفاطميون في مرحلة جديدة في علاقاتهم بالبيزنطيين عندما استقروا في مصر والشام، ونشأت بينهما صلات مختلفة في مجالات متعددة، وسوف تنصب الدراسة هنا على مجال السفارات بين الطرفين حيث نشطت في هذه المرحلة وتعددت وفاداتها، نظراً لقوة الاحتكاك الحربي بين الدولتين وما تبعه من إيفاد مبعوثين وعقد هدن وعقد أفدية وفك أسرى، وسوف ندرس هذه السفارات حسب عهود الخلفاء الفاطميين في مصر ولا سيما العظام منهم حيث نشط الاتصال الدبلوماسي أما في أواخر عهد الدولة الفاطمية فقد ضعف أكثر خلفائها، وضعف الاتصال الفاطمي البيزنطي، ولذلك سوف ترد دراسة السفارات في عهودهم باجمال لتلك الفترة دون إفراد أو تخصيص عهد كل خليفة بدراسة مستقلة.

أ ـ السفارات الفاطمية في عهد الخليفة المعز في مصر:

قضى المعز لدين الله الفاطمي سواد مدة خلافته في أفريقية، ورأينا مدى ازدهار الاتصال الدبلوماسي بينه وبين البيزنطيين هناك كما مر من قبل. ولما قدم إلى مصر في رمضان سنة ثلاث مائة واثنين وستين (٩٧٢ م) اتخذ مدينة القاهرة داراً للخلافة، فأصبحت منذ ذلك الوقت إحدى الحواضر الإسلامية الزاهرة، وأمَّها مريدو الفاطميين من كل صوب وقصدها كثير من سفراء الدول المعاصرة للدولة الفاطمية.

وتبعاً لهذا جاء إلى القاهرة بعض السفراء البيزنطيين في هذا العهد، ففي سنة ثلاث مائة وخمس وستين ٩٧٥ م) ورد رسول الأمبراطور البيزنطي حنا الأول زيمكيس John Tzimisces (٣٥٩ ـ ٣٦٦ هـ/٩٦٩ ـ ٩٧٦ م) فأخذت القاهرة تستعد لاستقباله، وفي اليوم الذي دخل فيه القاهرة، أغلقت الحوانيت واصطف الناس عبر الشوارع والشرفات لمشاهدة موكبه، واستقبله الخليفة المعز بنفسه وأقام السفير عنده أياماً[١]، وفي أحد الأيام اختلى السفير البيزنطي بالمعز، فدار بينهما حوار صريح ليس حول مهمة السفير نفسها وإنما حول ما يراه في النقلة الجديدة للدولة الفاطمية واستقرارها في مصر. وكان المعز يحب أن يعرف رأي السفير في ذلك، لا سيما أن هذا السفير جاء إلى الدولة الفاطمية عندما كانت في أفريقية كما يتضح من هذا الحوار، ومن هنا يظهر أن اسمه نيقولا الذي أشرنا إليه من قبل، ولما خلا به المعز قال له: «أتذكر إذ أتيتني رسولاً، وإنا بالمهدية، فقلت لك «لتدخلن عليّ وأنا بمصر مالكاً لها؟، قال: «نعم، قال: وأنا أقول لك، لتدخلن عليّ بغداد وأنا خليفة»[٢]. هكذا!

وتبدو حصافة السفير هنا في أنه أراد أن يجيب المعز بقول صريح

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، القاهرة، ١٩٦٧ م، جـ ١ ص ٢٥٥ ـ ٢٢٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ٨ ص ٦٦٣ ـ ٦٦٤؛ المقريزي: إتعاظ الحنفا، جـ ١ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

بعيداً عن بهرج الكلام والتنميق في المجاملة، فأخذ عهداً من الخليفة بعدم الغضب عليه أو معاقبته بعد سماع جوابه، فلما استوثق منه وقال له الخليفة: «قل وأنت آمن»، قال السفير: «بعثني إليك الملك ذلك العام فرأيت من عظمتك في عيني وكثرة أصحابك ما كدت أموت منه ووصلت إلى قصرك، فرأيت عليه نوراً عظيماً غطى بصري، ثم دخلت عليك فرأيتك على سريرك فظننتك خالقاً، فلو قلت لي إنك تعرج إلى السماء لتحققت ذلك، ثم جئت إليك الآن، فما رأيت من ذلك شيئاً أشرفت على مدينتك فكانت في عيني سوداء مظلمة، ثم دخلت عليك فما وجدت من المهابة ما وجدته ذلك العام، فقلت أن ذلك كان أمر مقبلاً، وأنه الآن بضد ما كان عليه»[1]. هنا أطرق المعز قليلاً ثم قام السفير من عنده، ولم يجبه الخليفة وقد ساءته ملاحظته واغتم منه، حتى أنه ليقال إن مرض موته الذي كان في السنة نفسها بدأ من ذلك اليوم[2].

ولا شك في أن ما أبداه السفير البيزنطي هذا كان قاسياً وجافاً، لا سيما أن الدولة الفاطمية في مصر وخاصة عاصمتها القاهرة ودواوينها كانت في طور التأسيس ولم يمض عليها وقت طويل حتى يحكم عليها بمثل هذا الحكم.

وقد تكون تلك الملاحظات مكيدة أراد بها السفير البيزنطي تثبيط الخليفة، وتحطيم همته في التطلع نحو المشرق المتاخم للدولة البيزنطية، خاصة ما عرف عن الخليفة المعز من حبه للفأل وتصديقه للنجوم، وهو أمر ليس بمستبعد في ظل ما يتميز به معظم السفراء من حنكة ودهاء.

ب ـ السفارات في عهد الخليفة العزيز بالله:

استقرت الدولة الفاطمية في فترة حكم العزيز بالله (**٣٦٥ - ٣٨٦ هـ/٩٧٥ - ٩٩٦ م**) في مصر وفلسطين والشام، وأصبح ولاتها وقوادها

---

(١) ابن الأثير: المصدر نفسه.

(٢) نفسه.

في الشام وفلسطين في مواجهة مع البيزنطيين حرباً وسلماً، حسبما تتطلبه ظروفهم هناك، وإذا كان كل من الدولتين الفاطمية والبيزنطية في مرحلة قوية من مراحل تاريخهما فقد وصلت غارات الدولة البيزنطية إلى مدينة حلب في سنة ثلاث مائة وخمس وثمانين (٩٩٥ م) بقيادة الأمبراطور البيزنطي باسيليوس الثاني (٣٦٦ - ٤١٦ هـ/٩٧٦ - ١٠٢٥ م)[١].

ولما وصلت أخبار هذه الغارات إلى الخليفة الفاطمي أخذ في التأهب للمسير واعداد العدة للخروج للشام ومنازلة البيزنطيين، وأعد له معسكراً خارج القاهرة استعداداً للمسير إلى هناك، ونودي بالنفير العام في الأسواق وأعلن الخليفة العزيز قائلاً: «إنما أسير لنصرة الإسلام والذب عن بلدانه وصيانة أهله»[٢].

فلما وصلت الأمبراطور البيزنطي أنباء استعداد الفاطميين بعث برسول في سفارة للخليفة بغية عقد صلح بين الدولتين، وتقرير فترة سلم بينهما. فلما وصلت السفارة البيزنطية إلى القاهرة، وقابلت العزيز دارت المفاوضات حول عقد الصلح، وهو الهدف الذي جاء من أجله المبعوث البيزنطي، وأخبر الخليفة العزيز بعودة الأمبراطور البيزنطي إلى بلاده، ويعتذر عن مسيره إلى الشام تمهيداً لتحقيق مهمته، وأنه جاء لعقد الصلح معه. فلما رأى العزيز أن الأمبراطور قد عاد إلى بلده، وأنه لم يعد هناك داع لخروجه إلى الشام، أجاب المبعوث البيزنطي إلى عقد الصلح بين الدولتين[٣].

استمرت العلاقة بين الفاطميين والبيزنطيين على هذه الحال حتى وصلت سفارة بيزنطية أخرى في عام ثلاث مائة وسبع وثمانين (٩٩٧ م) إلى القاهرة. وقد جاءت هذه السفارة بطريق البحر حتى دخلت فلسطين، ونزلت

---

(١) المقريزي: إتعاظ الحنفا، جـ ١ ص ٢٨٦.
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٨٧.
(٣) المقريزي: إتعاظ الحنفا، جـ ١ ص ٢٨٨.

بيت المقدس، ومنها اتجهت إلى مصر[١]. فلما قابل السفراء الخليفة قدموا له هدية من امبراطورهم باسيليوس الثاني، كانت عبارة عن ثمان وعشرين صينية من الفضة، ومجموعة أطباق محلاة بالذهب[٢]. بعد ذلك جرت مفاوضات بينهم وبين الخليفة بشأن طلب الهدنة، وأظهر الخليفة تردده في بادىء الأمر[٣]، ويبدو أن تردده هذا كان مناورة مقصودة من املاء شروطه على البيزنطيين وفق ما يريد، ولهذا نجد أن شروطه ـ لكي تتحقق هذه الهدنة ـ كانت شديدة ومتميزة، فما وسع السفراء البيزنطيون إلا أن قبلوها، واتفق الطرفان على عقد الهدنة بالشروط التالية:

١ ـ تعهد البيزنطيين باطلاق سراح الأسرى المسلمين في بلاد الروم، والحلف على ألا يبقوا أحداً منهم لديهم.

٢ ـ الخطبة للخليفة العزيز في جامع القسطنطينية كل جمعة.

٣ ـ أن يحمل للعزيز من أمتعة الروم ما يطلبه منهم.

٤ ـ عقد الهدنة بين الدولتين لمدة سبع سنين[٤].

هكذا عقدت الهدنة بين الجانبين وتحقق هدف السفارة البيزنطية بعقدها، وهناك عاملان ساعدا الخليفة على تحقيق هذه الشروط، أولهما معرفته بالمرحلة التي تمر بها الدولة البيزنطية آنذاك من قيام بعض الثورات المحلية ضد الأمبراطور، ثانيهما شك الخليفة في أن ما تعرضت له أساطيله من إحراق في الحملة البحرية التي كانت تزمع الإغارة على السواحل البيزنطية كان للبيزنطيين يد فيه[٥]، كما ساعد هذان العاملان ـ بتفسير آخر ـ

---

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، القاهرة (بدون تاريخ)، جـ ٤ ص ١٥١ ـ ١٥٢.
(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٢٥٨.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ ٤ ص ١٥١ ـ ١٥٢.
(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ ٤ ص ١٥١ ـ ١٥٢.
(٥) المصدر السابق.

على ضعف موقف المبعوثين البيزنطيين، وذلك أن عقد هدنة مع الفاطميين في هذا الوقت بالذات يمكّن البيزنطيين من التفرغ لمشاكلهم الداخلية ويقضي على فرصة الخليفة في إمكانية تغذية تلك المشاكل، ومن جانب آخر مخافة غضب الخليفة عقب إحراق أسطوله من أن يعاود المحاولة وينجح في غزو ثغورهم البحرية[١].

ونلحظ في بنود هذه المعاهدة ما هو جدير بالاهتمام وهو طلب الخليفة الفاطمي في أن يخطب في جامع القسطنطينية باسمه، وهو أمر لأول مرة يطالب به الفاطميون حتى الآن. ذلك أن هذا الجامع الذي يرجع تاريخ بنائه إلى العهد الأموي في المشرق ظلت تقام فيه الخطبة باسم الخليفة العباسي في بغداد، وفي بعض السنوات ظل مغلقاً نظراً لخلافات بين العباسيين والبيزنطيين، أو بينهم وبين الفاطميين، وسوف ندرس هذا الجانب بمزيد من التتبع والتحليل وأثره في العلاقات الإسلامية البيزنطية في الفصل الخامس إن شاء الله.

والدارس للعلاقات الدبلوماسية بين الفاطميين والبيزنطيين يلحظ أن الفاطميين إلى الآن لم يبعثوا بسفير لهم إلى العاصمة البيزنطية القسطنطينية أو يطلبوا من البيزنطيين إجراء مفاوضات وعقد هدنة، ولو عن طريق قوادهم في الشام، على الرغم من نصيحة وزير العزيز ابن كلّس[٢]، له في مرض

---

(١) غنيم: العلاقات السياسية بين الدولتين البيزنطية والفاطمية. رسالة ماجستير. جامعة الإسكندرية، ١٩٦٨ م، ص ١٦٥.

(٢) ابن كلّس: هو يعقوب بن يوسف بن كلس كان يهودياً ثم أسلم في عهد كافور الأخشيدي رحل إلى أفريقية وتقرب إلى الخليفة المعز، ولما دخل المعز مصر قلده ديوان خراجها، ولم يزل متوليه حتى قلده الخليفة العزيز الوزارة، واشتهر برجاحة عقله وحسن سياسته وإدارته، وتوفي سنة ثلاث مائة وثمان وسبعين وصلى عليه العزيز ودفن بالقاهرة. انظر: يحيى بن سعيد الأنطاكي: التاريخ، ص ١٧٢.

موته بقوله: «سالم يا أمير المؤمنين الروم ما سالموك»[1] فهل تأثر الفاطميون يا ترى برأي المعز في عدم الذهاب إلى القسطنطينية الذي أشرنا إليه من قبل؟

على أية حال فإن هذه القاعدة لم تستمر طويلاً وسوف نرى أول سفير فاطمي يذهب إلى القسطنطينية في عهد الخليفة التالي الحاكم بأمر الله.

جـ ـ السفارات في عهد الحاكم بأمر الله:

ظلت بلاد الشام وفلسطين محور الصراع الحربي بين الفاطميين والبيزنطيين فقد رأى الفاطميون أنه لا يمكن أن تستتب أمور مصر والأمور في فلسطين والشام مضطربة أو خارجة عن حوزتهم، ورأى البيزنطيون أن الشام وفلسطين ولايات قديمة كانت تابعة لهم فضلاً عن مركزهما الديني والاقتصادي لهم، لهذا لم يفتأوا عن مهاجمتهما كلما اضطربت أمورهما وضعفت حمايتهما، أو وجد البيزنطيون أنفسهم يعيشون في ظروف سياسية واقتصادية تمكنهم من ذلك، ولا سيما في عهود أباطرتهم الأقوياء.

وفي هذا الوقت كان يتسنم العرش البيزنطي الأمبراطور باسيليوس الثاني أحد هؤلاء الأباطرة العظام فضلاً عن أن أمور الشام لم تكن مستقرة، فالفتن والثورات تقوم فيه بين حين وآخر، مما جعله هدفاً مناسباً لمهاجمة البيزنطيين له، أو تحريض بعض الثوار الطامعين فيه على مناهضة وخلع طاعة الفاطميين، فهذا أحد أمراء الحمدانيين ويسمى سعيد الدولة أبو الفضل بن حمدان كان أميراً على مدينة حلب، فكان يستنجد بالبيزنطيين، فكتب إليهم مرة يقول: «متى أخذت حلب، أخذت أنطاكية، ومتى أخذت أنطاكية أخذت القسطنطينية»[2]، بالإضافة إلى العديد من الهجمات

---

(١) كرد على: خطط الشام، جـ ١ ص ٢٣٢.

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ٤ ص ١٢٠.

البيزنطية على مدن الشام وموانئه التي واجهها الفاطميون بكل قوة وصلابة، إلا أن الخليفة الحاكم رأى أن الوقت يتطلب عقد هدنة بين الجانبين، فأوعز إلى قائده في بلاد الشام وفلسطين أن يهادن البيزنطيين، فأرسل إلى الأمبراطور البيزنطي باسيليوس الثاني يقترح عليه عقد الصلح، فاستجاب الأمبراطور البيزنطي لذلك، لأنه يتيح له الانصراف إلى جبهة أخرى ومواجهة خطر البلغار على حدود دولته الشمالية وهم الذين كانوا يشكلون خطراً داهماً على الدولة البيزنطية في تلك الفترة[1].

وبالفعل بعث الأمبراطور باسيليوس سفيراً إلى الخليفة الحاكم بأمر الله في القاهرة في سنة ثلاث مائة وتسعين، وبدأت مفاوضات الصلح بين الجانبين، وبينما كانت الحال كذلك عنّ للأمبراطور البيزنطي مهاجمة القوات الفاطمية لمنع زحفها على أنطاكية، فتوقفت المفاوضات وعاد السفير، إلا أن الأمبراطور ما لبث أن كر راجعاً إلى عاصمته لمواجهة خطر البلغار في الشمال، وأوعز إلى سفيره بالعودة من جديد في سنة ثلاث مائة وواحد وتسعين (١٠٠٠ م) لمفاوضة الفاطميين حول الصلح، واحتفى الفاطميون باستقبال السفير البيزنطي بالقاهرة أكثر من ذي قبل فقد رتب الجند في صفوف طويلة حتى باب الفتوح محل استقبال السفير، وقد روت أخت الحاكم ست الملك التي تعتبر شاهد عيان وصف هذا الاستقبال بأن القصر الخلافي زين بشتى أنواع الزينة، وأعدت قاعة الاستقبال أجمل إعداد، ففرشت بالبسط الرائعة، وعلقت على جدرانها الستائر الذهبية، ووضع في صدرها عسجدة كبيرة من ذهب، مكللة بفاخر الجوهر حتى أنه لتضيء من حولها[2]. ويبدو أن هذه العسجدة كانت معروفة مشهورة في القصر آنذاك. وصل السفير البيزنطي إلى القصر وسط هذا المشهد الرائع

---

(١) الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص ٦٧٧.

(٢) الرشيد بن الزبير: كتاب الذخائر والتحف، ص ١٥٠ ـ ١٥١؛ المقريزي: إتعاظ الحنفا، جـ ٢ ص ٣٩ ـ ٤٠. ابن تغري بردي: المصدر السابق، جـ ٤ ص ١٩٢.

فقبل الأرض أمام الخليفة الحاكم، وقدم إليه رسالة الأمبراطور وهديته[1].

ويظهر أن الحاكم رأى هذه المرة أن تدور المفاوضات بين الجانبين البيزنطي والفاطمي في القسطنطينية العاصمة البيزنطية، فبعد أن استقبل السفير البيزنطي أحسن استقبال وقبل هديته، أحضر أرسطيس Orestes[2] بطريرك بيت المقدس وصهر البيت الفاطمي آنذاك، وانتدبه في مرافقة السفير البيزنطي إلى القسطنطينية في أول سفارة فاطمية تذهب إلى هناك منذ قيام الدولة، وهو تطور كبير في اتصال السفارات بين الدولتين إذ سوف تتبعها سفارات أخرى تتجه إلى هناك كما سنبين فيما بعد، وتخرج على التقليد الفاطمي والرأي الذي يراه الخليفة المعز في إرسال السفراء إلى الدولة البيزنطية كما مر من قبل.

وصلت السفارة الفاطمية إلى القسطنطينية برفقة السفير البيزنطي العائد من القاهرة. ونخال أنها لقيت من حسن الاستقبال هناك ما عهد من البلاط البيزنطي بما هي جديرة به ولا سيما أنها أول سفارة فاطمية وفدت إلى هناك ولو أن المصادر الإسلامية والبيزنطية المتاحة لنا لا تشير إلى شيء حول ذلك الاستقبال.

على أية حال أدى السفير الفاطمي مهمته لدى البلاط البيزنطي بنجاح، وعرض على الأمبراطور باسيليوس الثاني الشروط الفاطمية لعقد الهدنة بين الدولتين وبعد اتفاق الجانبين على صيغة معاهدة الصلح تم إبرام الهدنة بينهما بالشروط التالية:

١ ــ تكون مدة الهدنة بين الدولتين عشر سنوات.

٢ ــ أن ترعى الدولة الفاطمية النصارى وتسمح لهم بحرية ممارسة شؤونهم الدينية وأن تسمح لهم أيضاً ببناء كنائسهم وتجديدها.

---

(١) المقريزي: المصدر السابق.

(٢) تولى أرسطيس بطريركية بيت المقدس في الفترة من ٣٧٤ ـ ٣٩٦ هـ/ ٩٨٤ ـ ١٠٠٥ م)؛ العارف: المسيحية في القدس، القدس ١٩٥١ م، ص ٢٨.

٣ ــ أن تتعهد الدولة البيزنطية بإمداد مصر بما تحتاجه من الحبوب[1].

ونلاحظ في هذه المعاهدة أنها ركزت على جانبين الأول هو ضرورة أن تراعي الدولة الفاطمية الحرية الدينية لرعاياها النصارى والسماح لهم بعمار كنائسهم، ويأتي هذا الشرط بعد مواقف الخليفة الحاكم المتقلبة إزاء النصارى في دولته في موادعتهم حيناً والتضييق عليهم حيناً آخر، وواضح أن البيزنطيين هم الذين طلبوا هذا الشرط.

أما الجانب الثاني فهو ما طلبته الدولة الفاطمية من الدولة البيزنطية بتصدير الحبوب إلى مصر، وهو شرط دعت إليه حاجة الفاطميين آنذاك، أو أن الفاطميين أوجسوا أن البيزنطيين بصدد إيقاف تصدير الغلال إلى مصر ـ وهو ما أقدموا عليه فيما بعد ـ فأرادوا التأكيد على استمراره.

ثم إن هذه المفاوضات لم تقتصر على مناقشة النواحي الحربية بين الطرفين، وإنما تناولت جوانب اقتصادية ودينية تهم الدولتين مما يعد بعداً وأهمية أكبر لهذه السفارة من حيث تعدد أهدافها والنتائج التي حققتها.

بقي أن نشير هنا أن أرسطيس بقي في القسطنطينية بعد أداء مهمته لمدة أربع سنوات ومات هناك[2].

ولا يعرف بالتأكيد هل بقاؤه هناك كان تمثيلاً للفاطميين في العاصمة البيزنطية أو كان بصفة شخصية، ويرجح الاحتمال الثاني، سيما أنه رجل

---

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكي: التاريخ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥، انظر أيضاً:
- Hamadani; Byzantine - Fatimid relations of diplomatiques befor the battel of manzikert, Byzantine Studies/ 1974, p 173.
عنان: الحاكم بأمر الله، ص ١٧٨ ـ ١٧٩؛ سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٢٤٣.
(٢) يحيى بن سعيد الأنطاكي: التاريخ، ص ١٨٤.

دين يرغب مثله في الإقامة مدة مناسبة بالقرب من الكنيسة الشرقية الأولى بالقسطنطينية والاحتكاك برجال الدين فيها. لم تستمر هذه الهدنة طويلاً ففي سنة ثلاث مائة وثمان وتسعين (١٠٠٧ م) نقض الخليفة الحاكم أحد بنودها، عندما أنكر على النصارى ما يفعلونه في أعيادهم من إشعال النيران ونصب الصلبان، وبُعَيد عيد رأس السنة أمر أن تهدم كنيسه القيامة، وأن يخلى بينها وبين العامة لتنهب، وتم ذلك بالفعل، بل أمر بهدم البيع والكنائس التي تضمها دولته، إلا أن بعض ولاته خوّفوه من أن البيزنطيين سوف يهدمون في المقابل مساجد المسلمين في المدن التي تحت سيطرتهم فعدل الحاكم عن ذلك(١)، حتى أن هذه الإجراءات ألجأت بعض النصارى من أهل الذمة إلى النزوح إلى الأراضي البيزنطية أو إلى مدن الثغور التي يحتلها البيزنطيون مثل أنطاكية(٢). هذا على الرغم من أنه قبيل ذلك كان قد نمى إلى علم الحاكم قدوم الأمبراطور البيزنطي لزيارة بيت المقدس للحج، فندب إليه من يعلمه بمعرفة الحاكم بخبره ويطمأنه بالأمن وعدم الإساءة له(٣). ويشير ابن الجوزي أنه ربما يجيء في العادة أحد الأباطرة البيزنطيين متنكراً مع بعض بطارقته، ومعهم بعض الهدايا لكنيسة بيت المقدس(٤). وقد ساءت هذه الإجراءات الغريبة الأمبراطور باسيليوس بلا شك، ويفسر ذلك ما أقدم عليه من إصدار قرار بمنع المتاجرة مع بلاد الشام ومصر والسفر إليها(٥)، وهو قرار يلحق أضراراً كبيرة بعلاقات الفاطميين التجارية عبر بلاد الشام، لأن كثيراً من سلع الشام تجلب إلى

---

(١) المقريزي: إتعاظ الحنفا، جـ٢ ص ٧٥؛ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨ م؛ ابن الجوزي: المنتظم، جـ٧ ص ٢٣٩.
(٢) جمال الدين بن ظافر: أخبار الدول المنقطعة القاهرة (بدون تاريخ)، ص ٥٥، انظر أيضاً الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص ٦٨٣.
(٣) ناصر خسرو: سفر نامة، القاهرة ١٩٤٥ م، ص ٣٦.
(٤) ابن الجوزي: المنتظم، جـ٧ ص ٢٣٩.
(٥) الباز العريني: الدولة البيزنطية ص ٦٨٢.

الدولة البيزنطية، كما أن كثيراً من السلع البيزنطية كانت تجلب إلى الأسواق الفاطمية.

وفي وسط هذا الجو من تدهور الصلات السياسية والاقتصادية بين الفاطميين والبيزنطيين يذكر المقريزي وصول سفير بيزنطي إلى القاهرة في عام أربع مائة وخمس (١٠١٤ م) ومعه مرافق يسمى عبد الغني بن سعيد، وأن الحاكم اهتم بمظاهر استقباله من ترتيب جنده في صفوف طويلة، ومن ثم مقابلة السفير للخليفة وهو في حلة بيضاء قشيبة، وإلى جانبه ولي عهده ابنه الظاهر ومن ثم تقبل الحاكم الهدية التي بعث بها الأمبراطور إلا أن المقريزي لم يذكر الهدف الذي جاء من أجله هذا السفير، والقضايا التي ناقشها مع الخليفة الحاكم[1]. ولا يستطيع الباحث التكهن بهدف هذه السفارة والغرض الذي جاءت من أجله في ظل الظروف المشار إليها آنفاً والمعلومات المتوفرة عنها.

وعلى هذا النحو انقطعت السفارات بين الفاطميين والبيزنطيين في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله حتى وفاته في عام أربع مائة وأحد عشر (١٠٢٠ م) إذ لا نجد بعد تلك السفارة ذكراً لذهاب سفارات فاطمية أخرى إلى البلاط البيزنطي، وهو أمر طبيعي في ظل سياسة الحاكم المتغيرة، وسياسة الأمبراطور البيزنطي باسيليوس القوية.

د ـ عهد الخليفة الظاهر ٤١١ ـ ٤٢٧ هـ (١٠٢٠ ـ ١٠٣٥ م):

خلف الظاهر أباه الحاكم في الحكم، وجاء عهده والأمور متوترة بين الفاطميين والبيزنطيين، بسبب إجراءات الحاكم ضد النصارى في الأراضي الفاطمية، وهي المشكلة التي أزعجت البيزنطيين أكثر مما ضايقتهم الحرب بينهم وبين الفاطميين، ووصل الموقف بين الدولتين إلى طريق مسدود

---

(١) المقريزي: إتعاظ الحنفا، جـ ٢ ص ١٠٨.

تجلت مظاهره، في تصعيد الحرب وإثارة الفتن والثورات، وهدم الأماكن المقدسة وقفلها في أراضي البلدين.

لا بد ـ والحال هذه ـ من إيجاد جو يساعد على الانفراج في العلاقات بين الدولتين نحو السلم، وهذا ما أدركته ستّ الملك أخت الحاكم وعمة الظاهر التي أشرفت على إدارة شؤون الدولة في السنوات الأولى من عهده من ضرورة أن يعمل الفاطميون على تحسين علاقتهم بجيرانهم البيزنطيين، فأوفدت في سنة أربع مائة وثلاث عشر نيقفور بطريرك بيت المقدس سفيراً إلى الدولة البيزنطية «ليعمل على عقد أواصر الصداقة والتفاهم بين الدولتين»[1]، ويطلع البيزنطيين على السياسة الفاطمية الجديدة تجاه الأماكن النصرانية المقدسة هناك ورعايتها وإعادة بناء كنيسة القيامة بالذات، ثم ليتوج جهوده بعقد معاهدة صلح معهم، ويطلبم من الأمبراطور أن يطلق المتاجرة بين بلاده وبلاد المسلمين[2]. إلا أن السفير الفاطمي لم ينجح في مهمته كل النجاح بسبب وفاة ست الملك في هذه الأثناء، لكنه لم يعدم التوفيق ـ بدون شك ـ في طمأنة البيزنطيين حول السياسة الفاطمية الجديدة واختلافها عن سابقتها، وهذا سوف يمهد لقبول البيزنطيين عقد هدنة جديدة مع الفاطميين على ما سوف يتضح بعد قليل. واختيار بطريرك بيت المقدس للقيام بهذه السفارة إلى الدولة البيزنطية في هذه الظروف ينم عن حنكة ودربة سياسية تحلت بها ست الملك، فهو ـ باعتباره أسقفاً ورجل دين نصراني ـ خير من يثق فيه البيزنطيون ويستطيع إقناعهم بالصورة الجديدة للسياسة الفاطمية وأوضاع الأماكن المقدسة للنصارى، وموقف الدولة الجديد منها.

وقد مهدت بعثة البطريرك لنجاح الفاطميين في عقد هدنة جديدة، إذ كانت آخر هدنة عقدت قبل عشرين عاماً، واخترمت بعد قليل من توقيعها

---

(١) عنان: مواقف حاسمة، ط ٤، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٢) يحيى بن سعيد الأنطاكي: التاريخ، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

آنذاك، وقد عقدت الهدنة الجديدة في سنة أربعمائة وثلاث وعشرين (١٠٣٠ م) بين الجانبين[١]، ويظهر أن الخليفة الفاطمي الظاهر أوعز في أول الأمر إلى أنوشتكين الدزبري قائد الجيوش الفاطمية في الشام أن يتولى المفاوضة بشأنها مع البيزنطيين[٢]، بعد أن يكون قد حدد له الإطار العام لوجهة النظر الفاطمية بواسطة مبعوثين وصلا له لهذا الغرض، فعمد الدزبري إلى مفاوضة نظيره البيزنطي نقيطا والي أنطاكية البيزنطي، وظلت المفاوضات تراوح دون نتيجة، بل حاول والي أنطاكية أن يضم بعض الحصون في هذه الأثناء، فاضطر الخليفة إلى إعلان المناداة بالنفير إلى الجهاد في أقاليم البلاد ضد البيزنطيين[٣]، وعندئذ خضع المفاوض البيزنطي، واستجاب للدعوة إلى عقد هدنة، واقترح تسيير رسولي الخليفة الظاهر إلى الأمبراطور البيزنطي قسطنطين الثامن (٤١٦ ـ ٤١٩ هـ/١٠٢٥ ـ ١٠٢٨ م) لمقابلته ومناقشته في شروط الهدنة التي يقبل بها الخليفة الفاطمي[٤].

واتفق الطرفان على الشروط التالية في توقيع هذه الهدنة وتبدو فيها إشارة قواد الثغور من الطرفين حيث بدأت مناقشتها من هناك. فبالنسبة للجانب الفاطمي اشترط فيها ما يأتي:

١ ـ أن يعمل البيزنطيون على عمارة جامع القسطنطينية والخطبة فيه باسم الخليفة الفاطمي والمساجد الأخرى التي تقع داخل حدود الدولة البيزنطية.

---

(١) نفسه.

(٢) يحيى بن سعيد الأنطاكي: التاريخ، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩.

(٣) كان الخلفاء المسلمون يعلنون الجهاد والنفير العام إذ ما واجه المسلمون خطراً داهماً وموقفاً محدقاً من أعدائهم يهدد الدولة بالقضاء والمسلمين بالفناء، وقد ساروا على هذا النهج حتى عهد السلطان عبد الحميد في العصر الحديث.

(٤) المصدر السابق؛ انظر أيضاً، الباز العريني: المرجع السابق، ص ٧٨٤ ـ ٧٨٥.

وهو أمر حرص الفاطميون على تأكيده في معاهداتهم مع البيزنطيين أكثر من مرة، بغية نشر دعوتهم ورفع لوائها بين المسلمين في كل مكان، ثم منافسة للخلافة العباسية لدى الدول الأخرى والمظهر بأنهم حكام المسلمين وأنهم حكامهم الشرعيون على الأقل، ومعروف أنه أشد ما احتدم التنافس بين الفاطميين والعباسيين في هذا المجال في الحرمين الشريفين في الحجاز.

٢ ـ أن يتعهد الروم بإطلاق سراح الأسرى المسلمين لديهم، وهو شرط لم تخل منه غالباً مطالب السفراء الفاطميين في مفاوضاتهم مع البيزنطيين ما وجد أسرى مسلمون هناك، ويلاحظ أن الفاطميين دائماً يطالبون بإطلاق الأسرى المسلمين بعامة دون الاعتبار بمذاهبهم أو ولائهم.

٣ ـ عدم مساعدة الأباطرة البيزنطيين للخارجين على الدولة الفاطمية والثائرين عليها، وعلى رأسهم حسان بن مفرج بن الجراح الذي خلع طاعة الخليفة الفاطمي الظاهر في الرملة في هذه الأثناء. وهو بند اعتاد الطرفان على اشتراطه في معاهدات الصلح بينهما، وكثير ما يشترط بالمقابل في أن يلتزم به كل طرف للآخر كما سيأتي.

٤ ـ أن يسحب الأمبراطور البيزنطي قسطنطين الثامن المطالبة بتسليم مدينة فامية إليه[1]. وكان البيزنطيون يحرصون على الاستيلاء على فامية لموقعها الهام وغناها الزراعي.

أما بالنسبة للأمبراطور البيزنطي قسطنطين الثامن فقد اشترط ما يأتي:

١ ـ أن يسمح له بإعادة بناء كنيسة القيامة التي تعرضت للهدم أكثر من مرة في عهد الحاكم كما مر، حيث تعتبر من أكبر المراكز الكنسية في

---

(١) فامية: مدينة تقع في سورية بالقرب من حمص على ساحل البحر وتسمى أحياناً أفامية وهي مدينة حصينة فتحها المسلمون في وقت مبكر يرجع إلى خلافة عمر بن الخطاب. ياقوت: معجم البلدان، جـ ١ ص ٢٢٧.

المشرق، كذلك السماح للنصارى ببناء الكنائس الأخرى التي هدمت في عهد الحاكم من قبل عدا تلك التي حولت إلى جوامع إسلامية.

٢ ــ أن يوافق الفاطميون على أن يعين الأمبراطور البيزنطي بطريرك بيت المقدس ليتولى الإشراف على إصلاحات الأمبراطور السابقة، وليؤكد رغبة الأمبراطور في الاهتمام بكنيسة بيت المقدس ورعايتها.

٣ ــ أن يلتزم الفاطميون بعدم الاعتداء على مدينة حلب وعدم قطع الجزية التي كانت تؤديها للبيزنطيين آنذاك. وهي جزية سنوية كان يدفعها سكان حلب للبيزنطيين بموجب معاهدة معقودة بينهم تعود إلى قبيل مجيء الفاطميين إلى الشام.

٣ ــ عدم مساعدة الفاطميين لأعداء الدولة البيزنطية والثائرين عليها وقصد البيزنطيون بأعدائهم مسلمي صقلية الذين اشتدت غاراتهم البحرية على الجزر والسواحل البيزنطية في هذه الأثناء، خشية أن يدعمهم الأسطول الفاطمي فيزداد خطرهم على السواحل البيزنطية(١).

ويلاحظ التكافؤ في موقف الدولتين في هذه المعاهدة، واشتراط كل طرف فيها على الطرف الآخر شروطاً متقابلة بما يحقق مصلحة أحد طرفي المعاهدة.

ويذكر المقريزي أنه عقدت هدنة أخرى بين الظاهر والامبراطور ميخائيل الرابع Michael IV (٤٢٦ ـ ٤٣٣ هـ/ ١٠٣٤ ـ ١٠٤١ م)، وأن مدتها كانت عشر سنين(٢) إلا أنه لم يشر كيف جرت هذه الهدنة، وما هي

---

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكي: التاريخ، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١؛ المقريزي: إتعاظ الحنفا، جـ٢ ص ١٧٦. انظر أيضاً:

- Hamadani. «Byzantine - Fatimid» pp 173 - 174.

سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٢٤٤.

(٢) المقريزي: إتعاظ الحنفا، جـ٢ ص ١٨٢.

بنودها، وهل ذهبت سفارة فاطمية إلى القسطنطينية لعقدها، أو قدمت سفارة بيزنطية إلى القاهرة للغرض ذاته، ولا تسعفنا المصادر الأخرى بتفصيل أوسع.

هـ ـ السفارات في عهد الخليفة المستنصر بالله (٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ/١٠٣٥ ـ ١٠٩٤ م):

يذكر المؤرخون أن أول اتصال سلمي بين الفاطميين والبيزنطيين في عهد الخليفة المستنصر تم في سنة أربع مائة وتسع وعشرين عندما أقرت الهدنة بين الجانبين، والمرجح أن مبعوثاً أو أكثر ذهب إلى العاصمة البيزنطية لهذا الغرض ودارت مناقشة الجانبين هذه المرة أيضاً حول إطلاق سراح الأسرى المسلمين وإعادة بناء كنيسة القيامة ببيت المقدس، وأقر كل جانب بمطالب الآخر وعقدت الهدنة على هذا الأساس بين المستنصر والأمبراطور البيزنطي ميخائيل الرابع[١]. ويظهر أن هذه البعثة قد بحثت مع البيزنطيين مسألة تثبيت قواعد الهدنة التي كانت قد عقدت معهم في عهد الخليفة السابق الظاهر، وأنهم سعوا إلى تقريرها واستمرارها في عهد المستنصر، ونلمح هذا مما أشار إليه المقريزي من أنه في «سنة أربعمائة وسبع وثلاثين (١٠٤٥ م) اشتهر انتقاض الهدنة التي قررها الظاهر بينه وبين متملك الروم، وسعى الرسل (رسل المستنصر) في تقريرها بين المستنصر وبينه»[٢]. إلا أن هذه الهدنة نقضت نهائياً في عام أربع مائة وسبع وثلاثين (١٠٤٥ م) وظهرت بوادر نقضها منذ عام أربع مائة وثلاث وثلاثين، وسعى رسل الدولتين لتثبيتها[٣]، وجاء رسول بيزنطي لهذا الغرض إلى القاهرة، وحمل معه هدية كبيرة للخليفة المستنصر وأطلق له عدداً من الأسرى

---

(١) المقريزي: إتعاظ الحنفا، جـ ٢، ص ١٨٧؛ ابن الأثير: الكامل، جـ ٩ ص ٤٦٠.
(٢) المقريزي: المصدر السابق، جـ ٢ ص ١٩٤.
(٣) المصدر السابق.

المسلمين، فرد الخليفة على هدية الأمبراطور قسطنطين التاسع constantine Ix بمثلها وأحسن[1]. وقد استقبل الخليفة بعد ذلك رسولاً بيزنطياً في عام أربع مائة وأربعين (١٠٤٨ م) قدم بالمصالحة بين الخليفة وبين بني مرداس في حلب[2]، وهو دور قلما يقوم به البيزنطيون بين القوى الإسلامية المتصارعة، وقد دفعهم إلى ذلك تحالف بنى مرداس معهم في السابق، ثم عزم المستنصر على قتالهم وتجهيز حملة للزحف إليهم. كما بعث الخليفة المستنصر بسفارة جديدة إلى الأمبراطور قسطنطين التاسع في سنة أربع مائة وست وأربعين بسبب المجاعة والأوبئة التي نزلت بالأراضي الفاطمية، وفي مصر بخاصة[3]، وبسطت له سفارة الخليفة الوضع الاقتصادي السيء الذي تعيشه بلادهم، وقدموا طلباً بامدادهم بكميات من القمح تبلغ أربع مائة اردبا[4]، ووافق الأمبراطور على إمداد الدولة الفاطمية بذلك، غير أن الموت عاجله في السنة نفسها قبل أن يتم انفاذ هذه الصفقة. وخلفته في الحكم الأمبراطورة تيودورا Theodora (٤٤٧ - ٤٤٨ هـ/١٠٥٥ - ١٠٥٦ م) فاشترطت على الخليفة المستنصر شرطاً قاسياً مقابل أن تمد بلاده بالغلال، وهو أن يقف بجنب الدولة البيزنطية بجيشه إذا ما هوجمت من قبل أعدائها، فرفض الخليفة هذا الشرط، وردت عليه الأمبراطورة بمنع إرسال الغلال إلى بلده، فأحدث هذا الموقف توتراً شديداً في علاقات الدولتين السياسية وجهز المستنصر جيشاً كبيراً لمهاجمة أعمال أنطاكية البيزنطية[5].

ولا يتوقع أن تتصل السفارات بين الدولتين والحالة هذه في وقت

---

(١) الرشيد بن الزبير: كتاب الذخائر والتحف، ص ٧٤ - ٧٥؛ المقريزي: إتعاظ الحنفا، جـ ٢ ص ١٩٤.
(٢) ابن ميسر: أخبار مصر. القاهرة، ١٩١٩ ص ٤.
(٣) ابن ميسر: المصدر السابق، ص ٧.
(٤) سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٢٤٦.
(٥) المرجع السابق.

قريب، ثم استجدت ظروف سياسية في كلا الدولتين أدت إلى توقف إرسال السفارات بينهما، طيلة ما تبقى من عهد المستنصر.

وقد تمثلت تلك الأسباب، في قيام ثورات وفتن داخلية في الدولة الفاطمية بين عناصر المجتمع من السودان والأتراك والمغاربة والعرب، فضلاً عن أطماع المتغلبين من الولاة والوزراء، بالإضافة إلى مشاكل إدارية واقتصادية رأينا بوادرها من قبل ثم تفاقمت بمجاعة سنة أربع مائة وواحد وستين التي استمرت سبع سنوات عجاف[1].

أما الدولة البيزنطية فقد اضطربت فيها الأحوال السياسية في هذا الوقت أيضاً، وبوفاة الأمبراطورة تيودورا في عام ألف وست وخمسين (٤٤٨ هـ) انتهت الأسرة المقدونية القوية التي كانت تتسنم العرش البيزنطي، وبدأت مرحلة من الصراع على العرش تولى فيها عدد من الأباطرة الضعاف حتى اعتلى العرش البيزنطي الأمبراطور الكسيوس الأول كومنبن، الذي أسس أسرة حاكمة في بيته[2]. إضافة إلى تبدل سياسة الدولة البيزنطية إزاء الفاطميين، فقد أصبحت تميل إلى السلاجقة الذين سيطروا على مقاليد السلطة في الدولة العباسية باسم الخليفة العباسي، واستعادوا كثيراً من مدن وحصون أعالي إقليم الجزيرة المصاقب للحدود البيزنطية في آسيا الصغرى، وأصبحوا خطراً واضحاً على ممتلكاتها في الزحف عليها بقوتهم المتنامية ولا غرو أن مالأهم البيزنطيون أو داهنوهم، وقد وضحت هذه السياسة البيزنطية جلية عندما تزامن وصول رسولين إلى القسطنطينية أحدهما فاطمي، والآخر سلجوقي باسم العباسيين، فاستقبلت الأمبراطورة تيودورا السفير السلجوقي، وسمحت له بالصلاة في جامع القسطنطينية والخطبة فيه باسم الخليفة العباسي القائم (٣٢٢ -

---

(١) المقريزي: إتعاظ الحنفا، جـ ٢ ص ٢٦٥ - ٢٦٧ و ٢٩٦ - ٢٩٧؛ ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠ ص ٦١.

(٢) الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص ٨٢٢.

٤٦٧ هـ/١٠٣١ - ١٠٧٥ م) في حين صرف النظر عن وجود أبي عبد الله القضاعي سفير المستنصر الفاطمي، فعاد أدراجه إلى القاهرة دون تحقيق مهمته(١).

ولا غرابة في ذلك فقد كان السلاجقة بقوتهم الناشئة وسرعة بروزهم بالقرب من البيزنطيين أشد خطراً عليهم من الفاطميين الذين بدأ يضمحل سلطانهم، وأخذ نجمهم في الأفول ابتداء من هذا الوقت كما سيأتي.

وفي رأي المؤرخ الفاطمي المؤيد في الله أن هذا الاتصال كان الغرض منه أبعد من ذلك وهو أخذ «المملكة العلوية» الفاطمية والاستيلاء على أملاكها في الشام ومصر(٢).

وإنه لأمر خطير لو ثبتت هذه الرواية في أن يتحالف السلاجقة المسلمون السنة ضد إخوانهم الفاطميين في الإسلام، إلا أنه ينبغي أن لا يعول على هذه الرواية كثيراً، فقد ذكرها مؤرخ فاطمي متعصب هو المؤيد في الدين داعي الدعاة ولا يوجد إلى الآن لها سند يثبتها من مصدر تاريخي آخر.

وعلى اية حال فقد أسهمت تلك الظروف مجتمعة في توقف الاتصال السياسي بين الدولتين أكثر من أربعين عاماً تالية، حيث نجد اشارة إلى مكاتبة ليست بذات أهمية، تمت بينهما بشأن طلب المستنصر بعض الأعمدة الخشبية الطويلة من البيزنطيين، للحاجة إليها في بناء فسطاط كبير فأرسلت له(٣).

---

(١) - Hamdani: «Byzantin - Fatimid» p 175.
سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٢٤٦.
(٢) الشيرازي: سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، القاهرة ١٩٤٩ م، ص ٩٤ - ٩٥.
(٣) المقريزي: إتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٨٧.

و ـ السفارات في عهود بقية الخلفاء الفاطميين ٤٨٧ ـ ٥٦٧ هـ (١٠٣٥ ـ ١١٧١ م):

تميزت الفترة من وفاة الخليفة المستنصر في سنة أربع مائة وسبع وثمانين (١٠٩٤ م) حتى سقوط الدولة الفاطمية في سنة خمس وستين (١١٧١ م) بتولّي عدد من الخلفاء الضعفاء الذين سيطر عليهم وزراؤهم في أغلب الأحيان، فضلاً عن اضطراب الأحوال الداخلية وقيام الفتن والثورات، وتدهور الأحوال الاقتصادية كما أشرت من قبل.

وفي الخارج بدأ السلاجقة يظهرون على مسرح الأحداث في بلاد الشام وفلسطين في تلك الفترة وكذلك الصليبيون، فلما استحكمت سيطرتهم هناك أصبحت حاجزاً قوياً بين الفاطميين والبيزنطيين الفاعلين السابقين في أحداث المنطقة، فقد زحف السلاجقة في أواسط القرن الخامس الهجري (القرن الحادي عشر الميلادي) على أراضي الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى ومعروف معركتهم الشهيرة ملاذكرت في سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) التي دارت بين ألب أرسلان والامبراطور البيزنطي رومانوس الرابع، مما حدا بالبيزنطيين إلى التعامل معهم سلماً وحرباً، واتصلت العلاقات بين الجانبين مباشرة على حساب العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين كما رأينا من قبل كيف حاب البيزنطيون السفير السلجوقي وأهملوا السفير الفاطمي، نظراً لقوة السلاجقة وارتباط مصالح البيزنطيين بهم آنذاك، والمسألة هي القوة والمصالح في معيار أي عصر.

أما الصليبيون فقد بدأت حملاتهم تتوالى على الشام وفلسطين منذ سنة أربع مائة واثنين وتسعين في وقت كانت الدولة الفاطمية تعيش مرحلة اضمحلالها كما ذكرنا من قبل، ولهذا لم يكن الصراع في الشام بينهم وبين الصليبيين، وإنما كان بين الأيوبيين حكام الشام في هذه الأثناء وبين الصليبيين.

وبات من الآن معروفاً استحالة قيام سفارات بين الفاطميين

والبيزنطيين طيلة عهود الخلفاء الفاطميين المتأخرين في ظل الظروف السياسية والحربية والاقتصادية القائمة، أما ما رواه المؤرخ الفرنجي تودبوديوس Tudebodus من أن الأمبراطور الكسيوس كومنين Alexius Comnenus (٥٧٦ ـ ٥٧٩ هـ/ ١١٨٠ ـ ١١٨٣ م) قد أشار على الصليبيين بالتحالف مع الفاطميين لتسهيل مهمتهم في الوصول إلى فلسطين عبر آسيا الصغرى[1]، فإنه لم يكن لصلة الأمبراطور الطيبة بالفاطميين وإنما كان في الواقع لضرب السلاجقة أعدائه من الخلف، لعلمه بالعداء المستحكم بين الدولتين الإسلاميتين. كما أن ضعف الفاطميين واضمحلال دولتهم في هذه الفترة يجعل دعمهم لأي قوة عديم الجدوى، مع الشك في أن يكون في هذا الموقف على إطلاقه[2].

---

(١) عمران: السياسة الشرقية للأمبراطورية البيزنطية. رسالة دكتوراه آداب جامعة الإسكندرية، ١٩٧٥ م، ص ٦٨ ـ ٦٩.

(٢) للتفصيل في علاقة الفاطميين بالصليبيين، انظر: فهمي توفيق مقبل: الفاطميون والصليبيون.

الفصل السادس

أولاً: مقارنة بين أهداف السِّفارات الإسلامية.

ثانيا: استقبال الدولة البيزنطية للسفارات الإسلامية.

ثالثاً: نماذج السفراء المسلمين:

أ ـ سفير عباسي.

ب ـ سفير أموي.

ج ـ سفير فاطمي.

أولاً: مقارنة بين أهداف السفارت الإسلامية:

هكذا وفدت السفارات العباسية والأموية والفاطمية إلى الدولة البيزنطية من ثلاث دول إسلامية مختلفة مذهباً وسياسة في أوقات متعددة. وقد كانت السفارات العباسية أسبق في الذهاب إلى هناك بحكم نشأة دولتها، ثم تبعتها الأموية الأندلسية ثم الفاطمية. كما تفاوتت المناسبات التي ذهبت فيها سفارات هذه الدول والأغراض التي ذهبت من أجلها كل بما يحقق مصالحها ويهم علاقاتها مع البيزنطيين حسب الهدف والوقت الذي ذهبت فيه هذه السفارة أو تلك.

وكان الطابع الغالب على أهداف السفارات العباسية هو المفاوضة بشأن الأسرى وإجراء الفداء لهم، وقد نافت هذه الأفدية على العشرين، وكانت هدفاً واضحاً لسفارات الدولتين العباسية والبيزنطية، وذلك بحكم كثرة أسراهما بسبب كثرة الحروب وطول الجبهة الحربية بينهما زمناً ومكاناً. ولكنها لم تنحصر أهدافها على هذا الجانب بشكل مطلق كما يرى المؤرخ الأمريكي ميلر Miller[1]. فقد حققت هاتيك السفارات أهدافاً أخرى كالمفاوضة بشأن اللاجئين السياسيين والثائرين المناهضين لإحدى الدولتين فضلاً عن المجاملة وتبادل الهدايا.

وقد اقتصرت السفارات الأموية ـ وهي محدودة ـ على المجاملة الدبلوماسية وتوطيد العرى الصداقة وتبادل الهدايا. أما السفارت الفاطمية فقد تعددت أهدافها من المفاوضة بشأن الأسرى وعقد الهدن وطلب

(١) -- Studies in Byzontine diplomacy. P. 73.

المساعدات الغذائية إلى المفاوضة بشأن الأماكن الدينية. ويلاحظ أن العباسيين والفاطميين لم يدققوا عند افتداء الأسرى المسلمين من البيزنطيين في ضرورة أن يكونوا تابعين للعباسيين أو الفاطميين، وإنما يسعى الطرفان لاطلاق الأسرى بعامة.

كما وجدت أهداف أخرى مختلفة لبعض تلك السفارات وجاء الحوار حولها مع البيزنطيين كأنه مظهر من مظاهر التنافس الدبلوماسي لدى البيزنطيين، ومن هنا يتطلب هذا الموضوع دراسة الأحداث التي سببت احتكاكاً بين هذه الدول وتنافساً بينها في علاقاتها مع بيزنطة، ومعرفة الآثار التي ترتبت على ذلك وموقف البيزنطيين إزاءها والسياسة التي انتهجوها في هذا الصدد.

ومن أبرز هذه الأحداث ما يتعلق منها بجامع القسطنطينية وقضية المعز بن باديس وموقف البيزنطيين من سفارة القاضي القضاعي.

قضية جامع القسطنطينية:

يعود انشاء جامع القسطنطينية إلى عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك أثناء حصار المسلمين للعاصمة البيزنطية في سنة تسع وتسعين (٧١٧م) حيث طالب قائد الحصار، مسلمة بن عبد الملك الروم ببناء جامع للأسرى المسلمين يؤدون فيه شعائرهم الدينية[١]، وظل ذلك الجامع قائماً منذ ذلك الحين. فلما قامت الدولة العباسية أصبح يخطب فيه باسم الخلفاء العباسيين، واستمر الحال كذلك أكثر من قرنين ونصف منذ قيام دولتهم في سنة مائة واثنين وثلاثين دون أن ينازعهم في الخطبة فيه - إذا اقيمت - منازع، حتى إذا ما قامت الدولة الفاطمية واستقرت في مصر بدأت تنافس العباسيين في أن يكون الأذان والخطبة في جامع القسطنطينية باسمها كما مر عند دراسة سفارات الفاطميين إلى بيزنطة.

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٤٧.

وأول من طالب بإقامة الخطبة في جامع القسطنطينية من الخلفاء الفاطميين العزيز بالله بن المعز في سنة ثلاثمائة وسبع وسبعين (٩٨٧ م) عندما جاءت سفارة بيزنطية إلى القاهرة بشأن عقد هدنة مع الدولة الفاطمية، واشترط الفاطميون من ضمن ما اشترطوا أن يخطب للخليفة العزيز في هذا الجامع فوافق البيزنطيون[١]. وقد جدد الفاطميون هذا المطلب مرة أخرى في عهد الخليفة الظاهر عندما بعث سفارة فاطمية إلى بيزنطة في سنة أربع مائة وثمان عشرة (١٠٢٧ م) وأوعز إلى مبعوثيه بحث الخطبة في هذا الجامع مع البلاط البيزنطي ضمن الأمور الأخرى التي يناقشونها معهم، فعقدت معاهدة بين الجانبين نص في أحد بنودها أن يعمل البيزنطيون على عمارة الجامع المذكور وترميمه والخطبة فيه باسم الخليفة الفاطمي[٢].

ثم عادت الخطبة في جامع القسطنطينية للعباسيين في أواخر العهد الفاطمي عندما ضعفت دولتهم وقوي نفوذ السلاجقة ففاوضوا البيزنطيين في إعادة الخطبة فيه باسم الخليفة العباسي.

ويندرج هذا التنافس بين العباسيين والفاطميين بشأن هذا الجامع في إطار الاختلاف المذهبي والعداء السياسي بين الدولتين، ويتفق كذلك مع سياسية الفاطميين في محاولة الخطبة لهم على منابر ديار المسلمين حتى ولو كانت في كنف الدولة العباسية أو البيزنطية، وأكثر ما وضحت جهودهم في هذا الجانب في الحرمين الشريفين واليمن. كما هدف الفاطميون أخيراً إلى إيجاد مطلب مقابل يفاوضون البيزنطيين عليه عندما يفاوضهم هؤلاء حول أوضاع كنيسة بيت المقدس والرعايا النصارى وكذلك بعض

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ ٤ ص ١٥١ - ١٥٢.
(٢) المقريزي: إتعاظ الحنفا، جـ ٢ ص ١٧٦، انظر أيضاً:
- Hamdani: Byzantine - Fetimid relation before the battle of Manzikert. pp. 173 - 174.

المقدسات النصرانية الأخرى الواقعة في البلاد الفاطمية، وورد المطلبان جنباً إلى جنب في المعاهدات المعقودة بين الدولتين في هذا الشأن.

أما موقف الدولة البيزنطية من التنافس العباسي الفاطمي في هذا المجال فتلخصه الباحثة اسمت غنيم بقولها: «المعروف أن البيزنطيين قد اتخذوا من جامع القسطنطينية أداة لتكييف علاقاتهم بحكام المسلمين فإذا كان نفوذ الدولة العباسية هو الأقوى خطبوا للخليفة العباسي، وإذا تغلب نفوذ الخليفة الفاطمي خطبوا له في هذا الجامع، وذلك تبعاً لما تقتضيه مصلحتهم السياسية لذلك فقد أصبح جامع القسطنطينية مرآة تعكس علاقة الدولة البيزنطية بالقوى الإسلامية المختلفة، هذا بالاضافة لاستغلاله في تهديد المسلمين حتى لا يتعرضوا لكنيسة القيامة في بيت المقدس[1]».

وبالتأكيد لولا الخلاف الذي كان قائماً بين الدولتين المسلمتين لما أتيح للبيزنطيين اتخاذ تلك السياسة واستغلال ذلك الخلاف لصالحهم وهو موقف يعمد إليه أعداء المسلمين في كل زمان عندما يقوم الخلاف وتخيم الفرقة بينهم.

ـ قضية المعز بن باديس:

من القضايا التي يمكن مقارنة صلات العباسيين والفاطميين الدبلوماسية بالدولة البيزنطية عبرها حركة المعز بن باديس في افريقية الذي كان والياً عليها من قبل الدولة الفاطمية، وظل كذلك حتى أظهر الانشقاق عليها سنة أربع مائة وثلاث وأربعين (١٠٥١ م) وخلع طاعتها وأعلن ولاءه للخلافة العباسية، وأمر أن يخطب في جوامع ولايته باسم الخليفة العباسي القائم بأمر الله فبعث له عهداً وخلعاً ولواء أسود ـ شعار العباسيين ـ لتمكينه

(١) غنيم: العلاقات السياسية بين الدولتين البيزنطية والفاطمية، ص ١٦٨.

وتقليده والياً عباسياً في افريقية من جديد. وبعث له الخليفة مندوباً من قبله هو أبو غالب الشيزري ليحمل التقليد العباسي إليه[١].

وكان لزاماً على المبعوث العباسي أن يمر بالأراضي البيزنطية ليركب البحر من هناك إلى افريقية ويتجنب الأراضي الفاطمية، حيث أن الفاطميين لن يسمحوا بالطبع لمثل هذا المبعوث بعبور أراضيهم دون مساءلة. ولكن الحذر لم ينج من القدر ذلك أن الأمبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع تربطه بالدولة الفاطمية علاقات جيدة ضمن معاهدة عقدت معها قبل هذا الحادث بسنوات، كما اتفق وصول مبعوث فاطمي إلى بيزنطة في هذه الأثناء فما كان من الأمبراطور إلا أن قبض على المبعوث العباسي الشيزري وسلمه لرسول المستنصر الفاطمي وأمره بأخذه معه إلى القاهرة، وهناك شهر به وأحرق العهد واللواء والخلع العابسية التي كانت بحوزته[٢].

وتذكر الروايات التاريخية في غموض أن المستنصر رد المبعوث العباسي بعد ذلك إلى الأمبراطور، ويظهر أن الخليفة العباسي عندما علم بمصير مبعوثه كاتب الأمبراطور بشأنه معاتباً أو متوعداً، فكاتب هذا الخليفة الفاطمي في إرجاع المبعوث فوافق على ذلك لينقذ موقف الأمبراطور بعد أن فشلت مهمة المبعوث العباسي ونال قسطاً من الاهانة والتشهير.

وقد تأكد موقف الأمبراطور البيزنطي مرة أخرى عندما قابله مبعوث سلجوقي وأخبره بأن السلاجقة يطمحون في الإستيلاء على مصر، فرد عليه الأمبراطور بأنه تربطه بالخليفة المستنصر علائق مودة وأنه لا يسمح بذلك دون إعلام الخليفة الفاطمي[٣].

وهنا تتضح مدى قوة العلاقات السياسية بين الفاطميين والبيزنطيين في

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ٩ ص ٥٦٦؛ المقريزي: إتعاظ الحنفا، جـ ٢ ص ٢١٤ - ٢١٦.

(٢) المصدر السابق، جـ ٢ ص ٢١٤.

(٣) نفسه.

هذه الفترة ومراعاة جانب احترام الآخر والوفاء له. وتتفق هذه السياسة مع الاتجاه البيزنطي إلى عقد صداقة متينة مع الفاطميين تطمح إلى خدمة مصالح البلدين ومناصرة كل منهم للآخر ضد أعدائه. كما لا يخفى الدور البيزنطي في هذه المواقف من محاولة الايقاع بين القوى الإسلامية ما أمكن ثم التظاهر بمصادقة هذا ومجاملة ذاك.

موقف البيزنطيين من سفارة أبي عبد الله القضاعي:

تمثل سفارة القاضي أبي عبد الله القضاعي الفاطمية في سنة أربع مائة وسبع وأربعين (١٠٥٥ م) مظهراً من مظاهر الاحتكاك الدبلوماسي بين العباسيين والفاطميين لدى البيزنطيين. ذلك أن وصول السفير الفاطمي تزامن مع وصول سفير سلجوقي باسم العباسيين إلى العاصمة البيزنطية فطلب الأخير أن يسمح له بالصلاة في جامع القسطنطينية وأن تقام الخطبة فيه باسم الخليفة العباسي القائم، وقدم نفس الطلب أيضاً من سفير الفاطميين، فسمح للسفير العباسي بذلك وصرف النظر عن مطلب السفير الفاطمي الذي عاد دون تحقيق مهمته على الرغم من علو منزلته العلمية التي لم يعرها البيزنطيون اهتماماً.

وعند فحص الأحداث ذات الصلة بعلاقات الدولتين الفاطمية والبيزنطية في هذه الفترة يصبح تعليل الموقف البيزنطي ميسوراً، فقبيل وفادة السفير الفاطمي القضاعي أجرى البيزنطيون حواراً مع الفاطميين طلبوا فيه مناصرتهم ضد هجوم الأعداء ـ دون تحديد ـ على الأمبراطورية فأبى الفاطميون ذلك كما أن الفاطميين طالبوا البيزنطيين بمدهم بمساعدات غذائية من الحبوب فوافق الأمبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع لكن وفاته حالت دون اتمام الصفقة. كما أن السلاجقة الذين وصل سفيرهم في هذا الوقت قد أصبحوا قوة جديدة على مشارف حدود البيزنطيين الشرقية في آسيا الصغرى، ولا بد من مداهنتهم والميل لهم اتقاء لخطرهم المتزايد

على الولايات الأمبراطورية هناك ولن يفوت هذا الاعتبار على الدبلوماسية البيزنطية لاتخاذ موقفها السابق.

وجاء عند الباحث عباس حمداني بدون سند أن المبعوث القضاعي فاوض البيزنطيين بشأن تحديد موقعة حاسمة ضد السلاجقة، وأنه أقنع البيزنطيين بأن تكون أرض تلك المعركة في أقليم أرمينيا بدلاً من الشام، كما يرى البيزنطيون وكانت تلك المعركة هي معركة ملاذكرت التي وقعت فيما بعد في سنة أربع مائة وثلاث وستين (١٠٧١ م) حيث تمت هناك بالفعل(١). ومع أننا في حدود ما رجعنا إليه من مصادر لم نعثر على ما يفيد ذلك فإنه ـ لو صح ـ يدعو إلى التساؤل، فكيف يكون نجاح مهمة السفير الفاطمي هذه والتنسيق السياسي بين الجانبين قد بلغا هذا الحد وسفارة القضاعي سبقت معركة ملاذكرت بستة عشر عاماً ويستبعد أن الفاطميين شعروا بارهاصاتها منذ ذلك التاريخ، ثم يجب أن يوضع في الاعتبار أن المبعوث الفاطمي لم يوفق في مهمته تلك حتى أن البيزنطيين صرفوا نظرهم عن وجوده، وقدموا مبعوث السلاجقة أنفسهم كما وضح أعلاه، ولا مكان بعد هذا في مفاوضة للبيزنطيين في مثل هذه الأمور.

وعموماً فإن فشل السفارة الفاطمية هذه المرة يندرج في مرحلة الأفول في سياسة الفاطميين الخارجية بل في عمر دولتهم التي لم تظهر بوادرها في الخارج فحسب بل حتى في الداخل من ظهور الفتن والثورات وتدهور الحالة الاقتصادية في أقاليم بلدانها المختلفة. وفي الوقت نفسه لا يمكن فهم نجاح السفير السلجوقي باسم العباسيين على أنه صعود جديد لنجم الدبلوماسية العباسية بقدر ما كان نجاحاً للسلاجقة أنفسهم الذين كانوا يخضعون اسمياً للخليفة العباسي ويتوجون أعمالهم باسمه إجلالاً لمقام الخلافة الإسلامية وتقديراً للبيت العباسي الخلافي نفسه.

---

(١) - Hamdani: «Byzantine - Fatimid relations..» PP. 178 - 179.

ولا يفهم من الحوادث السابقة أن كلًا من العباسيين أو الفاطميين حالفوا البيزنطيين ضد الآخر بواسطة سفاراتهم اليهم فإن هؤلاء تارة يميلون إلى الفاطميين في القبض على المبعوث العباسي وإرساله إلى الخليفة المستنصر، وتارة أخرى يميلون إلى الجانب العباسي ويرحبون بسفارته إليهم في حين يهملون سفارة القضاعي الفاطمية ويصرفونها على غير قبول.

ذلك أن الدولة البيزنطية كانت تصدر في مواقفها السياسية المتباينة إزاء هذا أو ذاك عما يحقق مصالحها في علاقاتها بكلا الجانبين، ففي حين ترى أن مصلحتها تتحقق بمداهنة العباسيين ومسالمتهم فإنها تميل إليهم وتحابي سفاراتهم، وحين ترى العكس فيكون ميلها نحو الفاطميين أقوى. أما أنها كانت تسعى إلى محالفة جانب ضد آخر فإنها لن تتوانى بالطبع عن ذلك لو تيسر لها فكلاهما عدو، ومحالفة أحدهما معناه كسبه قوة على الآخر ووضح ذلك جلياً عندما طلبت تيودورا من الخليفة المستنصر توقيع معاهدة مع البيزنطيين بمساعدتها في محاربة أعدائها في الخارج وأقرب الأعداء للفاطميين هم السلاجقة الذين بدأوا في مهاجمة حدود البيزنطيين الشرقية والجنوبية وأنهم يندرجون على الأقل تحت مفهوم هذه المعاهدة مع أعداء البيزنطيين الآخرين.

وكان رفض الخليفة الفاطمي التوقيع على مثل هذا الطلب أو القبول به بمثابة الرد الإيجابي على البيزنطيين بأنه لا حلف مع الأعداء النصارى حتى ولو كان ضد العباسيين أعداء الفاطميين التقليديين، وهذا الموقف كفيل بالرد على من يرى أن الفاطميين كانوا يسعون لعقد حلف مع البيزنطيين ضد العباسيين وفي موقفهم السابق أبلغ رد في هذا الشأن حيث جاءتهم الفرصة مواتية عندما طلب منهم البيزنطيون ذلك، وكان من الممكن بسهولة أن يطلبوا معاهدة أو حلفاً مماثلاً بالمقابل، بل أكثر من ذلك أنهم رموا أمويي الأندلس بمحالفة الروم، واتهموهم بذلك وعدوه منقصة أو

انحرافاً إلى موالاة أهل الكتاب ضد إخوانهم المسلمين - أي الفاطميين - وهو أمر لا يقره الإسلام في حال وقوعه(١).

ويحسن هنا معرفة فحوى اتهام الفاطميين للأمويين بموالاة البيزنطيين ومناقشته لمعرفة هل كانت علاقة الأمويين الدبلوماسية بالدولة البيزنطية على حساب العباسيين والفاطميين على السواء. أما بالنسبة للعباسيين فقد سبق الحديث عنهم عند مناقشة سفارة الأمبراطور ثيوفيلس للأمير عبد الرحمن الأوسط وحثه على عقد حلف معه ضد العباسيين لمناسبة المقام هناك ولا داعي لتكراره هنا.

وأما بالنسبة للفاطميين فإن اتهامهم للأمويين بموالاة الروم فيعود إلى حوالي سنة ثلاث مائة وست وأربعين (٩٥٧م) في أواخر عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر عندما أرسل أحد مبعوثيه يطلب مسالمة الفاطميين في افريقية أيام المعز بعد أن بدأت بوادر صراع بحري وشيك الوقوع بين الجانبين عقب تعرض إحدى السفن الفاطمية بالقرب من جزيرة صقلية للاعتداء من قبل مركب أموي فرد الفاطميون بغارة بحرية على ميناء المرية الأموي(٢). وتوجه مبعوث أموي إلى الفاطميين يطلب السلم والكف والموادعة وقابل الخليفة المعز فهزأ به وبكته أيما تبكيت واتهم صاحبه الخليفة عبد الرحمن الناصر بما لا يليق ومن ذلك عدم أهلية البيت الأموي للإمامة، وبموالاة البيزنطيين واستعدائهم على المسلمين(٣).

ولما وقّع البيزنطيون هدنة مع الفاطميين بشأن الحرب بينهم في أرض

---

(١) قال الله تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله وباليوم الآخر يوادّون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾ سورة المجادلة: الآية ٢٢.

(٢) القاضي النعمان: المجالس والمسايرات، ص ١٦٤ - ١٦٥؛ ابن الأثير الكامل جـ ٨ ص ٥١٢ - ٥١٣.

(٣) القاضي النعمان: المجالس والمسايرات، ص ١١٥ - ١١٦، ١٦٨، ١٧٤.

قلورية أرسل الأمويون مبعوثاً آخر خاطب المعز مشافهة في الخوف من الفتنة من قتال المسلمين بعضهم البعض وانشغالهم بذلك عن غزو الروم العدو الأساسي للجميع، ففسر الفاطميون ذلك بأن الأمويين خافوا من تفرغ الفاطميين لهم والوقيعة بهم فأرسلوا مبعوثهم بطلب السلم والكف عن الحرب بين المسلمين[1].

ويهمنا هنا مناقشة اتهام الفاطميين للأمويين بموالاة البيزنطيين ومحالفتهم فقد فسر الفاطميون تبادل السفارات بين الأمويين والبيزنطيين الذي تم منذ عشر سنوات سابقة على تدهور الموقف بينهم وبين الأمويين بأنه كان موجهاً ضدهم، وأن تحالفاً أو موالاة من هذا القبيل بأسلوبهم جرى الاتفاق عليها قصد بها الفاطميون.

وقد رأينا عند دراسة تلك السفارات وتتبع أهدافها من قبل أنه لم يكن من بينها شيء يتعلق بالفاطميين، ولم يرد ذكرهم البتة بل أن شيئاً ذا بال لم تتناوله تلك السفارات عدا مظاهر المجاملة والاحترام وتبادل الهدايا من كل طرف للطرف الآخر.

والمصدر الذي ذكر محالفة الأمويين للبيزنطيين مصدر فاطمي هو القاضي النعمان قاضي الخليفة المعز وكاتب مجالسه، ومن ثم لا غرابة في كراهيته للأمويين واتهامهم بموالاة النصارى. ولم يرد في المصادر غير الفاطمية تأكيداً لهذا الخبر لا سيما وأن تلك المصادر أسهبت في ذكر تحريض الأمبراطور ثيوفيلوس للأمير عبد الرحمن الأوسط ضد العباسيين مثلاً من قبل، ثم ما هو الداعي لإغفال تلك الحوادث لو تمت. ولا يوجد اتصال أموي بيزنطي معروف عدا تلك السفارات حتى يمكن تتبعه واستقراؤه لمعرفة بنوده، وما إذا كان من بينها المحالفة ضد الفاطميين ونحو ذلك،

---

(١) المصدر السابق، ص ١٦٧.

وبالتالي يصبح من المعول عليه أن شيئاً ضد الفاطميين في هذا الجانب لـم يوجـد وأن اتهامهم للأمويين على الرغم من عدائهم لهم لا قيمة له.

ثانياً: استقبال الدولة البيزنطية للسفارات الإسلامية:

كانت السفارات الإسلامية على اختلاف دولها أكثر السفارات وفادة على الدولة البيزنطية من أي سفارات سياسية أخرى؛ وكانت هذه السفارات أكثر مجيئاً إلى العاصمة البيزنطية من أي عاصمة أخرى على الرغم من أن سفارات إسلامية ذهبت إلى بلدان أخرى مثل الصين والهند وممالك أوربا، ولكنها لم تكن في الغالب في أهمية تلك السفارات ومستواها التي ذهبت إلى بلاد الروم. ذلك أن هذه البلاد جاورت المسلمين موقعاً، واتصلت علاقتهم بها سلماً وحرباً لقرون طويلة، وخاطبوها بحد السيف مرات كثيرة، كما خاطبوها بلسان السفير أحياناً، ولئن وقف الجند المسلمون عند أسوار القسطنطينية تلك العاصمة الحصينة فإن السفراء المسلمين ولجوا إليها مرات ومرات، ورأينا لهم مواقف زاهية في مقابلة الأباطرة ومحاورتهم. فكيف استقبلت بيزنطة هؤلاء السفراء وعاملتهم؟

تمتلك الدولة البيزنطية تقاليد دبلوماسية عريقة تعود إلى عهد الأمبراطور جستنيان، فضلاً عن أنها وريثة مجد روماني تليد فهي بلا شك من أشهر دول العالم وقتذاك بتقاليدها وأعرافها الدبلوماسية. وكان ديوان المراسم والاحتفالات من أشهر دواوينها، وألفت فيه الكتب التي تشرح قواعده ومواد بيانه منذ وقت مبكر، ومن أشهر هذه المؤلفات كتاب الأمبراطور قسطنطين السابع المراسم. واستقبلت عاصمتها القسطنطينية العديد من السفارات من مختلف الأصقاع والبلدان وعلى رأسها السفارت الإسلامية حيث وفد بعضها من مدينة السلام وأخرى من خلف المتوسط من قرطبة وثالثة من قاهرة المعز.

نظرت الدولة البيزنطية إلى السفراء المسلمين من ثلاثة معايير أولها أن هؤلاء يصدرون عن مبادىء سامية تنبثق عن دين سماوي هو الإسلام بمبادئه ونظمه ومثله وبالتالي فإن معاملتهم سوف تختلف عن معاملة مبعوثي أمم تحكمها الوثنية أو أعراف قبلية بالية. وثانيها أن هؤلاء نتاج أمة مجاهدة ذات هيبة عسكرية، وقد أدرك البيزنطيون ذلك منذ وقت مبكر فقد دقّ المسلمون أبواب عاصمتهم وحاصروها مدة عام سنة تسع وتسعين (٧١٧ م) في عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك، ومن ثم يختلف سفراؤهم عن سفراء إمارات أو قوى ضعيفة جاء موفدوها لطلب العون والهبات والحماية من الثورات وخوف الزوال. وثالثها أن السفراء المسلمين كانوا موفدي أمة ذات تلك الحضارة الزاهرة التي بلغت شأواً بعيداً، ونافست عواصمهم كبغداد وقرطبة في حضارتها العاصمة البيزنطية، ووفدت بعض سفارتها الثقافية أيضاً إليها إلى جنب سفارتها السياسية، ومن ثم فإن معاملة سفراء الأمة الإسلامية تختلف عن معاملة سفراء غيرها من الأقوام.

ولهذا كله نجد أن السفراء المسلمين يحتلون مكانة مناسبة في البلاط البيزنطي ويحتفى بمقدمهم، ويلوقون من حسن المعاملة والتكريم ما يليق بمقام دولتهم ومركزها ومقامهم، فإذا ما تصادف وجود أكثر من سفير في البلاط البيزنطي قدم السفراء المسلمون. فالبيزنطيون يقدمون السفراء المسلمين عموماً على غيرهم من السفراء الأجانب، ويحتل السفراء العباسيون مكانة أعلى في البلاط الامبراطوري من تلك التي يحتلها السفراء الأمويون أو الفاطميون[١]. وذلك لهيبة الخلافة العباسية في عالم الإسلام وأهميتها بالنسبة للبيزنطيين.

وكان يعد لنزول السفراء المسلمين دور قريبة من قصر الأمبراطور، يقول السفير العباسي نصر بن الأزهر عن الأمبراطور ميخائيل الثالث عندما

---

(١) - Toynbee: Constantine Parphrogenitus. p. 383.

بعث إلى القسطنطينية: «وقربني وأكرمني وهيأ لي منزلاً بقربه[١]». وكانت الدور المخصصة في العاصمة البيزنطية لنزول السفراء على غرار دار صاعد في بغداد التي نزل فيها أكثر من سفير بيزنطي عند مقدمه إلى هناك[٢].

فإذا كان يوم المقابلة مع الأمبراطور رتب القصر الأمبراطوري، وصف الحرس والحجاب في ساحته وعلى مداخله في بزة قشيبة متحلين بأجمل الهندام ومتمنطقين بشاكي السلاح، وفي داخل القصر يتصدر الأمبراطور المجلس المعد للاستقبال لابساً أغلى الثياب متوجاً بالتاج الأكبر في البلاط، وهو تاج نفيس يتوارثه الأباطرة مكللاً بأنواع الياقوت والجواهر[٣]، قابضاً على صليب ذهب شارة تقليدية، جالساً على كرسي كبير وهو أريكة مستطيلة ذات متكآت من الذهب اعتاد الأباطرة الجلوس عليها في مناسبات الاستقبال[٤].

ويكون الامبراطور في العادة أثناء الاستقبال محاطاً بكبار رجال دولته ومنهم رئيس البلاط والبطريرك والوزراء والقواد والحجاب والتراجمة ويجلس الجميع في مجلس الأمبراطور على كراسي وثيرة، فإذا ما أعد الاستقبال على هذه الصورة دخل السفير المسلم يحف به اثنان من رجال البلاط أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله حتى يجلساه عند الأمبراطور بحضور رئيس المراسم وأحد التراجمة[٥]. وكان من التقاليد الرسمية في الاحتفالات والاستقبالات أنه يجب على كل من يقابل الأمبراطور أن ينحني أمامه ويطأطىء رأسه في خضوع تحية له. وقد علم أن ذلك غير جائز في شرع

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٩ ص ٢٢٠.
(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، جـ ١ ص ١٠١.
(٣) الرشيد بن الزبير: كتاب الذخائر والتحف، ص ١٩٨.
(٤) Canard: «Le Ceremonial Fantimite et Le Ceremonal Byzantin». Byzantion Vol 21 (1951) PP. 360, 387.
(٥) Canard: «Le Cermonial..».. P. 412.

المسلمين لأحد عدا جنب الله سبحانه، فكان البيزنطيون يعمدون ـ في سبيل إمضاء تقاليدهم ـ إلى حيلة بتضييق مدخل مجلس الأمبراطور حتى يجبروا هؤلاء السفراء على الانحناء فيعتبر هذا خضوعاً للأمبراطور وقد استخدمت هذه المكيدة مع سفير عباسي وآخر أموي، وقد تصرف هذان السفيران بحذق ازاء هذا الموقف دون أن يحققا مقصد الأعراف البيزنطية[1]. وقد رأينا من قبل أن أحد السفراء البيزنطيين صرح بذلك عياناً عند مقابلة الخليفة المقتدر العباسي سنة ثلاث مائة وخمس (٩١٧ م) عندما أوضح للخليفة بأنه يريد تقبيل الأرض أمامه احتراماً له ولكنه يخشى أن يطالب سفراء الخليفة بمثله في البلاط البيزنطي فيكون عنتاً عليهم.

ومثل جميع البلاطات كان للبلاط البيزنطي قاعة كبيرة للاجتماعات الرسمية وكثير ما كانت البعوث الوافدة تعقد اجتماعاتها فيها. كما كانت مدة إقامة السفراء المسلمين في العاصمة البيزنطية تطول أو تقصر حسب المهمة الموكلة لكل منهم وموقف البيزنطيين منها، فلربما جاء أحد أولئك السفراء للمجاملة وتقديم الهدايا فلا تطول مدة إقامته، ولرب جاء آخر لعقد هدنة وإجراء مفاوضات لفداء الأسرى فتطول، وقد يعمد البيزنطيون أحياناً إلى الإطالة بغية ادخال الملل والضجر على نفس هذا السفير، ومماطلته لنيل تنازلات منه في الأمور المتفاوض عليها، وقد عانى بالفعل من ذلك سفيران عباسيان هما نصر بن الأزهر وابن شهرام حيث أقام كل منهما ما يقارب من أربعة شهور[2].

وكان السفراء المسلمون فضلاً عن مقابلتهم للأباطرة يقابلون كبار الولاة والقواد وموظفي البلاط وعلى رأسهم رئيس المراسم ومتولي الشؤون الخارجية في الدولة الذي يتولى مقابلة السفراء منذ وصولهم وترتيب

---

(١) انظر موقفهما مفصلاً، ص ٢٣٥ و ٢٣٨ من البحث.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٩ ص ٢٢٠؛ أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم، ص ٣٣.

مقابلتهم للأباطرة وتحديد الأوقات التي تتم فيها[1]. كما كانت أحياناً تعقد المناظرات العلمية والمطارحات الأدبية مع بعض السفراء المسلمين مثل القاضي أبي بكر الباقلاني والشاعر يحيى الغزال. وقد اتبع البيزنطيون هذا الأسلوب لأمرين أولهما لما كان عليه هؤلاء السفراء من سعة علم ودراية بمعارف زمانهم وحذاقة مواقفهم هناك، ثانيهما أنه قد تنكشف من خلال مناظرتهم غير الرسمية أمور تسهل للبيزنطيين فهم هؤلاء السفراء وبالتالي معرفة كيفية محاورتهم رسمياً في مفاوضاتهم التالية لهم، وهي أمور لا تغيب عن الدبلوماسية البيزنطية آنذاك بالتأكيد.

وكان البيزنطيون عادة يعدون برنامجاً مناسباً للسفراء المسلمين أثناء اقامتهم هناك، فالعاصمة البيزنطية تزخر بمعالمها التاريخية وردهاتها الجميلة والتي غالباً ما يشاهدها الزائر لها، والبيزنطيون يحاولون أن يظهروا لهؤلاء الزائرين كل لائق وجميل من مظاهر حياتهم وعمرانهم لينقلوا تلك المظاهر والصور إلى دولهم وشعوبهم عندما يعودون كما جرت الأعراف الدبلوماسية بذلك في كل زمان.

ومن برنامج هؤلاء السفراء زيارة الأسرى المسلمين ومقابلتهم والإطمئنان على حالهم خاصة أولئك السفراء الذين جاؤوا في مهمة فداء الأسرى وقد رأينا من قبل أن مبعوثاً عباسياً من قبل الوزير العباسي علي بن عيسى قام فور وصوله بزيارة الأسرى المسلمين، وأن البيزنطيين أحسنوا معاملتهم قبيل هذا الزيارة ورفعوا عنهم الشدة التي كانوا يعانون منها من قبل[2]، وكان من الطبيعي أن يتضمن برنامجهم زيارة جامع القسطنطينية والصلاة فيه، وقد تكون هذه الزيارة من مهام السفارة التي جاءت من أجلها لتكون الخطبة فيه تابعة لدولة السفير الزائر كما عرفنا من قبل. كما كان السفراء المسلمون يزورون الهبدروم وهو مضمار كبير في القسطنطينية كانت

(١) - Miller: Studies in Byzantine Diplomecy. PP. 33 - 37.

(٢) التنوخي: نشوار المحاضرة، جـ ٢ ص ٥٤ ـ ٥٥.

تعقد فيه سباقات الخيل ومباريات المبارزة والألعاب الرياضية والاحتفالات الشعبية التي كانت تقام في العاصمة ويحضرها أحياناً الأباطرة وكبار رجال الدولة(١).

وبعد انتهاء مهمة السفير يكون آخر لقائه بالأمبراطور أو من ينيبه ويحمل من عنده الهدايا الثمينة من تحف وآنية غالية وأقمشة نفيسة وكتب مفيدة إلى الخليفة أو الأمير الذي قدم من قبله ذلك السفير. وتشابه صورة استقبال السفراء المسلمين في بيزنطة إلى حد كبير تلك التي يلاقيها السفراء البيزنطيون عندما يفدون على الدولة الإسلامية في بغداد وقرطبة والقاهرة والتي عرفنا بعض جوانبها من قبل.

ويعقد المؤرخ الفرنسي كنار مقارنة قيمة بين نظام البلاط الفاطمي ووظائفه ومظاهر استقبالاته واحتفالاته وبين نظام البلاط البيزنطي ومظاهر احتفالاته ومراسمها، يستنتج فيها وجود تشابه يكون مدهشاً أحياناً في عدة نواح بين البلاطين مثل كثرة المواكب وفخامة حفلات الاستقبال وتشابه مناسبات الاحتفالات وقاعات قصور الحكم وتوزيعها، بل حتى في وظائف رجالهما وخدمتهم للخليفة أو الأمبراطور. ويذكر أن هذه المظاهر المشتركة في الدولتين هي وليدة عقلية متشابهة في رأيه ورغبتهما في التفاخر وإظهار القوة والبذخ والغنى أمام الرعية والزائرين الأجانب للدولة الذين كثير ما يطلب منهم مشاهدة هذه المظاهر لينقلوا مشاهدتهم إلى أوطانهم وما يمكن أن يتركه وصفها لهم من تمجيد وتعظيم لتلك الدولة (٢).

ثم يذكر كنار أنه إذا كان هناك تقليد فاطمي لبيزنطة في هذا المجال فإن هذا التقليد هو في حقيقته خليط من العناصر الرومانية والشرقية. وبالنسبة للأولى يمكن ذكر أثار رعايا الدولة الذين ينحدرون من أصول أو عاشوا في أقاليم رومانية، سواء كانوا من الجند وعلى رأسهم القائد جوهر

(١) ابن رسته: الأعلاق النفسية، ليدن، ١٨٩١ م، ص ١٢٠.

(٢) - Canard: «Le Ceremonial...». PP. 416 - 417.

الصقلي، أم من سكان مصر وفلسطين والشام وصقلية[1]. كذلك فإن تقاليد البلاط البيزنطي ومراسمه لم تكن مجهولة في القاهرة بفضل الصلاة الدبلوماسية وتبادل السفارات بينها وبين القسطنطينية. ولكن ينبغي ألا نغفل في هذا المقام أهمية العناصر الشرقية التي ذكرها كنار نفسه، بل وتأكيدها إذ أن تشابهاً كان موجوداً بوضوح بين البلاطين العباسي والفاطمي في جوانب مختلفة مما لا يسعنا تفصيله هنا إلا أنه ينبغي أن نشير إلى ناحيتين في مجال تطور نظم البلاط الفاطمي وتألق مراسمه واحتفالاته. الأولى تندرج تحت مبدأ التطور الذي سارت عليه الدولة وصاحَبَها في مراحل حياتها بدءاً من الفترة الأفريقية وانتهاء ببلوغها أوج حياتها بعد استقرارها وازدهار حاضرتها القاهرة طيلة قرنين من عمرها، لا سيما وأن استقرارها في مصر ساعدها على تطوير أجهزتها وتقاليد الاحتفالات فيها بما للمقر الجديد من موقع حضاري يسهل التأثير فيه والاقتباس منه. أما الناحية الثانية فهي تتعلق بموقع الدولة الفاطمية أيضاً والوضع السياسي بينها وبين جيرانها. ولتوضيح هذا الجانب فإنه لا يخفى التنافس القائم بين الفاطميين والعباسيين والذي يمكن أن ينسحب إلى تنافس الدولتين في مظاهر البلاط ونظمه لكي يظهر الفاطميون لرعاياهم ولجيرانهم العباسيين والبيزنطيين أيضاً ما هم عليه من علو السلطان ورفعة الشأن وحسن الاستقبال.

ومن المعروف أن البلاطات الإسلامية الأخرى لا تقل فخامة وترتيباً عن البلاط الفاطمي مع اختلافات محلية في مناسبات الاحتفالات ومراسمها إلا أن الجانب الدبلوماسي يحتل مكانة كبيرة من اهتمامها. فقد كان البلاط العباسي في بغداد يملك عدداً من القصور الجميلة المطلة على نهر دجلة، والتي كثيراً ما شهدت بهواتها استقبال السفراء وتوديعهم، وخير مثال ملموس الاستقبال الرائع والفخامة الواضحة التي أظهرتها الدولة عند استقبالها سفير الأمبراطور قسطنطين السابع في عهد الخليفة المقتدر[2].

(١) - Ibid.

(٢) انظر: البحث، ص ٩٩ ـ ١٠١.

أما الدولة الأموية فقد شهدت عاصمتها قرطبة ازدهاراً رائعاً في عصري الإمارة والخلافة، وتم تشييد عدد من القصور مثل منية الرصافة والمجلس الزاهر، كما شيد الخليفة الناصر مدينة الزهراء في ضواحي قرطبة لتكون مقراً جديداً لدواوين الخلافة ومنزلاً للخليفة يستقبل فيه السفراء والزوار الوافدين عليه، ولا زالت آثار هذه المدينة الدارسة تحكي جانباً مشرفاً من مجدها الزاهر وماضيها التليد[١].

هناك مجالات أخرى في مقارنة السفارات الإسلامية إلى الدولة البيزنطية منها استعمال السفراء النصارى إليها، فلم نعثر أن العباسيين أو الأمويين بعثوا سفيراً نصرانياً من قبلهم إلى بيزنطة، على الرغم من علو منزلة أهل الذمة في الدولتين، فقد كان منهم القساوسة والأطباء والكتّاب، وكان هؤلاء مقربين من الخلفاء ودواوين الملك فيهما. أما في الدولة الفاطمية فقد اختلف الأمر فقد تقلد عدد من أهل الذمة مناصب كبيرة فيها، ففي حين يبلغ عدد الوزراء الفاطميين حوالي خمسة وستين وزيراً فإن ستة منهم من النصارى وثلاثة من اليهود[٢]. كما ندب الفاطميون سفراء لهم من النصارى إلى الدولة البيزنطية مثل أورسطيس بطريرك بيت المقدس، وهي سابقة هامة في التاريخ الإسلامي حتى ذلك الوقت. ومعروف أنه يجوز تولية وزارة التنفيذ في الدولة الإسلامية لأحد أهل الذمة بخلاف وزارة التفويض التي تقصر ولايتها على المسلمين فقط[٣]. فهل قاس الفاطميون منصب السفير عند إسناده إلى أحد أهل الذمة على وزارة التنفيذ التي تجوز ولايتهم لها؟

ولكن هناك أيضاً سؤال ملح هو هل ساعد اتخاذ الفاطميين بعض الوزراء من أهل الذمة على توطيد علاقاتهم بالبيزنطيين؟ في الحقيقة لا نجد

---

(١) أتيح للباحث الوقوف على معالم هذه المدينة.

(٢) المناوي: الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، ص ٣٠٤.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية، ط ٢، القاهرة ١٩٦٦ م، ص ٢٥ و٢٧.

في المصادر المتاحة لنا على كثرتها ما يدعم الإجابة على هذا السؤال سلباً أو إيجاباً إذ لا نجد أن أحد هؤلاء الوزراء ساهم في تدعيم العلاقات الفاطمية البيزنطية بقول أو عمل، ولم يثبت أن أحد هؤلاء الوزراء ذهب سفيراً إلى بيزنطة تأييداً لهذا الغرض. وعند استعراض الاتصال الدبلوماسي بين الدولتين نجد أن ما تم منه حدث غالباً في تواريخ تختلف عن تواريخ تولي هؤلاء الوزارة في الدولة، ولم تشهد عهود الخلفاء الذين ولوهم الوزارة اتصالاً مميزاً مع البيزنطيين، وإذا كان عهد الحاكم بأمر الله شاهد تولي أربعة منهم فإن هذا يعود إلى سياسة الحاكم المتغيرة. ثم إن للدولة الفاطمية أعداء معاصرين لها وعلى رأسهم العباسيون، ولو لمسوا تمادياً في علاقاتها بالبيزنطيين وتوثيقاً واضحاً لأنكروا عليها ذلك ووصموها بموالاة النصارى وضمنوا ذلك منشورهم الذي نفوا فيه النسب الفاطمي عن الدولة وكالوا لها فيه تهماً أخرى لم يكن من بينها ما نحن بصدده[1]. ولكن يجب أن نقول من ناحية أخرى أن الدلائل ثابتة على أن رعايا الدولة في مصر كانوا متذمرين من هؤلاء الوزراء لمحاباتهم لبني جلدتهم وأن الشكاوى رفعت إلى الخلفاء مراراً ضدهم، وقد عزل بعضهم بسبب سوء إدارته وعدم عدله وميله لفئة دون أخرى[2]. بقي في مجال المقارنات أن نشير لماماً إلى

---

(١) نشر العباسيون محضرين ضد الفاطميين في بغداد أحدهما في سنة أربع مائة واثنين والآخر في سنة أربع مائة وأربع وأربعين تضمنا القدح في نسب الفاطميين وعقيدتهم وأشياء أخرى. انظر:
ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٨ ص ٥٤ - ١٥٥؛ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣.

(٢) تروي المصادر التاريخية خبر وزيرين للخليفة العزيز أحدهما نصراني اسمه عيسى بن نسطورس والآخر يهودي اسمه منشّا، وأنهما حابا بني جلدتهما فاعتز بهما النصارى واليهود، واغتم منهما المسلمون، وبينما كان العزيز ماراً في إحدى طرقاته نصب له المسلمون صورة وأقعدوها في طريقه وقد أمسكت بيدها رقعة مكتوباً عليها: «والذي أعز اليهود بمنشّا والنصارى بعيسى بن نسطورس وأذل المسلمين بك إلا كشفت ظلامتي». انظر: ابن الأثير: الكامل، جـ ٩ ص ١١٦ - ١١٧.

عدة موضوعات منها أنه لم يثبت أن المسلمين عينوا امرأة في منصب سفير، وذلك تمشياً مع موقف الإسلام في عدم اسناد المناصب الصعبة المراس جسمياً وفكرياً إليها كالامارة والقضاء، ولا تقل السفارة عنهما في حاجتها إلى المراس الفكري والحجاج العقلي ومشقة السفر ومخالطة الرجال ومناظرتهم. وفي المقابل لم يبعث البيزنطيون للمسلمين سفيرة بيزنطية.

ومن هذه الموضوعات أن نذكر أنه إذا كانت زيارات ملوك الدول ورؤسائها معروفة لنا في العصر الحديث فإن أحداً من الخلفاء المسلمين لم يزر البلاط البيزنطي، وكذلك لم يزر الأباطرة البيزنطيون بلاطات الدول الإسلامية، وقد يرجع ذلك فضلاً عن علاقات الحرب القائمة بينهم وبين المسلمين إلى ظروف تلك العصور والأمن والمواصلات فيها التي لا تساعد على تحقق هذه الزيارات على مستوى الخلفاء والأباطرة[1]. ومن هذه الموضوعات المصاهرات السياسية التي درج عليها الحكام والملوك منذ القدم، إلا أن شيئاً منها لم يتم بين البلاطين الإسلامي والبيزنطي في حدود علمنا، وإذا كان السبب معروفاً بالنسبة لعدم تزويج المسلمات لأهل الكتاب فإنه بالنسبة لتزويج البيزنطيات للمسلمين يبقى غير واضح على الرغم أن السياسة البيزنطية اعتبرت الزواج السياسي وجهاً من وجوه صلاتها الدبلوماسية بالآخرين، وتحقق ذلك مع بلاطات الفرنجة والروس والخزر والبنادقة[2].

(١) في سنة ثلاث مائة (٩١٣م) وفدت الملكة طوطة ملكة دولة نافار في شمال الثغر الأندلسي الأعلى على الخليفة عبد الرحمن الناصر في زيارة لبلاطه، وطلبت من الخليفة عقد معاهدة معه والاعتراف بابنها غرسيه بن شانجة ملكاً تحت وصايتها، فاستقبلها الخليفة بحفاوة لائقة. انظر: ابن خلدون: العبر، جـ ٤ ص ٣١٠.

(٢) - Miller: Op. Cit. PP. 168 - 179.

القرار الدبلوماسي في علاقات المسلمين بالبيزنطيين:

يعتبر القرار الدبلوماسي والبت فيه ركيزة هامة في سياسة الدول الخارجية وعلامة بارزة على نجاحها أو فشلها. وقوة القرار أو ضعفه دليل على صانعيه لهذا بقي قروناً طويلة من صلاحيات الخلفاء والأمراء والأباطرة، لا سيما ممن اشتهروا بقوتهم السياسية والحربية.

وفي صدر الدولة العباسية ظل صنع القرار الدبلوماسي مهمة الخليفة، فلا أحد يساوره الشك من تفرد المنصور أو الر شيد أو المأمون أو المعتصم بصنع القرار الدبلوماسي فيما يتعلق بالشؤون الخارجية. أما في العصور اللاحقة فقد تراوح إصدار القرار بين السلطان والوزراء ورئيس ديوان الرسائل حسب قوة نفوذ كل منهم، ولم يبق للخليفة غير إقراره وإمضائه، ويسيء البيزنطيون معاملة الأسرى المسلمين فيسارع الوزير علي بن عيسى إلى الاهتمام بالوضع ويخاطب بطريقي بيت المقدس وانطاكية لإبلاغهم استياء العباسيين من تلك المعاملة لأسراهم والضرر الذي يمكن أن يلحق بالنصارى في أراضيهم بالمقابل، كما ندب الوزير مبعوثاً عباسياً إلى هناك لاستجلاء الموقف ورفع الأصر والتضييق السواقع عليهم، فيستجيب البيزنطيون، ويلهج الأسرى بعد ذلك بالدعاء للوزير بعد تحسن حالهم. وإذا لم يكن معروفاً لنا على وجه التحديد موقف الخليفة المقتدر إلا أن المصادر تشير إلى أن الوزير كان هو صاحب هذا القرار(١).

ويدور الحوار طويلاً بين السفير العباسي ابن شهرام الذي بعث إلى

(١) التنوخي: نشوار المحاضرة، ص ٥٢ ـ ٥٣؛ ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٦ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

بيزنطة في عهد الخليفة الطائع وبين البيزنطيين بشأن اللاجىء البيزنطي ورد، ولم يرد فيما وصلنا من هذا الحوار اسم الخليفة، وإنما يدور باسم عضد الدولة البويهي متولي السلطة بل أن اللاجىء نفسه يكاتب عضد الدولة في السماح له بالبقاء في البلاد وتعليل هذا ببساطة أنه مظهر من مظاهر السيطرة على الخلفاء الذي شهدته تلك الفترة، وحجبهم عن مباشرة أمور الدولة حقاً ومنها إصدار القرار الدبلوماسي ولم يبق لهم من تلك الأمور غير الإسمية.

وأما في الدولة الأموية في الأندلس فلم يكن هناك بجانب منصب الأمير أو الخليفة منصب السلطان أو منصب أمير الأمراء اللذان عرفا في الدولة العباسية، فقد نجا أمراؤها وخلفاؤها من الحجب السياسي وظلوا مباشرين للأمور السواد الأعظم من عهودها، واشتهر منهم الأمير عبد الرحمن الأوسط والخليفة عبد الرحمن الناصر بتبادل السفارات مع البيزنطيين التي حملت آراءهما في الأمور المتفاوض عليها بين الجانبين، ولم يؤثر عنهما أنهما كانا مسلوبي الحرية في اتخاذ القرار.

وكذلك الحال في الدولة الفاطمية حيث باشر خلفاؤها أمور الدولة بأنفسهم وعلى رأسها إدارة علاقاتها الخارجية مع الآخرين ومنهم البيزنطيون اللذين فاوضهم الخلفاء الفاطميون بواسطة سفراء الجانبين، ولم يبت في القضايا مدار الحوار إلا بآراء الخلفاء أنفسهم، بل ان إجراءات الخلفاء ومواقفهم كانت في بعض الأحيان مثار ذلك الحوار ومدعاة للسفارة بشأنه فإذا ما ضعف الخلفاء في أواخر الدولة قُيض لهم وزراء اشتهروا بحصافة الرأي وحسن الإدارة، ووضحت جهودهم في داخل الدولة أكثر من إدارة علاقاتها الخارجية لظروف خارجة عن علاقتها بالبيزنطيين على وجه الخصوص.

والأمر المشترك بين القوى الإسلامية في المجال الدبلوماسي هو العناية والتدقيق باختيار السفراء وسلامة هذا الاختيار بدليل مكانة هؤلاء

السفراء العلمية والسياسية في دولهم ورفعة شأنهم فيها، ثم نجاح أكثرهم في المهام الدبلوماسية التي أوكلت إليهم.

أما في الدولة البيزنطية فقد كان الأمبراطور يعتبر نفسه ظل الله في أرضه ونائبه، فهو صاحب القرار في مختلف شؤون الأمبراطورية، ومنها السياسة الخارجية لها إلا أن مجلس الشيوخ وكبار قواد الجيش كان لهم تأثير بارز في تلك السياسة، وبالذات في مجال عقد المعاهدات وقرارات الحرب مع الدول المجاورة[١]. وكان بعض أولئك الرجال وصياً أو مدبراً لشؤون الأباطرة القاصرين، وقد قابل السفير العباسي نصر بن الأزهر الأمبراطور ميخائيل الثالث فذكر أن خاله أورسطيس كان هو المتصرف في شؤونه، وهو الذي تولى مفاوضة هذا السفير[٢].

كما كان لبعض زوجات الأباطرة تأثير على أزواجهن في مجال العلاقات مع الدول الأخرى مثل ثيودورا زوجة جستنيان الأول أو أولئك اللاتي أصبحن إمبراطورات، مثل إيرين أو وصيات على أبنائهن القاصرين مثل زوي Zoe.

(١) - Miller: Studies in Byzantine Diplomacy p 133.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ ٩ ص ٢١٩ - ٢٢٠.

ثالثاً: نماذجُ من السفراء المسلمين:

من المعروف أنه ذهب أكثر من سفير إسلامي إلى الدولة البيزنطية وقابلوا أباطرتها هناك في فترات مختلفة في أمور تتعلق بالقضايا والمصالح المشتركة، ولا شك أن هؤلاء السفراء كانوا يتمتعون بالسياسة والحنكة وحسن الحال والمقال، حتى رأت فيهم دولهم أنهم أكفاء ليقوموا بالوفادة لها وتمثيلها عند واحدة من أعظم دول تلك العصور هي الأمبراطورية البيزنطية، ويخال إلينا أنهم أدوا المهمة على أكمل وجه وأحسن شأن، فقد كان السفراء المسلمون عموماً شخصيات بارزة في دولهم فهم قضاة وشعراء ونحوهم ممن اتصفوا بالدهاء والذكاء والحصافة وأوتوا حظاً وافراً من الثقافة وحسن التصرف مما يؤهلهم لأن يقوموا بهذه المهام خير قيام، وهي صفات تتفق مع ما ذكره مؤرخو كتب الرسل والسفارة في التاريخ الإسلامي من شروط في اختيار السفير كابن الفراء في كتابه القيّم رسل الملوك[1]، وقد توخى تلك الصفات كل من العباسيين والأمويين والفاطميين في اختيار رسلهم.

والمؤسف أن المصادر المعروفة لا تزودنا بتراجم مفصلة لكثير من أولئك السفراء حتى نتعرف منها على سيرتهم وما تحلّوا به حتى أصبحوا مؤهلين لأن يقوموا بمثل هذه المهام الخطيرة، وما صادفهم هناك وأجروه، وكيف عاملهم البلاط البيزنطي على وجه التحديد وكيف قابلوا تلك المعاملة، وما هي الصورة التي أعطوها للمجتمع البيزنطي عن المجتمع الإسلامي وأحواله في المشرق وفي مصر وفي الأندلس، بل ان تلك

(١) ص ٧ - ١٢.

المصادر تقتصر في كثير من الأحيان على ذكر اسم هذا السفير أو ذاك، أو حتى الاكتفاء بذكر أن الخليفة أو الأمير أرسل مبعوثاً له إلى ملك الروم.

وتبقى من مهمة الباحثين الولوج والغوص في كتب التراجم والسير والطبقات، بغية العثور على ترجمة أو نبذة عن هذا المبعوث أو ذاك، ولكن في أغلب الأحوال قد لا تؤدي هذه المحاولات إلى نتيجة، ويبقى هذا العلم الذي كان معروفاً في عصره بكفاءته وأهليته لأن يختار موفداً لدولته يصبح لنا مجهولاً لا نعرف عنه أكثر من أنه ذهب إلى متملك الروم أو قدم من عنده بعد أن أوفده الخليفة.

ولعل مما يهّون الخطب ويخفف من عقدة هذا المشكل أن تحوي تلك المصادر في أحيان قليلة أخباراً متفرقة عن علم قام بالمهمة في العصر نفسه، مما يلقي الضوء على نوعية أولئك الرجال الذين يختارون موفدين لدولتهم إلى الدول الأعجمية والصفات والكفاءة التي كانوا يتحلون بها، وبالتالي تصبح دراسة هذا السفير وترجمته نموذجاً يقاس عليه لمعرفة بقية سفراء دولهم فيما كانوا عليه من الصفات وما قاموا به من مهمات.

ولكن حتى السفراء الذين نجد لهم تراجم في المصادر المختلفة فإن تلك التراجم جاءت من خلال ما اشتهروا به من صفات ومؤهلات وقدرات في مجالات الفقه والقضاء والشعر وغير ذلك، ولم يأت ذكرهم سفراء ذهبوا من الدول الإسلامية إلى الدول البيزنطية آنذاك، وما ورد من تراجمهم في هذا الشأن جاء عرضاً واقتصر على مواقف جانبية كانت لهم هناك غير ذات أهمية، أما المهمات الأساسية التي ذهبوا من أجلها والقضايا التي ناقشوها مع البيزنطيين فلم تتطرق لها تلك المصادر، ويمكن تعليل ذلك من وجهين:

أولهما: قد تكون تلك الأمور التي ذهب السفراء من أجلها سرية ولم يتمكن المؤرخون المعاصرون بطبيعة الحال من معرفتها في وقتها، ولهذا اقتصرت معرفتهم واطلاعهم على أمور جانبية من مهمات أولئك السفراء،

وهو أمر ليس بمستبعد على ضوء ما هو معروف من سرية القضايا التي يبحثها المبعوثون والسفراء مع زعماء الدول في أحيان كثيرة.

ثانيهما: أن يكون أولئك السفراء نقلوا رسائل مكتوبة من الخلفاء إلى الأباطرة وكانت مهمتهم إيصالها في الغالب، ووردت معظم محتويات تلك الرسائل في ثنايا كتب التاريخ العام واكتفى مصنفو التراجم بذلك دون أن يعيدوها عندما ترجموا لبعض حامليها ثم ذكروا ما جرى لهم من مواقف أخرى مما لم تعن به كتب التاريخ العام.

١ ـ السفير العباسي أبو بكر الباقلاني:

هو أبو بكر محمد بن الطيب المعروف بالباقلاني، أصله من مدينة البصرة وسكن بغداد، وكان مالكي المذهب «إمام وقته وعالم عصره المرجوع إليه فيما أشكل على غيره»[١]. اشتهر الباقلاني بعلمه وصلاحه كان ورده في الليلة عشرين ترويحة، وله عدد من المصنفات في الحديث والفقه وعلم الكلام، تولى القضاء في عهد الخليفة القادر. وكان وثيق الصلة بعضد الدولة البويهي، ولما رأى من سعة علمه وحنكته اختاره لأن يكون سفيراً له إلى الأمبراطور البيزنطي باسيليوس الثاني بشأن لجوء ورد والمفاوضة في وضعه، وحسبنا بسفير في منزلة الباقلاني، فقد عرف البيزنطيون علوّ منزلته العلمية ورفعة شأنه وعلو كعبه، وعقدوا له عدة مناظرات علمية، على الرغم من الغموض والإيجاز في أخبار مهمته السياسية. وقد جمعوا له عدداً من رجال الدين النصارى وعلى رأسهم بطريرك القسطنطينية نيقولا الثاني[٢] لمناظرته في مجلس الأمبراطور حول عدة قضايا دينية جدلية منها قضية انشقاق القمر كإحدى معجزات الرسول عليه الصلاة والسلام، وأنهم لا يصدقون ذلك بدعوى عدم رؤية النصارى لهذا الانشقاق فحاجّهم الباقلاني بأن الانشقاق مثل الكسوف لا يراه إلا من كان في ناصيته ومترصداً له، ثم إن المائدة التي أنزلت على عيسى عليه السلام[٣] معجزة له يؤمن

(١) أبو الحسن النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٣٧.

(٢) تولي نيقولا الثاني بطرقة كنيسة القسطنطينية ما بين عامي (٣٦٩ - ٣٨١ هـ/٩٧٩ - ٩٩١ م).

(٣) يقول الله تعالى: ﴿قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين. قال الله إني

بها النصارى لم يرها المسلمون واليهود ولا يعني ذلك عدم حدوثها، فتعجب المجلس من قوة حواره وحسن استدلاله وبهت القوم[1].

كما عقد البيزنطيون مناظرة أخرى مع الباقلاني حول المسيح عليه السلام، ويروي الباقلاني بنفسه ما دار بينه وبين الأمبراطور، قال الأمبراطور في مجلس حضره ثلة من كبار رجال الدين هناك وبعض القواد والوزراء: «ما تقولون في المسيح عيسى بن مريم؟ فأجابه الباقلاني: روح الله وكلمته وعبده ونبيه ورسوله» كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [2]. فقال: يا مسلم تقولون المسيح عبد؟ فقال: نعم كذا نقول وبه ندين قال: ولا تقولون أنه ابن الله، قال الباقلاني: معاذ الله» ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [3]، ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾[4] فإذا جعلتم المسيح ابن الله فمن كان أبوه وأخوه وجده وخاله وعمه، وعددت عليه الأقارب. فتحير وقال: يا مسلم العبد يخلق ويحيي ويميت ويبرىء الأكمه والأبرص؟ فقلت: العبد لا يقدر على ذلك، وإنما كله من فضل الله تعالى، قال: «وكيف يكون المسيح عبد الله وخلقاً من خلقه وقد أتى بهذه الآيات وفعل ذلك كله؟» قلت معاذ الله ما أحيا المسيح الموتى، ولا أبرأ الأكمه والأبرص، فتحير وقلّ صبره وقال: يا مسلم تنكر هذا، مع اشتهاره في الخلق، وأخذ الناس له بالقول، فقلت: ما قال أحد من أهل الفقه والمعرفة أن الأنبياء يفعلون المعجزات من ذاتهم، وإنما هو شيء يفعله الله تعالى على أيديهم تصديقاً لهم، يجري مجرى الشهادة. فقال قد حضر عندي

= منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾. سورة المائدة: آية ١١٤ وآية ١١٥.

(١) المصدر السابق، ص ٣٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٥٩.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ٩١.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٤٠.

جماعة من أولي دينكم والمشهورين فيكم وقالوا أن ذلك في كتابكم فقلت: في كتابنا أن ذلك كله بإذن الله تعالى، وتلوت عليه منصوص القرآن في المسيح (.. بِإِذْنِيۖ ...)[1] وقلت إنما فعل المسيح ذلك كله بالله وحده لا شريك له، لا من ذات المسيح، ولو كان المسيح يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص من ذاته وقوته لجاز أن يقال أن موسى فلق البحر، وأخرج يده من غير سوء من ذاته وليس معجزات الأنبياء (عليهم السلام) من ذاتهم دون إرادة الخالق فلما لم يجز هذا لم يجز أن تسند المعجزات التي ظهرت على يد المسيح للمسيح»[2]. وفي أحد الأيام أعد الأمبراطور استقبالاً للباقلاني فحضر في اليوم المحدد وقد حفل المجلس بالحضور وبولغ في زينته، فأدناه الأمبراطور في ترحيب ظاهر وأجلسه على كرسيه، وكان الأمبراطور في أحسن أبهته يحف به خاصته وكبار رجال دولته على مراتبهم فما كاد يكتمل المجلس حتى أقبل البطريرك مع حاشيته في زي حسن، وقام له الأمبراطور وسائر من في المجلس تعظيماً له وأجلسه إلى جانبه والتفت إلى الباقلاني وعرفه بالبطريرك ومكانته الدينية، فسلم الباقلاني عليه بحفاوة ثم قال له في لباقة ودهاء: «كيف حال الأهل والولد؟» وهو يعلم أن البطاركة لا يتزوجون وبالتالي ليس لهم أولاد، ولكن الباقلاني كان له مغزى من سؤاله في هذا المقام ليدعم حجته في الحوار السابق. والمهم عظمت مقالته على الحضور في المجلس ووجموا قليلاً ثم أنكروا عليه مقالته، فتم للباقلاني ما أراد وأوضح ذلك بقوله: «يا هؤلاء تستعظمون لهذا الإنسان اتخاذ الصاحبة والولد وتربون به عن ذلك، ولا تستعظمونه لربكم - عز

---

(١) قال تعالى مخاطباً عيسى عليه السلام: ﴿وإذْ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني﴾. سورة المائدة: الآية ١١٠.

(٢) أبو الحسن النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٣٩.

وجهه - فتضيفون إليه ذلك، سدة لهذا الرأي ما أبين غلطه» فأسقط في أيديهم ولم يردوا جواباً وتداخلتهم له هيبة عظيمة وانكسروا، ثم قال الأمبراطور للبطريك: «ما ترى في أمر هذا الرجل؟» قال: «تقضي حاجته وتلاطف صاحبه وتخرج هذا العراقي عن بلدك من يومك إن قدرت، وإلا لم تأمن الفتنة على النصرانية منه»[1].

فنفذ الأمبراطور ذلك وعجّل فيه وأحسن الرد على كتاب عضد الدولة البويهي الذي حمله الباقلاني له وحمّله بعض الهدايا لعضد الدولة، وأطلق له بعض الأسرى المسلمين، ووكّل به من يحرسه أثناء الطريق حتى يصل إلى مأمنه[2].

كان هذا السفير بدون شك يصدر عن قوة في شخصيته، وتمكن في علمه، وحسن تصرف، وحذق في أفعاله وأقواله وحجته لا يخفى، ففي إحدى المرات دبّر له رجال البلاط البيزنطي مكيدة قصدوا منها أن يخضع السفير المسلم في جلالة علمه للامبراطور عند دخوله عليه، على غرار ما تعودوا عليه وجرت به أعرافهم من الخضوع للأباطرة وتقبيل الأرض بين أيديهم، فعملوا باباً صغيراً غير مرتفع لمجلس الامبراطور فينجبر الداخل معه على إخضاع رأسه عنوة في هيئة الراكع، وجلس الامبراطور كعادته في صدر المجلس، وأدخلوا عليه الباقلاني من لدن ذلك الباب فلما وصل إليه فطن إلى المقصود وبدلاً من أن يحني رأسه أمام الأمبراطور استدار إلى الوراء وحنا رأسه وواجه الأمبراطور بعجزه ودخل على قفاه في وجه الأمبراطور حتى جاوز الباب فاستدار واقفاً أمامه، فعجب الأمبراطور من حسن تصرف السفير المسلم وحيلته وبعد فطنته[3].

وقد يفسر توفيق الباقلاني في مواقفه وسعة علمه وحسن تصرفه

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٠.

(٢) نفسه.

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، جـ ٥ ص ٣٧٩ - ٣٨٠.

الغموض الذي يحيط بمهمته السياسية وذلك أن البيزنطيين لم يشاؤوا الدخول في حوار سياسي مع سفير بمثل كفاءة الباقلاني قد يحجهم فيه ويوفق كما وفق في مواقفه الأخرى معهم، وتركوا ذلك الحوار بانتظار مقدم سفير عباسي آخر قد يكون أهون وأقل وطأة عليهم منه، وقد يرجح هذا ما لمسناه في حوارهم الطويل مع ابن شهرام السفير العباسي الذي أعقب الباقلاني في التفاوض معهم. غير أن هذا التفسير لا ينفي احتمال محاورة الباقلاني للبيزنطيين في أمور سياسية أكثر تفصيلاً مما وردنا عنها إلا أن هذه التفاصيل تعرضت ليد الحدثان قبل تدوينها أو فقدت قبل أن تصلنا في المدونات التاريخية.

ظل أبو بكر الباقلاني قاضياً في بغداد ومقرباً من الخليفة العباسي القادر ورجل مهماته ففي سنة ثلاث مائة وتسعين بعثه الخليفة إلى بهاء الدولة البويهي يبلغه خلع أبي المنيع العقبلي قرار طاعة العباسيين في الموصل وإعلان الخطبة باسم الحاكم الفاطمي.

وتوفي أبو بكر الباقلاني في سنة أربع مائة وثلاث بعد عمر مديد قضاه بين دور العلم والقضاء وبلاط الخلفاء والملوك[1].

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١١ ص ٣٥٠.

ب ـ السفير الأموي يحيى الغزال:

هو يحيى بن الحكم المعروف بالغزال لجمال صورته، ولد سنة مائة وست وخمسين، وعاصر عهود خمسة من أمراء بني أمية في الأندلس، كان الغزال شاعراً مطبوعاً تميز شعره بالحكمة والغزل، وهو مع هذا جليل في نفسه وعلمه، وقد قربته هذه الصفات عند أمراء بلده[1] فولي الحسبة ثم أصبح من كتاب البلاط وكان منصب الكتابة من المناصب التي كانت تسند إلى الأكفاء من الأدباء والشعراء ونحوهم، ومن ثم توثقت العلاقة بين الغزال والأمير عبد الرحمن الأوسط وغدا من بطانته الذين كان يستشيرهم في كثير من شؤون الدولة ومهامها[2]. على أن أهم المناصب التي أسندت له هي السفارة في عهد الأمير عبد الرحمن فسافر مرتين أحدهما إلى بلاط الدولة البيزنطية والأخرى إلى بلاط مملكة دانمرقة في الشمال.

وإذا كان الغزال قد شغل أهل عصره بشعره ومطارحاته فقد شغل أيضاً بسفارته من جاء بعده من المؤرخين والباحثين في تحديد مواقفه والمهام التي أنيطت به في كل سفارة قام بها.

وقد عرفنا من قبل انقسام الباحثين حول سفارتي الغزال انقساماً وصل إلى نفي إحدى السفارتين وإثبات الأخرى والعكس[3]، ولسنا هنا في حاجة إلى مناقشة هذا النفي من عدمه، وما يهمنا هو سلوك الغزال أثناء سفارته

---

(١) الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٢٥٢؛ الضبي: بغية الملتمس، ص ٥٠٠.
(٢) عنان: «يحيى الغزال» الثقافة. العدد ٢٦١ محرم ١٣٦٣ هـ، ص ١٦ ـ ١٧.
(٣) انظر البحث، ص ١٥٠ ـ ١٥٣.

إلى البلاط البيزنطي لكن مصادرنا التي تثبت ذهابه إلى هناك بوضوح تصمت عن تفصيل ما لقيه الغزال وما قام به عند زيارته للبيزنطيين، والشذرات التي تذكرها تلك المصادر في هذا المجال تختلط بالتفاصيل التي يوردها ابن دحية مؤرخ سفارة الغزال إلى ملك النورمانيين في الشمال حول هذه السفارة[١].

كما يمكن فهم بعض المواقف التي جرت للغزال في سفارته إلى النورمانيين على أنها جرت له في البلاط البيزنطي في اختلاط قد لا يخفى في المعلومات والاخبار التي أوردها ابن دحية لا سيما في ظل الإشارات الأخرى التي توردها المصادر التي نصت على ذهاب الغزال إلى بيزنطة[٢]، إلا أن احتمال التشابه يبقى قائماً فيما جرى للغزال في سفارتيه إلى البلاطين السابقين.

ومن هذه المواقف تضييق باب مجلس الأمبراطور عند دخول السفراء المسلمين للانحناء في خضوع له فتم تضييق الباب أمام السفير الغزال لينحني أمام الأمبراطور ثيوفيلوس على غرار ما قوبل به السفير العباسي الباقلاني أيضاً فيما بعد، فنجح السفيران في حسن التصرف واتفقا في الأسلوب الذي قابلا به هذا الموقف. أو أن هذه المكيدة لقيها الغزال في سفارته إلى ملك النورمان وأحسن التصرف في مواجهتها عندما جلس على الأرض وقدم رجليه في وجه مقابليه وزحف على إليته فلما جاز ذلك الباب استوى قائماً، وعجب الملك من حسن تصرفه وقال: «أردنا أن نذله فقابل وجوهنا بنعليه ولولا أنه رسول لأنكرنا ذلك عليه[٣]». ولكنه «لم يخف ابتسامته إعجاباً به قائلاً لرجال دولته المحيطين به: «كان الحكماء على حق

---

(١) قارن بين ما أورده ابن دحية: المطرب، ص ١٣٠ ـ ١٣٤ وبين ما أورده ابن سعيد المغربي: المغرب في حلي المغرب، جـ ٢ ص ٥٨.
(٢) ابن حيان: المقتبس نقلاً عن المقري: نفح الطيب، جـ ٢ ص ٢٥٨.
(٣) ابن دحية: المطرب، ص ١٣٢.

في قولهم أن من شخصية الرسول يعرف سيده. إن هذا الأندلسي حكيم من حكماء القوم وداهية من دهاتهم[١]». ثم تتفق الروايات التاريخية في أحداث السفارتين وتختلفان في تفاصيلها. فتذكر هذه الروايات أن الغزال مكث مدة في البلاطين، حتى أن الأمبراطور البيزنطي أعجب بمجالسة الغزال وحسن حديثه، فطلب منه منادمته وشُرْب الخمر معه في إحدى المرات فامتنع الغزال واحتج بأن دينه يحرم الخمر مما يمنعه من شربها[٢]. كما قابل زوجة الملك وأعجبت به في وسامته وشعره وحسن لباقته وشُده هو بجمالها فوصفها شعراً أُعجبت به أيما إعجاب لما ترجم لها ومنه:

إنّي تعلقت بحوسية تأبى الشمس الحسن أن تغربا
يا نود يارود الشباب[٣] التي تطلع من أزراها الكوكبا[٤]

وفي رواية تاريخية أخرى بأن الملكة هي التي جاءته بالخمر وأمرته بمعاقرتها مع ابنها فامتنع السفير الغزال واحتج بأن شرب الخمر غير جائز في دينه[٥] وتتفق الروايتان على امتناع الغزال عن شرب الخمر وعدم استجابته لطلب مضيفيه. وهذا موقف نبيل من السفير المسلم واحتجاج مبين في مواجهة مغريات المضيفين وعدم الوقوع في حبائلهم أو مجاملتهم في هذا المقام.

أما الرواية التي تذكر أن الغزال ندم على موقفه هذا فيجب ألا يلقى لها بالٌ لأن الدلائل الأخرى المصاحبة تشير إلى أن الغزال كان قاصداً هذا

---

(١) بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ص ١٠٦.
(٢) ابن حيان: المقتبس نقلاً عن المقري: نفح الطيب، جـ٢ ص ٢٨٢.
(٣) نود هو اسمها أو هو تود اختصار لاسم تيودورا. (انظر بروفنسال: المصدر السابق، ص ١٠٧)، ورود الشباب أي رؤد الشباب ثم خففت الهمزة فأصبح رود أي نعم والرود هي الجارية الناعمة. ابن دحية: المطرب، ص ١٣٤.
(٤) نفسه.
(٥) ابن سعيد المغربي: المغرب، جـ٢ ص ٥٨. جـ٢ ص ٥٨.

المبدأ معتقداً له فقد اشترط من قبل على موظف البلاط الذي قابله ليطلعه على بعض تقاليد البلاط إلا يسجد للامبراطور وألا يطلب منه ما يخرجه عن ملته[1]. واعتذر مرة أخرى للملكة نفسها عن عدم زيارتها مراراً والخلوة بها في مجلسها لأن ذلك لا يجوز في دينه[2].

عاش يحيى الغزال الشاعر السفير عمراً مديداً بعد عودته من سفاراته وأسفاره إلى المشرق الإسلامي حتى ناهز التسعين عاماً عندما حانت وفاته في حوالي سنة مائتين وخمسين[3].

---

(1) بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ص ١٠٦.
(2) ابن دحية: المطرب، ص ١٣٣.
(3) الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٣٥٢.

ج ـ السفير الفاطمي أبو عبدالله القضاعي:

هو أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي نسبة إلى قبيلة قضاعة العربية. اشتهر بالعلم والفقه فكان من الثقات الأثبات، قال ابن ماكولا: «كان متفنناً في عدة علوم ولم أر في مصر من يجري مجراه»(١). وقد رحل القضاعي إلى عدد من البلدان مثل الحجاز والشام حتى تضلع في علوم التفسير والحديث والتاريخ، وقد رشحه علمه لوظيفة القضاء في مصر، ورشحه أدبه للكتابة فكتب للوزير علي بن أحمد الجرجرائي في عهد الخليفة الظاهر، ورشحته سياسته وكياسته لوظيفة السفارة إلى الدولة البيزنطية فسفر إلى هناك وأقام مدة في القسطنطينية(٢).

وهو من أشهر السفراء الفاطميين المعروفين لنا الذين استسفرهم الفاطميون إلى الدولة البيزنطية وقد عرفنا من قبل أن سفارة أبي عبد الله القضاعي لم تحقق الهدف الذي جاءت من أجله وأن البيزنطيين قدموا عليه السفير السلجوقي الذي تزامن وصوله مع مقدم القضاعي، وصرفوا النظر عن مطلبه بشأن الخطبة في جامع القسطنطينية باسم الخليفة الفاطمي. والمصادر التي بين أيدينا لا تحدد بدقة النشاط الدبلوماسي الذي قام به القضاعي في البلاط البيزنطي في سبيل تحقيق مهمته، كذلك لا تحدد المدة التي مكثها هناك. ولكن يظهر أن هذا السفير العالم لم يثنه تجاهل

---

(١) نقلاً عن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، جـ ٤ ص ١٥١.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٤ ص ٢١٢؛ الأسنوي: الطبقات الشافعية، بغداد، (١٣٩١ هـ، جـ ٢ ص ٣١٢ ـ ٣١٣.

البيزنطيين له وعدم قبولهم مطالبه عن أن يطلب العلم في بلادهم ويستزيد منه، لكن ليس على أيدي علمائهم ومناظرتهم ـ وإن كان ذلك غير مستبعد على الرغم أنه لم يصلنا شيء منه ـ وإنما على يد شيخ مسلم هناك دون تحديد اسمه عدى أن القضاعي قابله هناك فسمع منه وحدث عنه لما عاد إلى بلاده[1].

واختيار أبي عبد الله القضاعي ـ في كفاءته وعلمه ـ سفيراً يدل على العناية والتدقيق الذي يوليه الفاطميون لاختيار سفرائهم وانتقائهم لكي يوفروا لهم سبل النجاح في مهامهم الدبلوماسية وحسن التصرف وكريم المعشر، وأدب الوفادة في المواقف التي تواجههم هناك، بغض النظر عن مواقف البيزنطيين منهم ومعاملتهم لهم.

عاش القاضي السفير أبو عبد الله القضاعي مدة ستة أعوام بعد عودته من القسطنطينية وتوفي سنة أربع مائة وأربع وخمسين (١٠٦٢م)، ومن أشهر مؤلفاته تفسير القرآن، وكتاب الشهاب، وخطط مصر، وعيون المعارف وفنون أخبار الخلائف[2].

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، جـ ٤ ص ١٥١.

(٢) الأسنوي: طبقات الشافعية، جـ ٢ ص ٣١٣، الصفدي: كتاب الوافي بالوفيات، جـ ٣ ص ١١١.

الخاتمة

منذ البداية يجب التنويه بأنه لكي يتصور المرء نتائج موضوع في الاتصال الدبلوماسي بين المسلمين والبيزنطيين يجمل به إدراك حقيقتين هامتين:

الأولى: أن يتصور نفسه عائشاً في تلك القرون الخوالي التي سادتها ظروف معينة نهضت فيها السفارات بين الجانبين، وهي بلا ريب أوضاع دينية، وظروف سياسية وأحوال حربية وأوضاع اقتصادية تختلف كل الاختلاف عما نعيشه في هذا العصر بمختلف مجالاته. فضلاً عن الغموض والسرية التي لازمت الاتصال الدبلوماسي ومجرياته في كل العصور.

الثانية: أن هذه السفارات تمت في عصر لم تعن وثائقه وسجلاته بمثل هذه الأمور في رصدها وتسجيلها وحفظها، بمثل ما حظيت به في عصرنا، وما دوّن منها على إجماله وإبهامه إما فقد وربما هو الأكثر، أو تفرق في أصقاع المعمورة فكان في حكم المفقود، وما وصلنا منها إلا النزر اليسير.

وعلى الرغم من ذلك يجب إبراز القضايا التالية التي تم استقراؤها خلال فترة البحث ومعايشته.

أ ــ إن المفاوضات بين الجانبين الإسلامي والبيزنطي ليست سلسلة منطقية تبعاً للعمليات الحربية فحسب، ولكنها أيضاً انعكاس للسياسة الداخلية والأوضاع المختلفة التي يعيشها كل طرف. وقد أثرت ظروفهما المحلية في استمرار صلاتهما الدبلوماسية، بل ان علاقاتهما تأثرت بعلاقات كل طرف

بجيرانه سلماً وحرباً، وينعكس هذا التأثير على صلات المسلمين بالبيزنطيين وبالعكس. وعلى الرغم من كل ذلك تظل العلاقات الدبلوماسية عينها أكثر وضوحاً إبان الحروب واشتداد أوارها أو خموده بين الجانبين، وهو مظهر اتسمت به طبيعة تلك العصور ليس بين المسلمين والبيزنطيين فحسب.

ب ـ إذا ما كانت الدولة تتصل باستمرار بجيرانها من أهل دار الحرب فهي تعيش في مرحلة قوة وهيبة، والعكس إذا ما انقطع هذا الاتصال، واتجهت رسائلها واتصالاتها إلى ولاياتها والمتغلبين فيها تهديداً وترهيباً واقتصرت عليهم، فإن تلك الدولة تعيش في مرحلة ضعف وتدهور ومثال ذلك عهود الخلفاء العباسيين المتأخرين ودول الطوائف في الأندلس وكثرة مراسلاتهم فيما بينهم، إذ نجد كمّاً من الرسائل المتبادلة إما بين الحكام أو بين الحكام وولاتهم.

ج ـ إن وظيفة الدبلوماسي هي من حيث غايتها صناعة السلم لا صناعة الحرب وتبعتها. وقد كان السفراء المسلمون رسل سلام، وكانت تلك غايتهم، ووضح ذلك جلياً أثناء سفاراتهم إلى جيرانهم البيزنطيين لدفع حرب وشيكة معهم أو لإطفاء سناها بعد وقوعها، وتخليص من أحاطت ربقة الأسر بأعناقهم في أعقاب مثل هذه الحرب.

د ـ كان السفراء المسلمون يلقون من حسن الاستقبال والحفاوة والاهتمام في البلاط البيزنطي الكثير، فمن مقابلة الأباطرة وكبار رجال بلاطاتهم، وأماكن الإقامة المناسبة إلى إغداق الهدايا والخلع عليهم، على غرار ما يلاقيه سفراء الدول المعاصرة فوق العادة الذين يناط بهم مهمات تشبه مهمام أولئك، فضلاً عن تقديم السفراء المسلمين هناك على أمثالهم من سفراء الدول الأخرى لمكانة دولهم الإسلامية وسمو مبادئها التي كان يتحلى بها أولئك السفراء، ذلك أن اعتبار السفير وإجلاله نابع من احترام دولته وعلو مكانتها وارتفاع شأنها عند الدولة الموفد لها ذلك السفير.

هـ ـ إن اختيار السفير وانتقاءه معيار للحكم على مرسله ومؤذن بتوفيقه في

مهمته وأداء رسالته بنجاح. وقد تقصى المسلمون الأوائل في اختيار سفرائهم فكانوا من الرجال الأكفاء علماً وذكاء وحذقاً وكان بعضهم ممن جمع بين السياسة والقضاء والأدب لكي يتوّج العلم الدبلوماسية بأصالته وسعة بابه، ويقودها أهله على بصيرة من صدق المبدأ والالتزام بممارسة سياسة حاذقة وفطنة لا تخفى.

و ــ لم نجد فيما أتيح لنا من مصادر ما يشير إلى أن سفراء دولة إسلامية ذكروا دولة إسلامية أخرى بسوء عند البيزنطيين أو ألبوهم ضدها. وهناك فرق بين الوقائع التاريخية والاستدلال بها، وبين ما يزعمه بعض الباحثين ظناً وتخرصاً في هذا المجال خلافاً لذلك، ذلك أن موالاة الكفار واتخاذهم ردءاً ضد مسلمين آخرين كبيرة يهون دونها الاختلاف مهما بلغ بين دول المسلمين المعتبرة، خاصة في تلك العصور عندما كان الإسلام متأصلاً في النفوس وذا فاعلية فيها. ثم ان لكل عصر مصطلحاته التاريخية ومفاهيمه السياسية التي لا تصلح أن تطبق على عصر غيره في كثير من الأحيان، ومن هنا يصبح تطبيق بعض المفاهيم والقياسات المعاصرة على الحقب الإسلامية السابقة نوعاً من الإجحاف بل باطلاً لبس مسوح الدراسات والمقارنات، لكنها لا يمكن أن تستقيم علماً حقاً أو تطرد قبولاً.

ز ــ لم يؤثر عن الدبلوماسية الإسلامية على اختلاف مذاهبها أنها اتخذت امرأة سفيرة إلى الدولة البيزنطية أو غيرها فيما نعلم، وهذا يتفق مع قواعد الإسلام في عدم اسناد المناصب الشاقة للمرأة، كما لم يقم أي خليفة مسلم بزيارة الدولة البيزنطية أو يهنئها بولاية عرش لأحد الأباطرة أو التعزية بوفاته.

ح ــ إن الدولة البيزنطية كانت أكثر إيفاداً لسفرائها المسلمين من أي واحدة من الدول الإسلامية الواردة في البحث، ويرجع ذلك إلى أهمية هذه الدول إليها. فالمسلمون بالنسبة لها إما جيران خطرون يتقي بأسهم أو جيران هامون تكتسب مودتهم وتناسب مجاملتهم.

ط ـ توجد ضرورة علمية ما زالت تنتظر جهود الباحثين وهي دراسة صلات الدول الإسلامية الدبلوماسية بجيرانها أو الدول المعاصرة لها وإن وجدت جهود علمية درست صلات بعض الدول الإسلامية بجيرانها ومعاصريها إلا أن عدداً كبيراً من هذه الدول ما زالت علاقاته الدبلوماسية تنتظر الدراسة والتتبع، ومثال ذلك علاقات العباسيين بممالك الهند والصين وصلات الفاطميين بأوربا وافريقيا وعلاقات الحمدانيين بجيرانهم البيزنطيين. إن نهوض تلك الدراسات في هذا المجال سوف يسهم بدون شك في اكتمال حلقات دراسة التاريخ الإسلامي الدبلوماسي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ملحق رقم (١)

نص وصف مظاهر استقبال الدولة العباسية لسفير بيزنطي إلى الخليفة المقتدر في سنة ثلاث مائة وخمس (٩١٧ م)[١]

«إن رسول ملك الروم لما وصل إلى تكريت أمر أمير المؤمنين المقتدر بالله باحتباسه هناك شهرين، ولما وصل إلى بغداد أنزل دار صاعد ومكث شهرين لا يؤذن له في الوصول، حتى فرغ المقتدر بالله من تزيين قصره وترتيب آلته فيه، ثم صفّ العسكر من دار صاعد إلى دار الخلافة، وكان عدد الجيش مائة وستين ألف فارس وراجل، فسار الرسول بينهم إلى أن بلغ الدار ثم أدخل في أزج تحت الأرض، فسار فيه حتى مثل بين يدي المقتدر بالله وأدّى رسالة صاحبه، ثم رسم أن يطاف به في الدار وليس فيها من العسكر أحد البتة، وإنما فيها الخدم والحجّاب والغلمان السودان، وكان عدد الخدم إذ ذاك سبعة آلاف خادم، منهم أربعة آلاف بيض، وثلاثة آلاف سود، وعدد الحجاب سبع مائة حاجب، وعدد الغلمان السودان غير الخدم أربعة آلاف غلام، قد جعلوا على سطوح الدار والعلالي وفتحت الخزائن، والآلات فيها مرتبة كما يفعل لخزائن العرائس، وقد علقت الستور ونظم جوهر الخلافة في قلايات على درج غشيت بالديباج الأسود. ولما دخل الرسول إلى دار الشجرة ورآها كثر تعجبه منها، وكانت شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم، عليها أطيار مصوغة من الفضة تصفر

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، جـ ١ ص ١٠١ ـ ١٠٤.

بحركات قد جعلت لها، فكان تعجب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهده. قال لي هلال بن المحسّن: ووجدت من شرح ذلك ما ذكر كاتبه أنه نقله من خط القاضي أبي الحسين ابن أم شيبان الهاشمي وذكر أبو الحسين أنه نقله من خط الأمير - وأحسبه الأمير أبا محمد الحسن بن عيسى بن المقتدر بالله - قال: كان عدد ما علق في قصور أمير المؤمنين المقتدر بالله من الستور الديباج المذهبة بالطرز المذهبة الجليلة، المصورة بالجامات والفيلة والخيل والجمال والسباع والطرد والستور الكبار البضغائية والأرمنية والوسطية والبهنسية السواذج، والمنقوشة والديبقية المطرزة، ثمانية وثلاثين ألف ستر، منها الستور الديباج المذهبة المقدم وصفها اثنا عشر ألفاً وخمسمائة ستر، وعدد البسط النخاخ الجهرمية والدارابحردية والدورقية، في الممرات والصحون التي وطىء عليها القواد ورسل صاحب الروم، من حدّ باب العامة الجديد إلى حضرة المقتدر بالله، سوى ما في المقاصير والمجالس من الانماط الطبري والديبقي التي لحقها للنظر دون الدّوس، اثنان وعشرون ألف قطعة، وأدخل رسل صاحب الروم من دهليز باب العامة الأعظم إلى الدار المعروفة بخان الخيل وهي دار أكثرها أروقة بأساطين رخام، وكان فيها من الجانب الأيمن خمس مائة فرس عليها خمس مائة مركب ذهباً وفضة بغير أغشية، ومن الجانب الأيسر خمس مائة فرس عليها الجلال الديباج بالبراقع الطوال، وكل فرس في يدي شاكري بالبزة الجميلة، ثم أدخلوا من هذه الدار إلى الممرات والدهاليز المتصلة بحير الوحش، وكان في هذه الدار من أصناف الوحوش التي أخرجت إليها من الحير قطعان تقرب من الناس، وتتشممهم وتأكل من أيديهم. ثم أخرجوا إلى دار فيها أربعة فيلة مزينة بالديباج والوشي، على كل فيل ثمانية نفر من السند والزراقين بالنار، فهال الرسل أمرها. ثم أخرجوا إلى دار فيها مائة سبع خمسون يمنة وخمسون يسره، كل سبع منها في يد سبّاع وفي رؤوسها وأعناقها السلاسل والحديد. ثم أخرجوا إلى الجوسق المحدث. وهي دار بين بساتين في وسطها بركة رصاص قلعي

حواليها نهر رصاص أحسن من الفضة المجلوة، طول البركة ثلاثون ذراعاً في عشرين ذراعاً، وفيها أربع طيارات لطاف بمجالس مذهبة مزينة بالديبقي المطرز وأغشيتها ديبقي مذهب، وحوالي هذه البركة بستان بميادين فيه نخل وأن عدده أربعمائة نخلة، وطول كل واحدة خمسة أذرع، قد لبس جميعها ساجاً منقوشاً من أصلها إلى حد الجمارة بحلق شبه مذهبة، وجميع النخل حامل بغرائب البسر الذي أكثره خلال لم يتطير وفي جوانب البستان أترج حامل ودستلنبوا ومقفع وغير ذلك. ثم أخرجوا من هذه الدار إلى دار الشجرة، وفيها شجرة في وسط بركة كبيرة، مدورة فيها ماء صاف، وللشجرة ثمانية عشر غصناً لكل غصن منها شاخات كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة، وأكثر قضبان الشجرة فضة، وبعضها مذهب. وهي تتمائل في أوقات ولها ورق مختلف الألوان يتحرك كما تحرّك الريح ورق الشجرة، وكل هذه الطيور يصفر ويهدر، وفي جانب الدار يمنة البركة تماثيل خمسة عشر فارساً قد ألبسوا الديباج وغيره، وفي أيديهم مطارد على رماح يدورون على خط واحد في الناورد خبباً وتقريباً (فيظن أن كل واحد منهم إلى صاحبه قاصد). وفي الجانب الأيسر مثل ذلك. ثم أدخلوا إلى القصر المعروف بالفردوس، فكان فيه من الفرش والآلات مالا يحصى ولا يحصر كثرة، وفي دهاليز الفردوس عشرة آلاف جوشن مذهبة معلّقة. ثم أخرجوا منه إلى ممر طوله ثلاثمائة ذراع، قد علق من جانبيه نحو من عشرة آلاف درقة وخوذة وبيضة ودرع وزردية وجعبة محلاة وقسي، وقد أقيم نحو ألفي خادم بيضاً وسوداً صفين يمنة ويسرة. ثم أخرجوا ـ بعد أن طيف بهم ثلاثة وعشرين قصراً ـ إلى الصحن التسعيني وفيه الغلمان الحجرية، بالسلاح الكامل، والبزة الحسنة، والهيئة الرائعة، وفي أيديهم الشروخ والطبرزينات والأعمدة، ثم مروا بمصاف من علية السواد من خلفاء الحجاب والجند والرجالة وأصاغر القواد، ودخلوا دار السلام. وكانت عدة كثير من الخدم والصقالبة في سائر القصور، يسقون الناس الماء المبرد بالثلج والأشربة والفقاع، ومنهم من كان يطوف مع الرسل، فلطول المشي

بهم جلسوا واستراحوا في سبعة مواضع واستسقوا الماء فسقوا، وكان أبو عمر عدي بن أحمد بن عبد الباقي الطرطوسي: صاحب السلطان، ورئيس الثغور الشامية معهم في كل ذلك، وعليه قباء أسود وسيف ومنطقة، ووصلوا إلى حضرة المقتدر بالله وهو جالس في التاج مما يلي دجلة، بعد أن لبس بالثياب الديبقية المطرزة بالذهب على سرير أبنوس قد فرش بالديبقي المطرز بالذهب، وعلى رأسه الطويلة، ومن يمنة السرير تسعة عقود مثل السبح معلقة، ومن يسرته تسعة أخرى من أفخر الجواهر وأعظمها قيمة غالبة الضوء على ضوء النهار، وبين يديه خمسة من ولده ثلاثة يمنة واثنان ميسرة، ومثل الرسول وترجمانه بين يدي المقتدر بالله، فكفر له. وقال الرسول: لمؤنس الخادم ونصر القشوري - وكانا يترجمان عن المقتدر - لولا أني لا آمن أن يطالب صاحبكم بتقبيل البساط لقبلته ولكنني فعلت ما لا يطلب رسولكم بمثله لأن التكفير من رسم شريعتنا». ومعنى التكفير هنا الخضوع والانحناء.

ملحق رقم (٢)

نص جواب كتابي من الأخشيدي محمد بن طفج والي مصر العباسي رداً على رسالة من الأمبراطور رومانوس[1]

«من محمد بن طفج مولى أمير المؤمنين، إلى أرمانوس عظيم الروم ومن يليه: سلام بقدر ما أنتم له مستحقون، فإنا نحمد الله الذي لا إله إلا هو، ونسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.

أما بعد، فقد ترجم لنا كتابك الوارد مع نقولا وإسحاق رسوليك، فوجدناه مفتتحاً بذكر فضيلة الرحمة، وما نمى عنا إليك، وصح من شمنا فيها لديك، وبما نحن عليه من المعدلة وحسن السيرة في رعايانا، وما وصلت به هذا القول من ذكر الفداء والتوصل إلى تخليص الأسرى، إلى (غير) ذلك مما اشتمل عليه وتفهمناه.

فأما ما أطنبت فيه من فضيلة الرحمة فمن سديد القول، الذي يليق بذوي الفضل والنبل، ونحن بحمد الله ونعمه علينا بذلك عارفون، وإليه راغبون، وعليه باعثون، وفيه بتوفيق الله إيانا مجتهدون، وبه متواصون وعاملون. وإياه نسأل التوفيق لمراشد الأمور وجوامع المصالح بمنه وقدرته.

وأما ما نسبته إلى أخلاقنا من الرحمة والمعدلة، فانا نرغب إلى الله جل وعلا الذي تفرد بكمال هذه الفضيلة، ووهبها لأوليائه ثم أثابهم عليها،

---

(١) نقلاً عن صبح الأعشى، جـ٧ ص ١٠ ـ ١٨.

أن يوفقنا لها، ويجعلنا من أهلها وييسرنا للاجتهاد فيها، والاعتصام من زيغ الهوى عنها، وعرة القسوة بها، ويجعل ما أودع قلوبنا من ذلك موقوفاً على طاعته، وموجبات مرضاته، حتى نكون أهلاً لما وصفتنا به، وأحق حقاً بما دعوتنا إليه، وممن يستحق الزلفى من الله تعالى، فإنا فقراء إلى رحمته، وحق لمن أنزله الله بحيث أنزلنا، وحمله من جسيم الأمر ما حملنا، وجمع له من سعة الممالك ما جمع لنا بمولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، أن يبتهل إلى الله تعالى في معونته لذلك وتوفيقه وإرشاده، فإن ذلك إليه وبيده: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

وأما ما وصفته من ارتفاع محلك عن مرتبة من هو دون الخليفة في المكاتبة لما عظم ملككم، وأنه الملك القديم الموهوب من الله، الباقي على الدهر، خصصتنا بالمكاتبة لما تحققته من حالنا عندك، فإن ذلك لو كان حقاً وكانت منزلتنا كما ذكرته تقصر عن منزلة من تكاتبه، وكان لك في ترك مكاتبتنا غنم ورشد، لكان من الأمر البين أن أحظى وأرشد وأولى بمن حل محلك أن يعمل بما فيه صلاح رعيته، ولا يراه وصمة ولا نقيصة ولا عيباً، ولا يقع في معاناة صغيرة من الأمور تعقبها كبيرة، فإن السائس الفاضل قد يركب الأخطار، ويخوض الغمار، ويعرض مهجته، فيما ينفع رعيته، والذي تجشمته من مكاتبتنا إن كان كما وصفته فهو أمر سهل يسير، لأمر عظيم خطير، وجل نفعه وصلاحه وعائدته تخصكم، لأن مذهبنا انتظار إحدى الحسنيين، فمن كان منا في أيديكم فهو على بينة من ربه، وعزيمة صادقة من أمره، وبصيرة فيما هو بسبيله، وإن في الأسارى من يؤثر مكانه من ضنك الأسر وشدة البأساء على نعيم الدنيا وخيرها لحسن منقلبه، وحميد عاقبته، ويعلم أن الله تعالى قد أعاذه من أن يفتنه، ولم يعذه من أن يبتليه. هذا إلى أوامر الإنجيل الذي هو أمامكم، وما توجبه عليكم عزائم سياستكم، والتوصل إلى استنفاذ أسرائكم، ولولا أن إيضاح القول في الصواب، أولى بنا من المسامحة في الجواب، لأضربنا عن ذلك صفحاً. إذ رأينا أن نفس السبب الذي من أجله سما إلى مكاتبة الخلفاء عليهم

السلام من كاتبهم، أو عدا عنهم إلى من حل محلنا في دولتهم، بل إلى من نزل عن مرتبتنا، هو أنه لم يثق من منعه، ورد ملتمسه ممن جاوره، فرأى أن يقصد به الخلفاء الذين الشرف كله في إجابتهم، ولا عار على أحد وأن جل قدره في ردهم، ومن وثق في نفسه ممن جاوره وجد قصده أسهل السبيلين عليه وأدناهما إلى إرادته حسب ما تقدم لها من تقدم. وكذلك كاتب من حل محلك من قصر عن محلنا، ولم يقرب من منزلتنا، فممالكنا عدة، كان يتقلد في سالف الدهر كل مملكة منها ملك عظيم الشأن.

فمنها ملك مصر الذي أطغى فرعون على خطر أمره، حتى ادّعى الإلهية وافتخر على نبي الله موسى بذلك.

ومنها ممالك اليمن التي كانت للتبابعة، والاقيال العباهلة: ملوك حمير، على عظم شأنهم، وكثرة عددهم.

ومنها أجناد الشام التي منها جند حمص، وكانت دارهم ودار هرقل عظيم الروم ومن قبله من عظمائها.

ومنها جند دمشق على جلالته في القديم والحديث، واختيار الملوك المتقدمين له.

ومنها جند الأردن على جلالة قدره، وأنه دار المسيح ﷺ وغيره من الأنبياء والحواريين.

ومنها جند فلسطين، وهي الأرض المقدسة، وبها المسجد الأقصى، وكرسي النصرانية، ومعتقد غيرها ومحج النصارى واليهود طرا، ومقرّ داود وسليمان ومسجدهما. وبها مسجد إبراهيم وقبره وقبر إسحاق ويعقوب ويوسف وإخوته وأزواجهم عليهم السلام، وبها مولد المسيح وأمه وقبرها.

هذا إلى ما نتقلده من أمر مكة المحفوفة بالآيات الباهرة، والدلالات الظاهرة فإنا لو لم نتقلد غيرها لكانت بشرفها، وعظم قدرها، وما حوت من

الفضل توفي على كل مملكة، لأنها محج آدم ومحج إبراهيم وارثه ومهاجره، ومحج سائر الأنبياء، وقبلتنا وقبلتهم عليهم السلام وداره وقبره، ومنبت ولده ومحج العرب على مر الحقب، ومحل أشرافها، وذوي أخطارها، على عظم شأنهم، وفخامة أمرهم. وهو البيت العتيق، المحرم المحجوج إليه من كل فج عميق ـ الذي يعترف بفضله وقدمه أهل الشرف، من مضى ومن خلف، وهو البيت المعمور، وله الفضل المشهور.

ومنها مدينة الرسول ﷺ المقدسة بتربته، وانها مهبط الوحي، وبيضة هذا الدين المستقيم الذي امتد ظله على البر والبحر، والسهل والوعر، والشرق والغرب، وصحارى العرب على بعد أطرافها، وتنازح أقطارها، وكثرة سكانها في حاضرتها وباديتها، وعظمها في وفودها وشدتها، وصدق بأسها ونجدتها، وكبر أحلامها، وبعد مرامها، وانعقاد النصر من عند الله براياتها. وان الله تعالى أباد خضراء كسرى، وشرد قيصر عن داره ومحل عزه ومجده بطائفة منها. هذا إلى ما تعلمه من أعمالنا، وتحت أمرنا ونهينا ثلاثة كراسي من أعظم كراسيكم: بيت المقدس، وأنطاكية، والاسكندرية. مع ما إلينا من البحر وجزائره، واستظهارنا بأتم العتاد. وإذا وفيت النظر حقه علمت أن الله تعالى قد أصفانا بجل الممالك التي تنفع الأنام بها، وبشرف الأرض المخصوصة بالشرف كله دنيا وآخرة، وتحققت أن منزلتنا بما وهبه الله لنا من ذلك فوق كل منزلة. والحمد لله ولي كل نعمة.

وسياستنا لهذه الممالك قريبها وبعيدها على عظمها وسعتها بفضل الله علينا وإحسانه إلينا ومعونته لنا وتوفيقه إيانا كما كتبت إلينا وصح عندك من حسن السيرة، وبما يؤلف بين قلوب سائر الطبقات من الأولياء والرعية ويجمعهم على الطاعة واجتماع الكلمة، ويوسعها الأمن والدعة في المعيشة ويكسبها المودة والمحبة.

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً على نعمه التي تفوق عندنا عدد العادين، وإحصاء المجتهدين، ونشر الناشرين، وقول القائلين، وشكر

الشاكرين. ونسأله أن يجعلنا ممن تحدث بنعمته عليه شكراً لها، ونشراً لما منحه الله منها (ومن رضى اجتهاده في شكرها، ومن أراد الآخرة) وسعى لها سعيها وكان سعيه مشكوراً، إنه حميد مجيد.

وما كنت أحب أن أباهيك بشيء من أمر الدنيا، ولا أتجاوز الاستيفاء لما وهبه الله لنا من شرف الدين الذي كرمه وأظهره، ووعدنا في عواقبه الغلبة الظاهرة، والقدرة القاهرة، ثم الفوز الأكبر يوم الدين. لكنك سلكت مسلكاً لم يحسن أن نعدل عنه، وقلت قولاً لم يسعنا التقصير في جوابه، ومع هذا فإنا لم نقصد بما وصفناه من أمرنا مكاثرتك، ولا اعتمدنا تعيين فضل لنا نعوذ به، إذ نحن نكرم عن ذلك، ونرى أن نكرمك عند محلك ومنزلتك، وما يتصل بها من حسن سياستك ومذهبك في الخير ومحبتك لأهله، وإحسانك لمن في يدك من أسرى المسلمين، وعطفك عليهم، وتجاوزك في الإحسان إليهم، جميع من تقدمك من سلفك. ومن كان محموداً في أمره، رغب في محبته، لأن الخير أهل أن يحب حيث كان. فإن كنت إنما تؤهل لمكاتبتك ومماثلتك من اتسعت مملكته، وعظمت دولته، وحسنت سيرته، فهذه ممالك عظيمة، واسعة جمة، وهي أجل الممالك التي ينتفع بها الأنام، وسر الأرض المخصوصة بالشرف. فإن الله قد جمع لنا الشرف كله، والولاء الذي جعل لنا من مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، مخصوصين بذلك إلى ما لنا بقديمنا وحديثنا وموقعنا. والحمد لله رب العالمين الذي جمع لنا ذلك بمنه وإحسانه، ومنه نرجو حسن السعي فيما يرضيه بلطفه. ولم ينطو عنك أمرنا فيما اعتمدناه.

وإن (كنت) تجري في المكاتبة على رسم من تقدمك فإنك لو رجعت إلى ديوان بلدك، وجدت من كان تقدّمك قد كاتب من قبلنا من لم يحل محلنا، ولا أغنى غناءنا، ولا ساس في الأمور سياستنا، ولا قلده مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ما قلدناه، ولا فوض إليه ما فوض إلينا، وقد كوتب أبو الجيش خمارويه بن أحمد ابن طولون، وآخر من كوتب تكين مولى أمير المؤمنين، ولم يكن تقلد سوى مصر وأعمالها.

ونحن نحمد الله كثيراً أولاً وآخراً على نعمه التي يفوت عندنا عددها عد العادين، ونشر الناشرين. ولم يرد بما ذكرناه المفاخرة، ولكنا قصدنا بما عددنا من ذلك حالات: أولها التحدث بنعمة الله علينا، ثم الجواب عما تضمنه كتابك من ذكر المحل والمنزلة في المكاتبة، ولتعلم ما قد بسطه الله لنا في هذه المسالك وعندنا قوة تامة على المكافأة على جميل فعلك بالأسارى، وشكر واف لما توليهم وتتوخاه من مسرتهم إن شاء الله تعالى وبه الثقة، وفقك الله لمواهب خيرات الدنيا والآخرة، والتوفيق للسداد في الأمور كلها، والتيسير لصلاح القول والعمل الذي يحبه ويرضاه وثيب عليه، ويرفع في الدنيا والآخرة أهله، بمنّه ورحمته.

وأما الملك الذي ذكرت أنه باق على الدهر لأنه موهوب لكم من الله خاصة، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. وإن الملك كله لله يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وإليه المصير، وهو على كل شيء قدير. وإن الله عز وجل نسخ ملك الملوك وجبرية الجبارين بنبوة محمد ﷺ وعلى آله أجمعين، وشفع نبوته بالإمامة وحازها إلى العترة الطاهرة من العنصر الذي منه أمير المؤمنين أطال الله بقاءه والشجرة التي منها غصنه، وجعلها خالدة فيهم يتوارثها منهم كابر عن كابر، ويلقيها ماض إلى غابر، حتى نجز أمر الله ووعده، وبهر نصره وكلمته، وأظهر حجته وأضاء عمود الدين بالأئمة المهتدين وقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المشركون حتى يرث الله الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

وإن أحق ملك أن يكون من عند الله، وأولاه وأخلقه أن يكنفه الله بحراسته وحياطته، ويحفه بعزه وأيده، ويحلله بها السكينة في بهجة الكرامة، ويجمله بالبقاء والنجاء ما لاح فجر، وكر دهر، ملك إمامة عادلة خلفت نبوة فجرت على رسمها وسننها، وارتسمت أمرها، وأقامت شرائعها، ودعت إلى سبلها، مستنصرة بأيدها منتجزة لوعدها، وإن يوماً واحداً من إمامة عادلة خير عند الله من عمر الدنيا تملكاً وجبرية.

ونحن نسأل الله تعالى أن يديم نعمه علينا، وإحسانه إلينا بشرف الولاية، ثم بحسن العاقبة بما وفر علينا فخره وعلاه، ومجده وإحسانه إن شاء الله، وبه الثقة، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وأما الفداء ورأيك في تخليص الأسرى، فإنا وإن كنا واثقين لمن في أيديكم بإحدى الحسنيين، وعلى بينة لهم من أمرهم، وثبات من حسن العاقبة وعظم المثوبة، عالمين بما لهم، فإن فيهم من يؤثر مكانه من ضنك الأسر وشدة البأساء على نعيم الدنيا ولذتها، سكونا إلى ما يتحققه من حسن وجزيل الثواب. ويعلم أن الله قد أعاذه من أن يفتنه، ولم يعذه من أن يبتليه، وقد تبينا مع ذلك في هذا الباب ما شرعه لنا الأئمة الماضون، والسلف الصالحون، فوجدنا ذلك موافقاً لما ألتمسته، وغير خارج عما أحببته، فسررنا بما تيسر منه، وبعثنا الكتب والرسل إلى عمالنا في سائر أعمالنا، وعزمنا عليهم في جمع (كل من قبلهم وأتباعهم بما وفر الإيمان في انفاذهم، وبذلك في ذلك) كل ممكن، وأخرنا إجابتك عن كتابك ليتقدم فعلنا قولنا، وانجازنا وعدنا، ويوشك أن يكون قد ظهر لك من ذلك ما وقع أحسن الموقع منك إن شاء الله.

وأما ما ابتدأتنا به من المواصلة، واستشعرته لنا من المودة والمحبة، فإن عندنا من مقابلة ذلك ما توجبه السياسة التي تجمعنا على اختلاف المذاهب، وتقتضيه نسبة الشرف الذي يؤلفنا على تباين النحل، فإن ذلك من الأسباب التي تخصنا وإياك. ورأينا من تحقيق جميل ظنك بنا إيناس رسلك وبسطهم، والاستماع منهم والإصفاء إليهم والإقبال عليهم، وتلقينا انبساطك إلينا، والطافك إيانا بالقبول الذي يحق علينا، ليقع ذلك موقعه، وزدنا في توكيد ما اعتمدته ما حملناه رسلك في هذا الوقت على استقلالنا إياه من طرائف بلدنا وما يطرأ من البلاد علينا، وإن الله بعدله وحكمته أودع كل قرية صنفاً، ليتشوف إليه من بعد عنه، فيكون ذلك سبباً لعمارة الدنيا ومعايش أهلها، ونحن نفردك بما سلمناه إلى رسولك لتقف عليه إن شاء الله.

وأما ما أنفذته للتجارة فقد أمكنا أصحابك منه، وأذنا لهم في البيع وفي ابتياع ما أرادوه واختاروه، لأنا وجدنا جميعه مما لا يحظره علينا دين ولا سياسة. وعندنا من بسطك وبسط من يرد من جهتك، والحرص على عمارة ما بدأتنا به ورعايته، ورب ما غرسته، أفضل ما يكـون عند مثلنـا لمثلك. والله يعين على ما ننويه من جميل، ونعتقد، من خير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ومن ابتدأ بجميل لزمه الجري عليه والزيادة، ولا سيما إذا كان من أهله وخليقاً به. وقد ابتدأتنا بالمؤانسة والمباسطة، وأنت حقيق بعمارة ما بيننا، وباعتمادنا بحوائجك وعوارضك قبلنا، فأبشر بتيسير ذلك إن شاء الله.

والحمد لله أحق ما ابتدى به، وختم بذكره، وصلى الله على محمد نبي الهدى والرحمة، وعلى آله وسلم تسليماً».

ملحق رقم (٣)

نص رسالة الأمير عبد الرحمن الثاني إلى الأمبراطور ثيوفيلوس ردًا على رسالة سابقة منه[١]

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فقد بلغني كتابك، تذكر فيه الذي كان عليه من مضى منكم لاولينا من المودة الصادقة، وأنه قد دعاك ذلك إلى مكاتبتنا، وإرسال قرطيوس رسولك إلينا لتجديد تلك المودة، وترتيب تلك المصادقة، وتسأل أن ينعقد فيما بيننا وبينك من ذلك ما نتمسك به، ونتواصل له، ونبعث رسلاً من عندنا إليك، ليعلموك بالذي نحن عليه من الرغبة فيما حضضت عليه، ودعوت إليه لتثبت بقدومهم عليك مودتنا وتتم به صداقتنا.

وفهمنا ما ذكرته من أمر الخليفة مروان رضي الله عنه وصلى الله، ومن وشائج قرابتنا منه، وآسيت لما استلب من سلطانه، واستبيح من حرمه، واستحل من دمه، وما كان من الفاجر أبو جعفر تربه الله، وجراءته على الله، واغتراره به، وانتهاكه لمحارمه، والله قد أحصى عليه ذلك، فآسفه منه، فهو لا محالة يجازيه جزاء سعيه.

ثم الذي ذكرته من فعل الخبيثين ابن مراجل وابن مارده أخيه بعده، من الحادهما في نحلتهما، واساءتهما لسيرتهما، ورغبتهما في رعيتهما،

(١) عن ليفي برفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ص ١١٤ - ١١٨.

وشدة وطأتهما عليهم، واستحلالهما دماءهم وأموالهم، وما ذكرت من حضور وقت زوال دولتهم، وانقطاع مدة سلطانهم، وتأذن الله برد دولتنا، وسلطان آبائنا، الذين نبأت عنهم الكتب ونطقت بهم الرسل، وأوجب لهم الإجماع، وحازه إليهم البرهان، والذي حضضت عليه من الخروج إليهم، وطلب الثأر منهم، ووعدته من نصرتك لنا، بما ينصر الصديق صديقه، ومن يعلم هواه فيه ومودته له وما عطفت عليه من أمر أبي حفص، ومن معه من جالية بلدنا، وغلبتهم على ما غلبوا عليه من بلدك، وخضوعهم لابن ماردة ودخولهم في طاعته، وما سألت من أهل الإنكار لذلك والأنفة منه، وحكيت من أمراء أفريقية في نزعهم عن ابن ماردة، وخلافهم عليه، واستثقالهم لدولته. وكل ما حكيت من ذلك وقصصته في كتابك، فقد قرأناه وفهمناه.

وأما ما رغبت من مودتنا، وأحببته من مصادقتنا، وأردت تجديده وتوصيله والتمسك به وتوثيقه، مما كان عليه أولوك لأولينا، فقد رغبنا منك في مثل الذي ذكرته من حرصك على مواصلتنا. وأن نتمسك من ذلك، بما كان عليه سلفنا وما لم يزل من كان قبلنا من الملوك يتمسكون به، ويتحاضون عليه، ويحفظه بعض لبعض، ويشدون أيديهم به.

وأما ما ذكرت من أمر الخليفة مروان بن محمد رحمه الله، فإن الله تعالى أحب أن يكرمه، بما انتهك من حرمته ونكث من بيعته ويسوقه إلى رحمته، وأن يشقى بذلك من ركبه منه، ويخزيه ويعذبه عليه.

وأما ما كان عليه الفاجر أبو جعفر في تعذيبه العباد، وظلمه وجرأته على الله، وانتهاكه لمحارمه، فإن الله قد أخذه بذنبه، واستدركه ببغيه وصيره من عذابه ونكاله، إلى مالا انقطاع له، ولا تخلص منه، جزاء بما اجترح، وكذلك حكم الله في أهل معصيته، وأولى الاجتراء والافتراء عليه.

وأما ما ذكرت من أمر الخبيث ابن ماردة، وحضضت عليه من الخروج إلى ما قلته وذكرته من تقارب انقطاع دولته ودولة أهله، وزوال سلطانهم، وما حضر من وقت رجوع دولتنا، وأزف من حين ارتجاع

سلطاننا، فإننا نرجو في ذلك عادة الله عندنا، ونستنجز موعوده إيانا، ونمتري حسن بلائه لدينا بما جمع لنا من طاعة من قبلنا، من أهل شأمنا وأندلسنا وأجنادنا وكورنا وثغورنا، وما لم نزل نسمع ونعترف، أن النقمة تنزل بهم والدائرة تحل عليهم من أهل المغرب بنا وعلى أيدينا، فيقطع الله دابرهم، ويستأصل شأفتهم إن شاء الله تعالى.

وأما ما ذكرت من أمر أبي حفص الأندلسي، ومن صار معه من أهل بلدنا، في خضوعهم لابن ماردة، ودخولهم في طاعته وما سألت من النظر في أمورهم، والانكار لفعلهم، فإنه لم ينزع إليه منهم إلا سفلتهم وسوادهم وفسقتهم وأباقهم، وليسوا في بلدنا ولا برتبتنا فنغير عليهم، ونكفيك مؤنتهم، وإنما اضطروا إلى الدخول في طاعة ابن ماردة، فمأمنهم من بلاده، ودنوا ناحيتهم من ناحيته، ولم نكن نحسبك تعجز عنهم، ولا تصعب عن نكايتهم، ولا تتوقف عن إخراجهم عما تطرقوه من بلدك، وإذ ترى مكانهم به من موضعك وإن الله بحوله وقوته وفضله ومنته رد إلينا سلطاننا بالمشرق وما كان تحت أيدي آبائنا منه نظرنا في ذلك بما فيه صلاح لنا ولك، واستقامة لطاعتنا وطاعتك، وعرفنا الذي يكون من معونتك على ما دعوت إليه، وحضضت عليه بما يعرفه الصديق لصديقه، وذو المودة لأهل مودته، ولم يضع لك عندنا ما رعيته من حقنا وقمت فيه من حفظنا.

وقد أدخلنا رسولك قرطيوس علينا، وكشفناه على الذين أوصيت به إلينا، وعن كل ما يجب لصديق أن يعرفه من حال صديقه، ووجهنا إليك بكتابنا هذا رسولين من صالحي من قبلنا، فاكتب إلينا معهما بالذي أنت عليه من الأمر الذي كتبت به إلينا، والذي يجب عليك من سائر خبرك ومتعة عافيتك للنظر فيما يتصرفان به من عندك على حسب ما يأتينا به من عندك إن شاء الله».

ملحق رقم (٤)

نص حوار دبلوماسي بين الخليفة الفاطمي المعز وسفير بيزنطي[1]

قال: «وقدم إليه بطريق من بطارقة الروم وأشرافهم رسولاً عن طاغيتهم صاحب القسطنطينية بما أوجبه على نفسه من مغرم الجزية عن أرض قلورية كما يبعث بذلك لكل سنة، وجاء منه بهدايا كثيرة من آنية الذهب والفضة المرصعة بالجوهر وديباج وحرير وبرذون وغير ذلك من نفيس ما عندهم، وبكتاب من مرسله يخضع فيه إليه ويرغب ويسأل ويطلب الكف عن حربه ويسأل الموادعة. وبعث بعدد كثير من أساري أهل المشرق وما لم يكن قط قبل ذلك طاغية الروم بعث بمثلهم إلى ملك من ملوك المغرب ولا إلى أحد ممن مضى من الأئمة قبل المعز ولا كان طاغية الروم يؤدي خراجاً ولا جزية عن أحد من أهل ملته إلى غيره. فقبل ذلك الرسول الأرض مراراً بين يدي/ المعز ومثل قائماً بين يديه، فأدى إليه رسالة مرسله ودفع إليه كتابه واستأذنه في إدخال هديته، وذلك بعد أن وصل مال الجزية إلى عامل صقلية على الرسم المقدم الجاري.

فأذن له أمير المؤمنين في إدخالها وأسعفه بقبولها وكان أكثر ما أدى إليه الرسول عن طاغية الروم وما جاء في كتابه إليه سؤاله الهدنة مؤبدة على ما أجراه من الخراج والجزية على أهل قلورية، وبأن يرسل رسولاً من قبله ليسر بذلك ويفعل فيه ما يجب على مثله لمحبته بزعمه وميله.

---

(١) عن القاضي النعمان: المجالس والمسيرات، ص ٣٦٦ - ٣٧٠.

فأجاب المعز رسوله عن ذلك بأن الدين والشريعة يمنعان من الذي سأله من الهدنة المؤبدة/ لأن الله إنما بعث محمداً رسوله ﷺ وأقام الأئمة من ولده من بعده يدعون إلى دينه ويجاهدون من خالفه حتى يدخلوا فيه أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون داخلون في حكم إمام أهل الإسلام وذمته. فإن الموادعة إنما تجوز لمدة معلومة على ما يراه إمام المسلمين صالحاً لهم وللدين، ولو كانت مؤبدة لبطل الجهاد المفروض على العباد، وانقطعت دعوة الإسلام وخولف حكم الكتاب.

وعرّفه أنه مما ينبغي لمثل من كان في محل ملكه الذي أرسله لا يغيب عنه مثل هذا من شريعة من يخاطبه ويكاتبه والا يسأل ما لا توجبه الشريعة لمن سأله.

فاعترف العلج بذلك على مرسله/ وسأل الزيادة في مدة الهدنة عنه له. فقال المعز: جواب هذا في كتابنا المقدم معك قبل اليوم إليه: أنه ما دام على ما شرطناه عليه وأوجبه لنا على نفسه لم نبدأه بحرب حتى ننبذ إليه عهده، أو بعد أن تنقضي مدة الموادعة بيننا وبينه، لا نخفر ولا نغدر كما تخفرون أنتم وتغدرون.

وعدد عليه أشياء من ذلك فعلوها، فاعتذر منها عن ملكه بأن ذلك لم يكن من فعله وأنه أنكره وطالب من فعله.

فقال له المعز: فإذا كان الأمر على ما تصفه من ملكك أنه يتغلب على أمره ويعجز عمن خالفه وغلب عليه من أهل ملته، فأي فائدة في موادعته إذا كان عاجزاً مغلوباً؟

ولكن هل لك وله في أن أعقد له ما يتفق معي على عقده على من يرى أنه في غير مملكتي ممن يقابله من جهة المشرق كابن حمدان وغيره. فإن خرجوا عما أعقده عليهم فلا عقد بيني وبينه. فأما من حوته مملكتي وحدود طاعتي فقد علم وعلمت أنهم أقدر على أهل دينه ومملكته وبلده لو

أرادوا الخفر والغدر كابن حمدان، فهل بلغه أو بلغك أن أحداً منهم تعدى لي، فيما جعلته له، أمراً وخالف شيئاً منه؟

فجعل العلج يعترف بذلك وبالفضل لولي الله ويسأل ويرغب إليه. فأعرض المعز عن جوابه عن ذلك وجعل يسأله عن كيف الحال بينهم وبين أهل طرسوس وابن حمدان في حروبهم ومعاملتهم إيّاهم في حديث أطاله. وكان ذلك العلج يجيبه عما يسأله من ذلك عنه. فنظر بعض من في المجلس إلى بعضهم كمن لا يدري ما معنى السؤال عن ذلك والمفاوضة فيه. ثم عاود العلج في سؤال رسول يرسله إلى ملكه وذكر له تواتر رسله عليه وعلى آبائه مذ أفضى الله بالأمر إليهم وأنه لم يمض رسول منه ولا منهم إليه.

فقال المعز: إن أحداً من الناس لا يرسل رسولاً إلى أحد إلا لحاجة له إليه ولأمر يجب له عليه. ونحن بحمد الله، فلا نعلم أن لنا إلى صاحبك من حاجة ولا له علينا أمر واجد. فلماذا نرسل إليه؟ اللهم إلا أن يكون أمر من أمور الدين ينبغي لنا مراسلته ومفاوضته فيه وهو من المباح في دينه، ولكن نظن أن يكبر، عليه، فإن نحن أرسلنا فيه إليه، فعلمت أنه يجيبنا فيه، سهل علينا أن نرسل إليه رسولاً كما سأل وسألت عنه. فلو كان ذلك لله ولدينه لم نفعل ذلك له، ولا ينبغي لنا أن نفعله، إلا بعد أن يتحقق عندنا أنه يجيب إليه، لأنا لا نرى أن نسأل أمراً، وإن كان لوجه الله فنجيب فيه. ولأن ذلك، لو كان، لكان سوء عاقبته عليه. ونحن لا نلزمك الجواب في ذلك عنه، والقطع فيه عليه، إذ ذلك مما لا يلزمك ولا ينبغي لك، ولكنا سنأمر بذكر ما نريد ذكره لك وتنصرف وتقف على ذلك منه لأنه أمر كبير. فإذا علمت منه بالحقيقة أنه يحبب إليه، عرفتنا ذلك عنه فيسهل علينا أن نرسل إليه. ولو كان ذلك فيما حوته الدنيا بحذافيرها أو اشتملت عليه بأقطارها، لما سهل علينا أن نرسل فيه رسولاً من قبلنا. ولكنه لما كان لوجه الله وابتغاء ثوابه سهل علينا ووجب لدينا.

فاستعظم العلج القول في ذلك وأقبل على أمير المؤمنين بالمدح والشكر حتى خرج في قوله ذلك إلى الكفر والتشبيه الذي يعتقده. فرد ذلك المعز عليه وتواضع لله كما يجب أن يتواضع له، وعرّفه ذلك ليعلم أنه لم يرضه من قوله وإن كان عند نفسه إنما قصد به تعظيمه ورأى أن ذلك مما يجوز عنده. ثم أمره بالإنصراف إلى المكان الذي أنزله فيه، فانصرف.

ثم عطف على من كان في المجلس كأنه اطلع على ما كان في قلوبهم، فقال: لعل بعضكم أنكر ما أطلعنا سؤاله عنه عن أمرهم مع أهل المشرق؟ ولم نرد بذلك منه الحديث والمذاكرة، ولكني علمت أنه رسول قد لقن ما يقول وأوقف عليه، وعلى ما يجب فيه مما قد لعل من أرسله علم أنه سيسأل عنه. فأتيناه من مكان نعلم أنه لم يتقدم إليه فيه، ولم يعلم مرسله أنه يسأل عنه، حتى أخذنا من قبله ما تقوم به حجتنا عليه من وجه كذا ووجه كذا، وعدد وجوها كثيرة مما سمعناه جرى بينهما لم ندر أن في ذلك حجة حتى ذكره، فإذا فيه حجج وكيدة لم تظهر إلى أحد ممن حضر إلا عند ذكره إياها وبيانه لها.

فقبّلوا الأرض بين يديه وأظهروا السرور بما وهب الله من التأييد له وأمده من العلم والحكمة به. وكان ذلك عنه بعد أن سألهم ما رأوه في مخاطبته إياه فيما خاطبه، وما توهموه في مراده في ذلك، فلم يكن عند أحد منهم علم من ذلك. ثم سألهم هل فيما سمعوه من حجة يرون أنها تقوم عليه أو على مرسله؟ فما علم أحد منهم ذلك. فبعد ذلك قال ما قاله لهم مما ذكرته عنه».

١ ـ الخلفاء العباسيون

(١٣٢ ـ ٦٥٦ هـ/ ٧٥٠ ـ ١٢٥٨ م)

- أبو العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس (١٣٢ ـ ١٣٦ هـ/ ٧٤٩ ـ ٧٥٣ م)
- أبو جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨ هـ/ ٧٥٣ ـ ٧٧٤ م)
- المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ/ ٧٧٤ ـ ٧٨٥ م)
- الهادي (١٦٩ ـ ١٧٠ هـ/ ٧٨٥ ـ ٧٨٦ م)
- هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٠٨ م)
- الأمين (١٩٣ ـ ١٩٨ هـ/ ٨٠٨ ـ ٨١٣ م)
- المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ/ ٨١٣ ـ ٨٣٣ م)
- المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤١ م)
- الواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ/ ٨٤١ ـ ٨٤٦ م)
- أبو جعفر هارون الواثق بالله (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ/ ٨٤٢ ـ ٨٤٧ م)
- أبو الفضل جعفر المتوكل على الله (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ/ ٨٤٧ ـ ٨٦١ م)
- أبو جعفر محمد المنتصر بالله (٢٤٧ ـ ٢٤٨ هـ/ ٨٦١ ـ ٨٦٢ م)
- أبو العباس أحمد المستعين بالله (٢٤٨ ـ ٢٥١ هـ/ ٨٦٢ ـ ٨٦٦ م)
- أبو عبد الله محمد المعتز بالله (٢٥١ ـ ٢٥٥ هـ/ ٨٦٦ ـ ٨٦٩ م)
- أبو إسحاق محمد المهتدي بالله (٢٥٥ ـ ٢٥٦ هـ/ ٨٦٩ ـ ٨٧٠ م)
- أبو العباس أحمد المعتمد على الله (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ/ ٨٧٠ ـ ٨٩٢ م)
- أبو العباس أحمد المعتضد بالله (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ/ ٨٩٢ ـ ٩٠٢ م)
- أبو محمد علي المكتفي بالله (٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ/ ٩٠٢ ـ ٩٠٨ م)
- أبو الفضل جعفر المقتدر بالله (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ/ ٩٠٨ ـ ٩٣٢ م)

- أبو منصور محمد القاهر بالله (٣٢٠ - ٣٢٢ هـ/ ٩٣٢ - ٩٣٤ م)
- أبو العباس أحمد الراضي بالله (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ/ ٩٣٤ - ٩٤٠ م)
- أبو إسحاق إبراهيم المتبقي بالله (٣٢٩ - ٣٣٣ هـ/ ٩٤٠ - ٩٤٤ م)
- أبو القاسم عبد الله المستكفي بالله (٣٣٣ - ٣٣٤ هـ/ ٩٤٤ - ٩٤٦ م)
- أبو القاسم الفضل المطيع لله (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ/ ٩٤٦ - ٩٧٤ م)
- أبو بكر عبد الكريم الطائع لله (٣٦٣ - ٣٨١ هـ/ ٩٧٤ - ٩٩١ م)
- أبو العباس أحمد القادر بالله (٣٨١ - ٤٢٢ هـ/ ٩٩١ - ١٠٣١ م)
- أبو جعفر عبد الله القايم بالله (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ/ ١٠٣١ - ١٠٧٥ م)
- أبو العباس عبد الله المقتدر بأمر الله (٤٦٧ - ٤٨٧ هـ/ ١٠٧٥ - ١٠٩٤ م)
- أبو العباس أحمد المستظهر بالله (٤٨٧ - ٥١٢ هـ/ ١٠٩٤ - ١١١٨ م)
- أبو منصور فضل المسترشد بالله (٥١٢ - ٥٢٩ هـ/ ١١١٨ - ١١٣٥ م)
- أبو جعفر منصور الراشد بالله (٥٢٩ - ٥٣٠ هـ/ ١١٣٥ - ١١٣٦ م)
- أبو عبد الله محمد المقتفي لأمر الله (٥٣٠ - ٥٥٥ هـ/ ١١٣٦ - ١١٦٠ م)
- أبو المظفر يوسف المستنجد بالله (٥٥٥ - ٥٦٦ هـ/ ١١٦٠ - ١١٧٠ م)
- أبو محمد الحسن المستضيء بأمر الله (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ/ ١١٧٠ - ١١٨٠ م)
- أبو العباس أحمد الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ/ ١١٨٠ - ١٢٢٥ م)
- أبو نصر محمد الظاهر بأمر الله (٦٢١ - ٦٢٣ هـ/ ١٢٢٥ - ١٢٢٦ م)
- أبو جعفر المنصور المستنصر بالله (٦٢٣ - ٦٤٠ هـ/ ١٢٢٦ - ١٢٤٢ م)
- أبو أحمد عبد الله المستعصم بالله (٦٤٠ - ٦٥٦ هـ/ ١٢٤٢ - ١٢٥٨ م)[1]

---

(١) سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، جـ١ ص١٢ - ١٣.

أمراء الدولة الأموية وخلفاؤها في الأندلس
(١٣٨ - ٤٢٢ هـ/٧٥٦ - ١٠٢٧ م)

- الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل (١٣٨ - ١٧٢ هـ/٧٥٦ - ٧٨٨ م)
- هشام بن عبد الرحمن (١٧٢ - ١٨٠ هـ/٧٨٨ - ٧٩٦ م)
- الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦ هـ/٧٦٦ - ٨٢٢ م)
- عبد الرحمن الثاني (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ/٨٢٢ - ٨٥٧ م)
- محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ/٨٥٧ - ٨٨٦ م)
- المنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ/٨٨٦ - ٨٨٨ م)
- عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ/٨٨٨ - ٩١٢ م)
- الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ/٩١٢ - ٩٦١ م)
- الحكم الثاني (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ/٩٦١ - ٩٧٦ م)
- هشام الثاني (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ/٩٧٦ - ١٠٠٩ م)
- محمد الثاني (٣٩٩ - ٤٠٠ هـ/١٠٠٩ - ١٠١٠ م)
- سليمان المستعين (٤٠٠ هـ/١٠١٠ م)
- محمد الثاني (مرة ثانية) (٤٠٠ هـ/١٠١٠ م)
- هشام الثاني (مرة ثانية) (٤٠٠ - ٤٠٣ هـ/١٠١٠ - ١٠١٣ م)
- بنو حمود (٤٠٧ - ٤١٣ هـ/١٠١٦ - ١٠١٨ م)
- عبد الرحمن الخامس (٤١٤ هـ/١٠٢٣ م)
- محمد الثالث المستكفي (٣١٣ - ٤١٦ هـ/١٠٢٤ - ١٠٢٥ م)
- هشام الثالث المعتد بالله (٤١٨ - ٤٢٢ هـ/١٠٢٥ - ١٠٢٧ م)[١]

(١) المرجع السابق، جـ ١ ص ٢٧.

خلفاء الدولة الفاطمية

(٢٩٧ ـ ٥٦٧ هـ/ ٩١٠ـ١١٧١ م)

- المهدي بالله أبو محمد عبيد الله (٢٩٧ ـ ٣٢٢ هـ/ ٩١٠ ـ ٩٣٤ م)
- القائم بالله أبو القاسم محمد (٣٢٢ ـ ٣٣٤ هـ/ ٩٣٤ ـ ٩٤٥ م)
- المنصور بالله أبو طاهر إسماعيل (٣٣٤ ـ ٣٤١ هـ/ ٩٤٥ ـ ٩٥٣ م)
- المعز لدين الله أبو تميم معد (٣٤١ ـ ٣٦٥ هـ/ ٩٥٣ ـ ٩٧٥ م)
- العزيز بالله أبو منصور نزار (٣٦٥ ـ ٣٨٦ هـ/ ٩٧٥ ـ ٩٩٦ م)
- الحاكم بأمر الله أو علي المنصور (٣٨٦ ـ ٤١١ هـ/ ٩٩٦ ـ ١٠٢١ م)
- الظاهر لاعزاز دين الله أبو الحسن علي (٤١١ ـ ٤٢٧ هـ/ ١٠٢١ ـ ١٠٣٦ م)
- المستنصر بالله أبو تميم معد (٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ/ ١٠٣٦ ـ ١٠٩٤ م)
- المستعلي بالله أبو القاسم أحمد (٤٨٧ ـ ٤٩٥ هـ/ ١٠٩٤ ـ ١١٠١ م)
- الأمر بأحكام الله أبو علي المنصور (٤٩٥ ـ ٥٢٤ هـ/ ١١٠١ ـ ١١٣٠ م)
- الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد (٥٢٤ ـ ٥٤٤ هـ/ ١١٣٠ ـ ١١٤٩ م)
- الظافر بأمر الله أبو المنصور إسماعيل (٥٤٤ ـ ٥٤٩ هـ/ ١١٤٩ ـ ١١٥٤ م)
- الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى (٥٤٩ ـ ٥٥٥ هـ/ ١١٥٤ ـ ١١٦٠ م)
- العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله (٥٥٥ ـ ٥٦٧ هـ/ ١١٦٠ ـ ١١٧١ م)[١]

(١) سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، جـ ١ ص ١٣٣.

أباطرة الدولة البيزنطية

منذ منتصف القرن الثامن حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي

(٧٥٠ ـ ١٢٦١ م/١٣٢ ـ ٦٦٠ هـ)

ـ ليو الثالث الأيسوري	(٩٩ ـ ١٢٤ هـ)	(717 - 41)	- Leo III
ـ قسطنطين الخامس	(١٢٤ ـ ١٥٩ هـ)	(741 - 75)	- Constantine V
ـ ليو الرابع	(١٥٩ ـ ١٦٤ هـ)	(775 - 80)	- Leo IV
ـ قسطنطين السادس	(١٦٤ ـ ١٨١ هـ)	(780 - 97)	- Constantine
ـ إيرين	(١٨١ ـ ١٨٦ هـ)	(797 - 802)	- Irene
ـ نقفور	(١٨٦ ـ ١٩٦ هـ)	(802 - 11)	- Nicephorus I
ـ استوراثيوس	(١٩٦ هـ)	(811)	- Stauracius
ـ ميشيل الأول	(١٩٦ ـ ١٩٨ هـ)	(811 - 13)	- Michael I Rangabe
ـ ليو الخامس	(١٩٨ ـ ٢٠٥ هـ)	(813 - 20)	- Leo V
ـ ميشيل الثاني	(٢٠٥ ـ ٢١٤ هـ)	(820 - 9)	- Michael II
ـ تيوفيل	(٢١٤ ـ ٢٢٨ هـ)	(829 - 42)	- Theophilus
ـ ميشيل الثالث	(٢٢٨ ـ ٢٥٣ هـ)	(842 - 67)	- Michael III
ـ ميخائيل الثالث	(٢٢٨ ـ ٢٥٣ هـ)	(842 - 867)	- Michael III
ـ باستيليوس الأول	(٢٥٣ ـ ٢٧٣ هـ)	(867 - 86)	- Basil I
ـ ليو السادس	(٢٧٣ ـ ٣٠٠ هـ)	(886 - 912)	- Leo VI
ـ الإسكندر	(٣٠٠ ـ ٣٠١ هـ)	(912 - 913)	- Alexander
ـ قسطنطين السابع	(٣٠١ ـ ٣٢٨ هـ)	(913 - 959)	- Constantine VII
ـ رومانوس الأول ليكابينوس	(٣٢٨ ـ ٣٣٣ هـ)	(920 - 944)	- Romanus I Lecapenus
ـ رومانوس الثاني	(٣٣٣ ـ ٣٥٢ هـ)	(959 - 963)	- Romanus II
ـ نقفور الثاني فوقاس	(٣٥٢ ـ ٣٥٩ هـ)	(963 - 969)	- Nicephorus II Phocas
ـ حنازيمسكس (ابن الشمشقيق)	(٣٥٩ ـ ٣٦٦ هـ)	(969 - 976)	- John I Tzimisces
ـ باسيليوس الثاني	(٣٦٦ ـ ٤١٦ هـ)	(976 - 1025)	- Basil II
ـ قسطنطين الثامن	(٤١٦ ـ ٤١٩ هـ)	(1025 - 1028)	- Constantine VIII

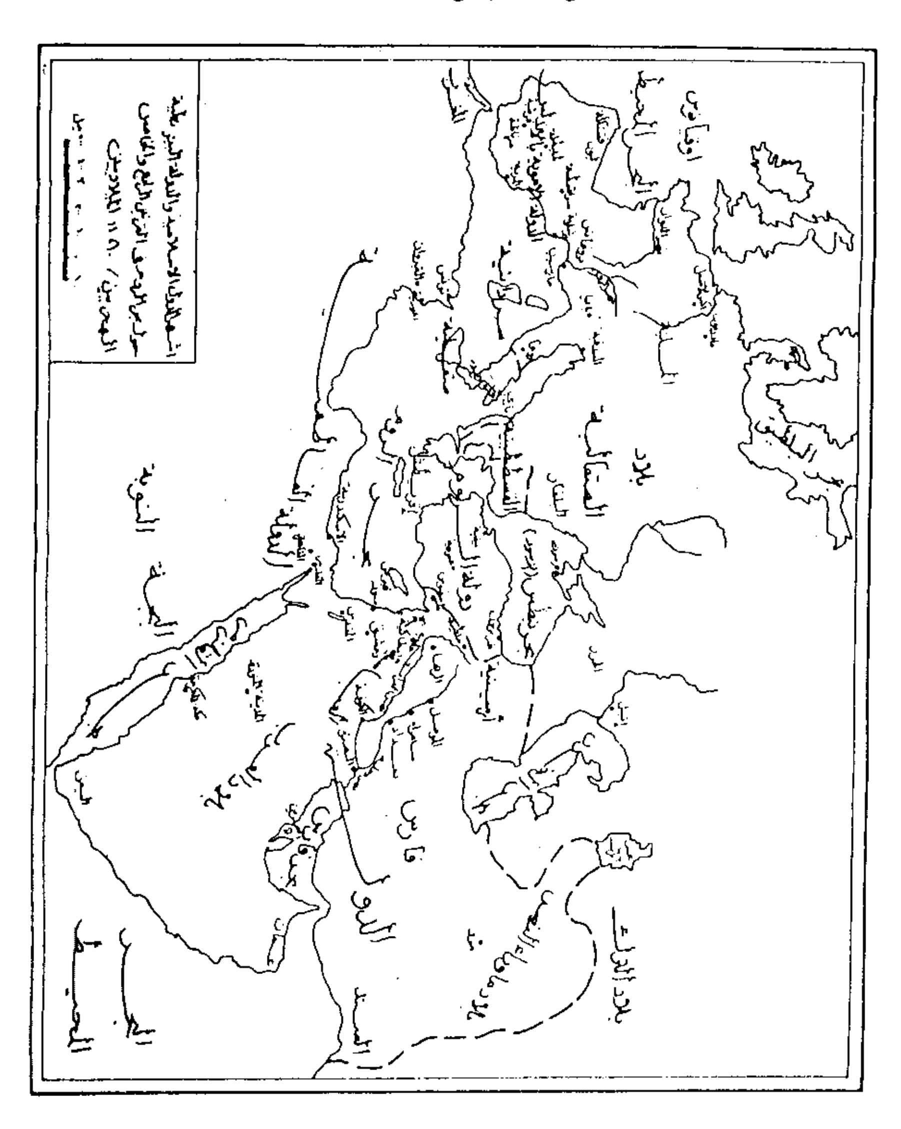
- Romanus III Argyrus	(1028 - 1034)	(٤١٩ - ٤٢٦ هـ)	ـ رومانوس الثالث
- Michael IV	(1034 - 1041)	(٤٢٦ - ٤٣٣ هـ)	ـ ميخائيل الرابع
- Michael V	(1041 - 1042)	(٤٣٣ - ٤٣٤ هـ)	ـ ميخائيل الخامس
- Zoe and Theodora	(1042)	(٤٣٤ هـ)	ـ زوي وتيودورا
- Constantine IX Monomachus	(1042 - 1055)	(٤٣٤ - ٤٤٧ هـ)	ـ قسطنطين التاسع
- Theodora (again)	(1055 - 1055)	(٤٤٧ - ٤٤٨ هـ)	ـ تيودورا
- Michael VI	(1056 - 1056)	(٤٤٨ - ٤٤٩ هـ)	ـ ميخائيل السادس
- Isaac I Commenus	(1057 - 1059)	(٤٤٩ - ٤٥١ هـ)	ـ إزاك الأول كومنين
- Constantine X Ducas	(1059 - 1067)	(٤٥١ - ٤٦٠ هـ)	ـ قسطنطين العاشر دوقاس
- Romanus IV Diogenes	(1068 - 1071)	(٤٦٠ - ٤٦٤ هـ)	ـ رومانوس الرابع
- Michael VII Ducas	(1071 - 1078)	(٤٦٤ - ٤٧١ هـ)	ـ ميخائيل السابع
- Nicephorus III Botaneiates	(1078 - 1081)	(٤٧١ - ٤٧٤ هـ)	ـ نقفور الثالث
- Alexius I Comnenus	(1081 - 1118)	(٤٧٤ - ٥١٢ هـ)	ـ الكسيوس الأول كومنين
- John II Comnenus	(1118 - 1143)	(٥١٢ - ٥٣٨ هـ)	ـ جون الثاني كومنين
- Manuel I Comnenus	(1143 - 1180)	(٥٣٨ - ٥٧٦ هـ)	ـ مانويل الأول
- Alexius II Comnenus	(1180 - 1183)	(٥٧٦ - ٥٧٩ هـ)	ـ الكسيوس الثاني
- Andronicus I Comnenus	(1183 - 1185)	(٥٧٩ - ٥٨١ هـ)	ـ أندرينيقوس الأول
- Isaac II Angelus	(1185 - 1195)	(٥٨١ - ٥٩٢ هـ)	ـ إزاك الثاني
- Alexius III angelus	(1195 - 1203)	(٥٩٢ - ٦٠٠ هـ)	ـ الكسيوس الثالث
- Isaac II (again) and Alexiux IV Angeli	(1203 - 1204)	(٦٠٠ - ٦٠١ هـ)	ـ إزاك الثاني والكسيوس الرابع
- Alexius V Murtzuphlus	(1204)	(٦٠١ هـ)	ـ الكسيوس الخامس
- Theodore I Lascaris	(1204 - 1222)	(٦٠١ - ٦١٩ هـ)	ـ تيودور الأول
- John III Ducas Batatzes	(1222 - 1254)	(٦١٩ - ٦٥٢ هـ)	ـ جون الثاني
- Theadore II Lascaris	(1254 - 1259)	(٦٥٢ - ٦٥٦ هـ)	ـ تيودور الثاني
- John IV Lascaris	(1258 - 1261)	(٦٥٦ - ٦٦٠ هـ)	ـ جون الرابع

(١) نقلاً عن:

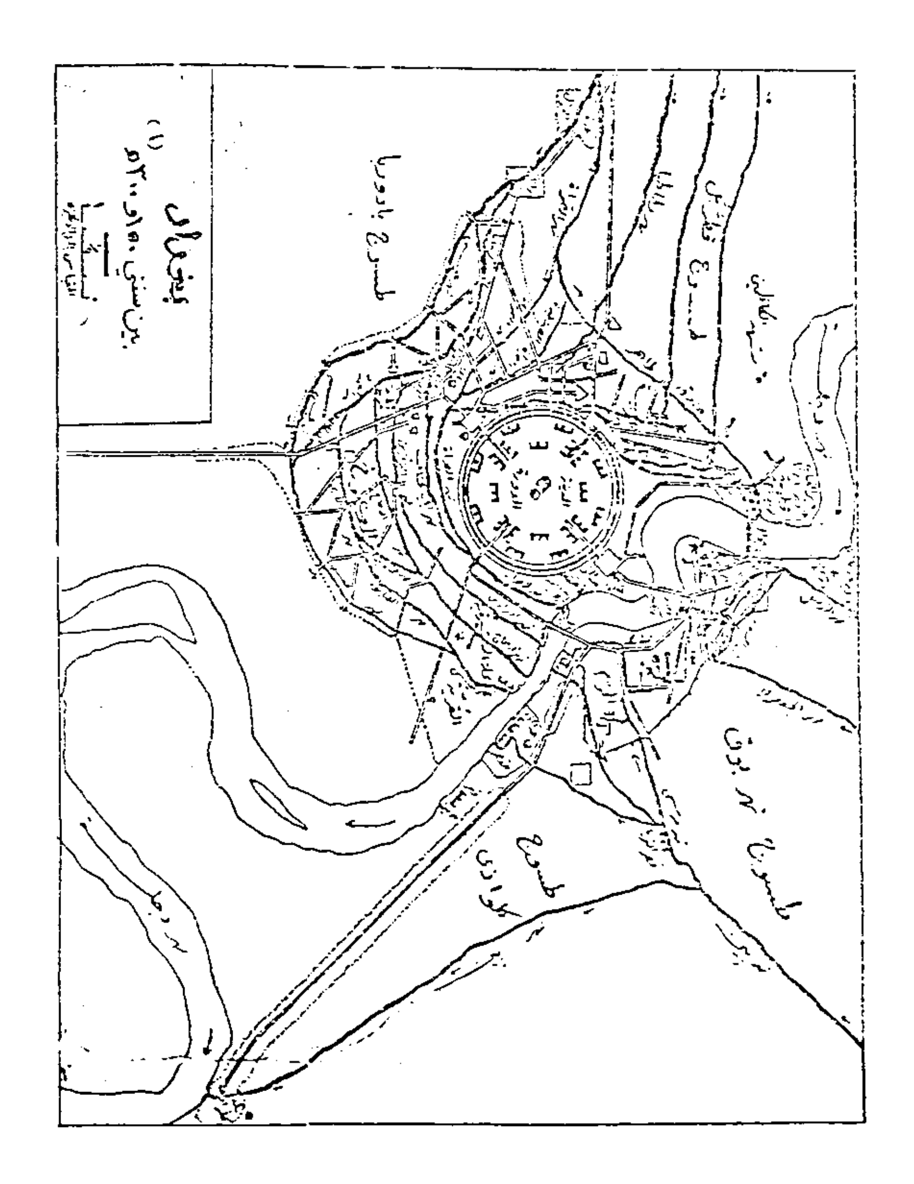
- Ostrogorsky: History of The Byzantine State p 580.

وقوبلت التواريخ الهجرية حسب جداول هازارد: أطفس التاريخ الإسلامي القاهرة، ١٩٥٤ م، ص ٤٤ ـ ٤٥.

أشهر الدول الإسلامية والدولة البيزنطية حول بحر الروم في القرنين الرابع والخامس الهجريين/ ١٠، ١١ الميلاديين

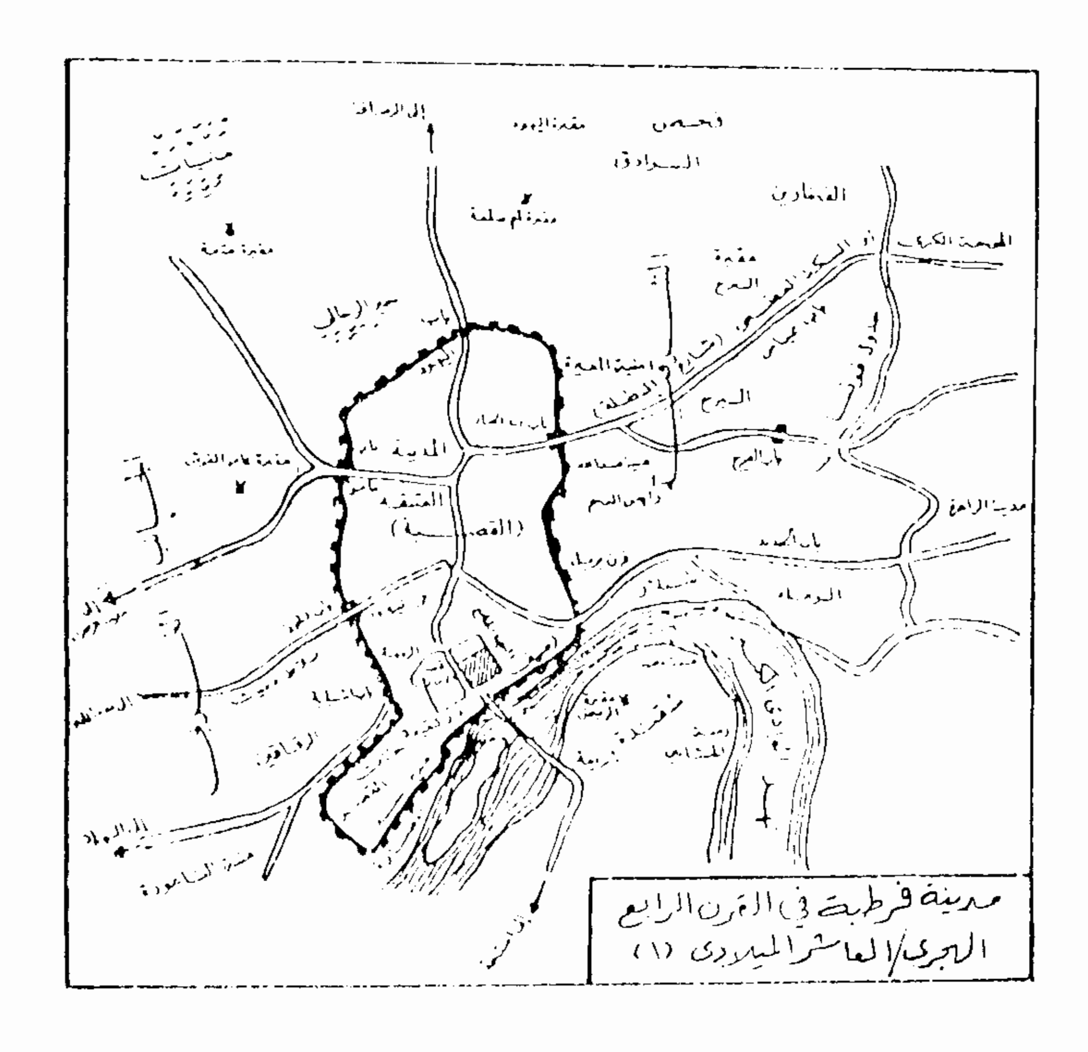


(١) انظر هازارد: أطلس التاريخ الإسلامي، ص ١٥.
Shephard; Historical Atlas. New York. 1965. PP 58 - 9.



بغداد بين سنتي ١٥٠ و ٣٠٠ هـ[١]

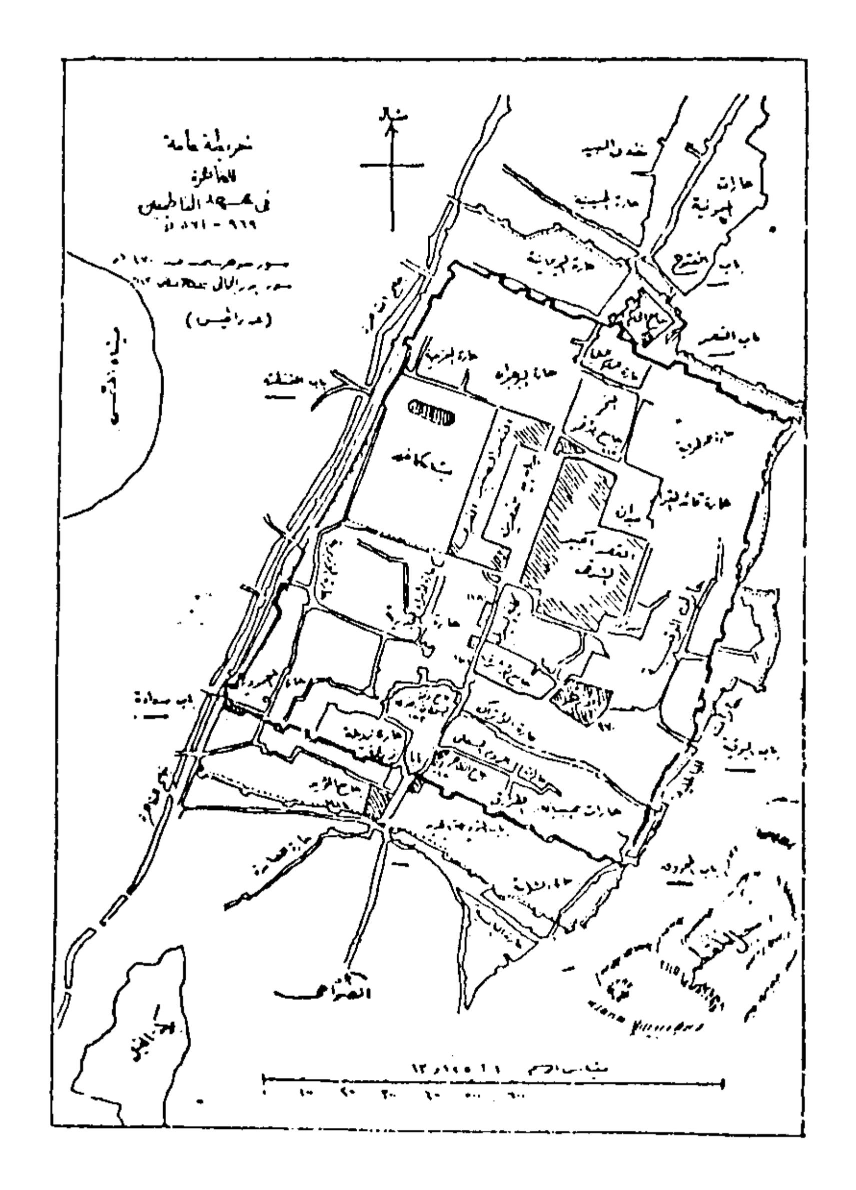
(١) نقلاً عن لسترنج: بغداد في عهد الخلافة العباس، ص ٥١.



مدينة قرطبة في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي[1]

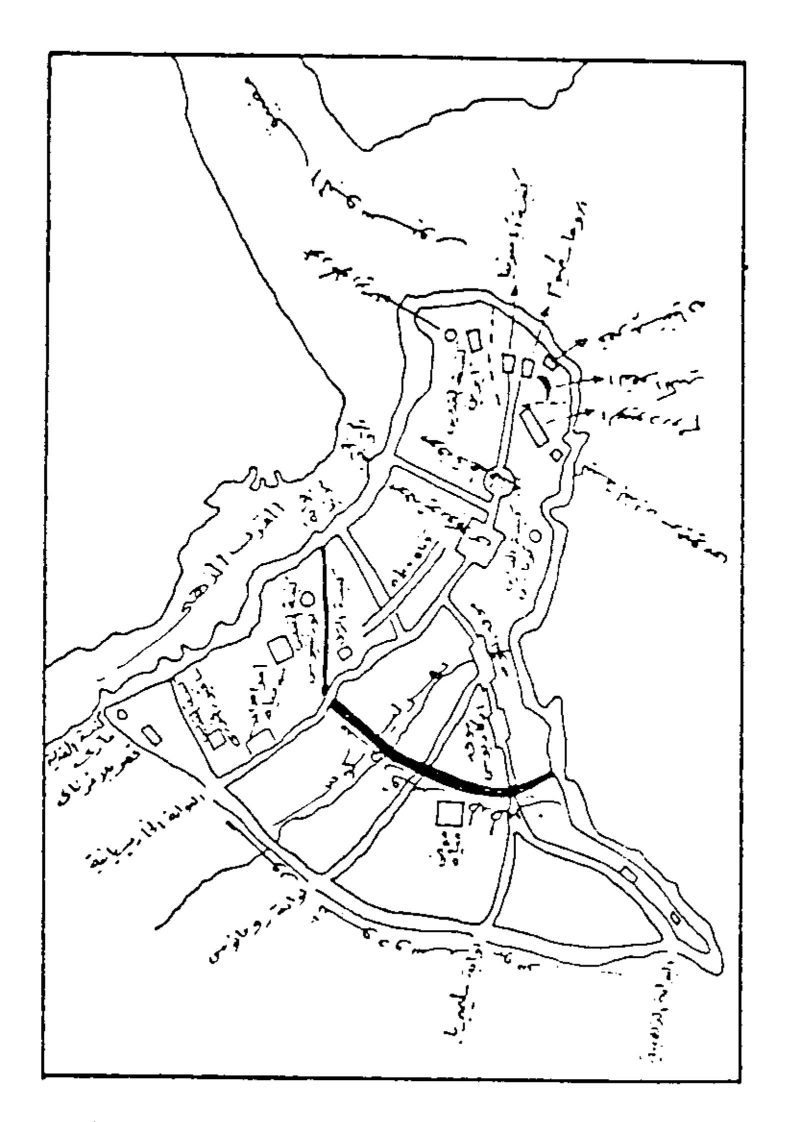
---

(١) نقلاً عن سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، بيروت ١٩٧١م، جـ١ ص ٤٠٩.



خريطة مدينة القاهرة في العهد الفاطمي[1]

(١) نقلاً عن زكي: موسوعة مدينة القاهرة، القاهرة ١٩٦٩ م، ص ١٨٢.



خريطة مدينة القسطنطينية في نهاية القرن السادس الهجري، أوائل القرن الثاني عشر الميلادي(١)

(١) نقلاً عن اسمت غنيم: الحملة الصليبية الرابعة، جدة ١٣٩٨ هـ، خريطة رقم (٢).
من٢٣٩ /٢٩٢

المصادر والمراجع

المصادر

ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي المتوفى سنة ٩٥٨ هـ):
كتاب الحلة السيراء، تحقيق الدكتور حسين مؤنس. الشركة العربية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٣ م.

الأبشيهي (شهاب الدين أحمد المتوفى سنة ٨٠٥ هـ):
المستطرف في كل فن مستطرف: ط ٢ القاهرة ١٩٥٣ م.

ابن الأثير (عز الدين علي بن محمد المتوفى سنة ٦٣٠ هـ):
الكامل في التاريخ، دار صادر ودار بيروت. بيروت ١٩٦٥ م.

إدريس (عماد الدين القرشي المتوفى سنة ٨٧٢ هـ):
عيون الأخبار وفنون الأثار، تحقيق الدكتور مصطفى غالب. بيروت ١٩٧٥.

الأزهري (أبو منصور محمد بن أحمد المتوفى سنة ٣٧٠ هـ):
تهذيب اللغة: تحقيق أحمد البردوني، القاهرة ١٩٦٦ م.

الأسنوي (جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن المتوفى سنة ٧٧٢ هـ):
طبقات الشافعية، ديوان الأوقاف العراقي. بغداد ١٣٩١ هـ.

الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين):
كتاب الأغاني، القاهرة. دار الكتب المصرية ١٩٣٥ م.

ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم السعدي المتوفى سنة ٦٦٨ هـ):
عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا. دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٥ م.

ابن بسام (أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني المتوفى سنة ٥٤٢ هـ):
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، جامعة القاهرة. القاهرة ١٩٣٩ م.

البيهقي (إبراهيم بن محمد المتوفى سنة ٣٢٠ هـ):
المحاسن والمساوىء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر. القاهرة ١٩٦١ م.

ابن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف المتوفى سنة ٨٧٤ هـ):
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة المصرية (بدون تاريخ).

التنوخي (أبو علي الحسن بن علي المتوفى سنة ٣٨٤ هـ):
نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق عبود الشالجي، بحمدون لبنان ٢٩٧١ م.

الجاحظ (عمرو بن بحر بن محبوب المتوفى سنة ٢٥٥ هـ):
التاج في أخلاق الملوك، تحقيق أحمد زكي. المطبعة الأميرية. القاهرة ١٩١٤ م.

ابن جلجل (أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي المتوفى سنة ٣٨٤):
طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد. المعهد العلمي الفرنسي القاهرة ١٩٥٥ م.

الجهشياري (محمد بن عبدوس المتوفى ٣٣١ هـ):
الوزراء والكتاب. تحقيق مصطفى السقا وآخرين. القاهرة ١٩٣٨ م.

الجواليقي (أبو منصور موهوب بن أحمد المتوفى سنة ٥٤٠ هـ):
المعرّب من الكلام الأعجمي، تحقيق أحمد بن محمد شاكر. دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٦١ هـ.

الجوذري (أبو علي منصور المتوفى في القرن الرابع الهجري):
سيرة الأستاذ جوذر، تحقيق محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة دار الفكر العربي، القاهرة (بدون تاريخ).

ابن **الجوزي** (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ):
المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعارف العثمانية. حيدر آباد، الدكن ١٣٥٧ هـ.

ابن **حجر** (أحمد بن علي العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ):
الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق علي محمد البجاوي. دار نهضة مصر. القاهرة ١٣٨٣ هـ.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، شرح وتعليق الشيخ عبد العزيز بن باز القاهرة ١٣٨٠ هـ.

الحسيني (صدر الدين بن علي المتوفى سنة ٥٧٥ هـ):
كتاب أخبار الدولة السلجوقية، اعتنى بتصحيحه محمد إقبال. دار الآفاق الجديدة. بيروت ١٩٣٣ م.

الحصري (أبو إسحاق إبراهيم بن علي المتوفى سنة ٤٥٣ هـ):
زهر الآداب وثمر الألباب. شرح زكي مبارك، ط ٤. بيروت ١٩٧٢ م.

الحميدي (محمد بن فتوح المتوفى سنة ٤٨٨ هـ):
جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس. القاهرة ١٩٦٦ م.

الحميري (محمد بن عبد المنعم المتوفى سنة ٨٦٦ هـ):
الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس. مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٥ م.

ابن **حيان** (أبو مروان ابن حيان القرطبي المتوفى سنة ٤٦٩ هـ):
المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي. دار الثقافة بيروت ١٩٦٥ م.

الخالدي (بهاء الدين محمد بن لطف الله المتوفى سنة ٩٣٧ هـ):
المقصد الرفيع، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٤٥.

ابن خرداذبه (عبيد الله بن عبد الله المتوفى حوالي سنة ٣٠٠ هـ):
المسالك والممالك، نشر دي غويه بريل ليدن ١٨٨٩ م.

خسرو (أبو معين ناصر المتوفى في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري):
سفر نامه، ترجمة يحيى الخشاب. القاهرة ١٩٤٥ م.

الخطيب البغدادي (الحافظ أحمد بن علي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ):
تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت (بدون تاريخ).

ابن خلدون (عبد الرحمن المتوفى سنة ٨٠٨ هـ):
العبر وديوان المبتدأ والخبر، ط ٣، دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٦٧ م.

ابن خلكان (أبو العباس أحمد بن محمد المتوفى سنة ٦٨١ هـ):
وفيات الأعيان. تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة. بيروت ١٩٦٨ م.

ابن دريد (محمد بن الحسن الأزدي المتوفى سنة ٣٢ هـ):
جمهرة اللغة، الهند، ١٣٤٥ هـ.

ابن دحية (أبو الخطاب عمر بن حسن المتوفى سنة ٦٦٣ هـ):
المطرب من أشعار أهل المغرب. تحقيق إبراهيم الأبياري وآخرين. وزارة التربية والتعليم المصرية، القاهرة ١٩٥٤ م.

ابن الدلائي (أحمد بن عمر بن أنس المتوفى سنة ٤٧٨ هـ):
نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني نشر معهد الدراسات الإسلامة بمدريد. مدريد ١٩٦٥ م.

ابن سعيد المغربي (علي بن موسى المتوفى سنة ٦٨٥ هـ):
المغرب في حلي المغرب، تحقيق شوقي ضيف القاهرة ١٩٥٣ م.

السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر المتوفى سنة ٩١١ هـ):
الجامع الصغير. ط ٤. القاهرة (بدون تاريخ).

أبو شجاع الروذراوري (محمد بن الحسين بن عبد الله المتوفى سنة ٤٨٨ هـ):
ذيل كتاب تجارب الأمم، شركة التمدن المصرية. القاهرة ١٩١٦ م.

الشيرازي (داعي الدعاة المؤيد في الدين هبة الله المتوفى سنة ٤٧٠ هـ):
سيرة المؤيد في الدين. ترجمته وحياته بقلمه. تحقيق محمد كامل حسين دار الكتاب المصري. القاهرة ١٩٤٩ م.

الصابي (أبو الحسين هلال المتوفى سنة ٤٤٨ هـ):
الوزراء، تحقيق عبد الستار فراج، دار إحياء الكتب العربية. القاهرة ١٩٥٨ م.
ـ رسوم دار الخلافة، تحقيق ميخائيل عواد. مطبعة العاني. بغداد ١٩٦٤ م.

الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك المتوفى سنة ٧٦٤ هـ):
كتاب الوافي بالوفيات، باعتناء ديد رينغ. فرانز شتاينر، فسبادن ١٩٧٤ م.

الضبي (أحمد بن يحيى بن عميرة المتوفى سنة ٥٥٩ هـ):
بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٧ م.

الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير المتوفى سنة ٣١٠ هـ):
تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ط ٤ ـ دار المعارف القاهرة ١٩٧٩ م.

ابن **ظافر** (جمال الدين علي المتوفى سنة ٦٢٣ هـ):
أخبار الدول المنقطعة، المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة. القاهرة (بدون تاريخ).

ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد المتوفى سنة ٦٦٠ هـ):
زبدة الحلب من تاريخ حلب. تحقيق الدكتور سامي الدهان. المعهد الفرنسي. دمشق ١٩٥١ م.

ابن عذارى (أبو العباس أحمد بن محمد المتوفى حوالي سنة ٦٢٥ هـ):
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولن وبروفنسال. دار الثقافة. بيروت ١٩٤٨ م.

عريب بن سعد (المتوفى سنة ٣٦٦ هـ):
صلة تاريخ الطبري، ملحق بتاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٤، القاهرة ١٩٧٩ م.

العيني (نور الدين أبو محمد محمود بن أحمد المتوفى ٨٥٥ هـ):
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان. مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ح ٨٢٠٣.

غرس النعمة (محمد بن هلال ت ٤٨٠ هـ):
الهفوات النادرة. تحقيق صالح الأشتر. مجمع اللغة العربية. دمشق ١٩٦٧ م.

أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل المتوفى سنة ٧٣٢ هـ):
المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب اللبناني (بدون تاريخ).

ابن الفراء (أبو علي الحسين بن محمد المتوفى في القرن الخامس الهجري):
كتاب رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة. تحقيق صلاح الدين المنجد بيروت ١٩٤٧ م. نسخة أخرى. ط ٤. بيروت ١٩٨٢ م.

ابن الفرضي (عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٤٠٣ هـ):
تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس. نشر السيد عزت العطار، القاهرة ١٩٥٤ م.

ابن فضل الله العمري (شهاب الدين أحمد بن محيي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ):
التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة ١٩١٢ م.

القاضي الرشيد بن الزبير (المتوفى في القرن الخامس):
كتاب الذخائر والتحف، تحقيق محمد حميد الله. الكويت ١٩٥٥ م.

القاضي النعمان بن محمد (المتوفى سنة ٣٦٣ هـ):
المجالس والمسايرات. تحقيق الحبيب الفقي وزميليه. الجامعة التونسية، تونس ١٩٧٨ م.

ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم المتوفى سنة ٢٧٦ هـ):
المعارف. تحقيق الدكتور ثروت عكاشة. ط ٤. دار المعارف. القاهرة ١٩٨١ م.

ابن القلانس (أبو يعلى حمزة المتوفى سنة ٥٥٥ هـ):
ذيل تاريخ دمشق. بيروت ١٩٠٨ م.

القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي المتوفى سنة ٨٢١ هـ):
صبح الأعشى، دار الكتب المصرية. القاهرة ١٩٢٢ م.

ابن قيم الجوزية (شمس الدين أحمد بن أبي بكر المتوفى سنة ٧٥١ هـ):
أحكام أهل الذمة، تحقيق صبحي الصالح، جامعة دمشق، دمشق ١٩٦١ م.

ابن كثير (الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن عمر المتوفى سنة ٧٧٤ هـ):
البداية والنهاية. ط ٢. مكتبة المعارف، بيروت ١٩٧٤ م.

لسان الدين ابن الخطيب (ذو الوزارتين محمد المتوفى سنة ٧٧٦ هـ):
كتاب أعمال الأعمال، تحقيق ليفي بروفنسال. ط ٢. دار المكشوف، بيروت ١٩٥٦ م.

الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد المتوفى سنة ٤٥٠ هـ)؛
الأحكام السلطانية، ط ٢، القاهرة ١٩٦٦ م.

المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين المتوفى سنة ٣٤٦ هـ):
التنبيه والأشراف، القاهرة ١٩٣٨ م.
مروج الذهب، بيروت ١٩٦٥ م.

مسكويه (أبو علي أحمد بن محمد. المتوفى سنة ٤٢١ هـ):
تجارب الأمم، تصحيح أمدروز، شركة التمدن الصناعية. القاهرة ١٩١٤ م.

المقدسي (أبو عبد الله محمد بن أحمد المتوفى حوالي سنة ٣٩٠ هـ):
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. نشر دي غويه. ط ٢. ليدن ١٩٠٩ م.

المقرى (أحمد بن محمد المقرى. المتوفى سنة ١٠٤١ هـ):
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر. بيروت ١٩٦٨ م.

المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ):
اتّعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا. ج ١. تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال. القاهرة، ج ٢ تحقيق الدكتور محمد حلمي، القاهرة ١٩٧٣ م.

ابن منظور (محمد بن مكرم المتوفى سنة ٧١١ هـ):
لسان العرب، اعداد يوسف خياط ونديم مرعشلي، دار لسان العرب، (بدون تاريخ).

ابن ميسر (محمد بن علي بن جلب المتوفى سنة ٦٦٧ هـ):
أخبار مصر، تصحيح هنري ماسيه، المعهد الفرنسي بالقاهرة. القاهرة ١٩١٩ م.

النباهي (أبو الحسن علي بن عبد الله المالقي المتوفى سنة ٧٧٦ هـ):
تاريخ قضاة الأندلس المسمى كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، نشر خوليان ربيرة، بيروت (بدون تاريخ).

النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب المتوفي سنة ٧٣٣ هـ):
نهاية الأرب في فنون الأدب، ط ٢. دار الكتب المصرية. القاهرة ١٩٢٨ م.

الهمذاني (محمد بن عبد الملك المتوفى سنة ٥٢١ هـ):
تكملة تاريخ الطبري، ملحق بتاريخ الطبري. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٤. القاهرة ١٩٧٩ م.

ياقوت الحموي (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ):
معجم البلدان، دار صادر. ودار بيروت. بيروت ١٩٧٩ م.

يحيى بن سعيد الأنطاكي (المتوفى سنة ٤٥٨ هـ):
التاريخ، نشر ملحقا بكتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق لأفشيوس المكنى بسعيد بن بطريق. بيروت ١٩٠٦ م.

اليعقوبي (أحمد بن واضح المتوفى سنة ٢٨٤ هـ):
تاريخ اليعقوبي، النجف. ١٩٦٤ م.

أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم المتوفى سنة ١٧٩ هـ):
كتاب الخراج، ط ٢. المكتبة السلفية. القاهرة ١٣٥٢ هـ.

المراجـع

بارتولد (ف. ف.):
دراسات في تاريخ فلسطين في العصور الوسطى. ترجمة عزيز حداد مركز الدراسات الفلسطينية بغداد ١٩٧٣ م.

بروفنسال (ليفي):
تاريخ الإسلام في المغرب والأندلس. ترجمة السيد عبد العزيز سالم ومحمد حلمي، مكتبة نهضة مصر. القاهرة ١٩٦٥ م.

بيضون (إبراهيم، الدكتور):
الدولة العربية في أسبانيا، ط ٢ بيروت ١٩٨٠ م.

التابعي (محمد):
الدبلوماسية في الإسلام، مركز النيل. القاهرة ١٩٨١ م.

توفيق (عمر كمال):
تاريخ الأمبراطورية البيزنطية. دار المعارف. القاهرة ١٩٦٧ م.

جرونيباوم: غوستاف فون:
حضارة الإسلام. ترجمة عبد العزيز جاويد وزميله. ط ٢. مكتبة مصر. القاهرة ١٩٥٦ م.

حبيبة (علي، الدكتور):
مع المسلمين في الأندلس، ط ٢. دار الشروق جدة ١٩٧٢ م.

الحجي: عبد الرحمن علي (الدكتور):
أندلسيات. دار الإرشاد. بيروت ١٣٨٨ هـ.

حسن (حسن علي، الدكتور):
تاريخ الدولة الفاطمية، ط ٣. القاهرة ١٩٦٤ م.

راتب (عائشة):
التنظيم الدبلوماسي والقنصلي، دار النهضة العربية. القاهرة ١٩٦٣ م.

الرحيلي (سليمان ضفيدع):
العلاقات السلمية بين الدولة العباسية وأوربا في العصر العباسي المبكر. رسالة ماجستير، كلية العلوم الإجتماعية. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الرياض ١٤٠٢ هـ.

رستم (أسد):
الروم. دار المكشوف. بيروت ١٩٥٥ م.

زكي (عبد الرحمن، الدكتور):
موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام. مكتبة الأنجلو مصرية. القاهرة ١٩٦٩ م.

سالم (عبد العزيز، الدكتور):
دراسات في تايخ العرب، الاسكندرية ١٣٩٨ هـ.
قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٧١ م.

سليمان (أحمد السعيد):
تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة. دار المعارف. القاهرة ١٩٦٩ م.

أبو سعيد (حامد غنيم، الدكتور):
الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية. مكتبة الشباب. القاهرة ١٩٧١ م.

الشيخ (محمد محمد مرسي، الدكتور):
دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس. مؤسسة الثقافة الجامعية الاسكندرية ١٩٨١ م.

صعب (حسن):
الدبلوماسي العربي ممثل دولة أم حامل رسالة. بيروت ١٩٧٣ م.

العارف (عارف):
المسيحية في القدس، مطبعة دير الروم الأرثوذكس. القدس ١٩٥١ م.

عاشور (سعيد عبد الفتاح، الدكتور):
أوروبا العصور الوسطى. الدولة البيزنطية. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٨٢ م.

عبد الرحمن (منى):
السفارات الأجنبية في مصر في عصر المماليك، رسالة ماجستير. كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٧٥ م.

عثمان (محمد فتحي):
الحدود الإسلامية البيزنطية. الدار القومية للطباعة والنشر. القاهرة. (د.ت).

العدوى (أحمد إبراهيم):
الأمويون والبيزنطيون، ط ٢. الدار القومية. القاهرة ١٩٦٣ م.
ـ السفارات الإسلامية إلى أوروبا في العصور الوسطى. دار المعارف. القاهرة ١٩٥٧ م.
ـ المسلمون والجرمان في غرب البحر المتوسط. القاهرة ١٩٦٠ م.

العريني: السيد الباز:
الدولة البيزنطية. دار النهضة العربية. القاهرة ١٩٦٥ م.

عمران (محمود):
السياسة الشرقية للأمبراطورية البيزنطية في عهد الأمبراطور مانويل الأول. رسالة دكتوراه كلية الآداب، جامعة الاسكندرية ١٩٧٥ م.

ـ نيقولا مستيقوس. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٨٠ م.

عنان (محمد عبد الله):
الحاكم بأمر الله. ط ٢. القاهرة ١٩٥٩ م.
دولة الإسلام في الأندلس، ط ٤. الخانجي. القاهرة ١٩٦٢ م.
ـ «يحيى الغزال» مجلة الثقافة. العدد ٢٦١. محرم ١٣٦٣ هـ القاهرة.

عواد (ميخائيل):
المآصر في بلاد الروم والإسلام، بغداد ١٩٤٨ م.

الغمراوي (علي، الدكتور):
الأصول المعجمة مع شواهد من كتاب الحشائش والسموم نقل اصطفان بن باسيل عن كتاب دسيقوريدس في هيولى الطب القاهرة ١٩٧٩ م.

غنيم (اسمت، الدكتورة):
الحملة الصليبية ومسؤولية انحرافها ضد القسطنطينية، دار المجمع العلمي، جدة ١٣٩٨ هـ.
ـ العلاقات السياسية بين الدولتين البيزنطية والفاطمية (٩٦٩-١٠٩٤ م). رسالة ماجستير، جامعة الاسكندرية ١٩٦٨ م.

فازيلييف (أ. أ.):
العرب والروم. ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي. بيروت (بدون تاريخ).

فودة (عز الدين):
النظم الدبلوماسية، دار الفكر العربي (بدون مكان) ١٩٦١ م.

لسترنج (جي):
بغداد في عهد الخلافة العباسية. ترجمة بشير فرنسيس. بغداد ١٩٣٦ م.

المدور (جميل نخلة):
حضارة الإسلام في دار السلام، المطبعة الأميرية القاهرة ١٩٣٦ م.

مصطفى (شاكر، الدكتور):
دولة بني العباس، وكالة المطبوعات. الكويت ١٩٧٤ م.

المنجد (صلاح الدين، الدكتور):
فصول في الدبلوماسية، جزء ملحق بكتاب رسل الملوك لابن الفراء. بيروت، ١٩٤٧ م.

مؤنس (حسين، الدكتور):
«غارات النورمانيين على الأندلس» المجلة التاريخية المصرية. المجلد الثاني. العدد الأول، مايو ١٩٤٩ م.

هازارد (هاري):
أطلس التاريخ الإسلامي، ترجمة إبراهيم خورشيد. مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٤ م.

أبو هيف (علي صادق):
القانون الدبلوماسي، منشأة المعارف. الاسكندرية ١٩٧٥ م.

المراجع الأجنبية

Allen (W. D.): The Poet and the Spae - Wife.
An Attempt to reconstruct Al - Ghazal's.
Embassy to the Vinkings. London 1960.

Bury (J. B.): A History of Estern Roman Empire.
Macmillan. London 1912.

Brehehier (Louis): The Life and Death of Byzantium. North Haland 1977.

Buckler (F. W): Harun Al - Rashid and Charles the Great, Massachusetts, U. S. A. 1931.

Canard (M.): «Deux episodes des relations Arabo Byzantines au xe siecle»: Bulletetin d'etudes orienales (B. E. O). 1949. pp. 51 - 69.
«Le Ceremoniel Fatimite et Le Ceremoniel Byzantin essai de Comparaison».
Byzantion. vol. 21 1951. pp.355 - 420.

Edwyn Hole (C. B. E.): Andalus: Spain under the Muslims. London, 1958.

Finlay (George): History of Greece from it's conquest by the Romans to the present Time. 146 B. C. - A. D. 1864 Oxford MDCCC IXXVII (1877).

Hamdani (Abbas): «Byzantine - Fatimid Relations Before the Battle of Manzikert»:
Byzantine Studies. I (1979) pp. 169 - 179.

Imamudin (S. M.): A Political History of Muslim Spain. Scand Edition. Dacca 1969.

Jinkins (Romily. J. H.): «The Mission of St Demetrianus of Cyprus to Bagdad»:

Studies on Byzantine History of the 9 th and 10 th Centuries. London. S. D.

«The Empror Alexander and Saracen prisoners»:

Atti del VIII congresso internazional di studi Bizauntine I (1953) pp. 389 - 393.

Liddell (H. G.) Scott (R.): Greek - English Lexicon/

Claredon Press. Oxford 1961.

Miller (Dean. A.): Studies in Byzantine Diplomacy: sixth to tenth Centuries. Rutgers - The State University. Ph. D., 1963.

Oaks (D.): «The Embassies of Constantine - Cyril and Photius to Arabs»: Photian and Byzantine Ecclesiastical Studies MCM IXXIV 1967 pp. 569 - 576.

O'Callagban (Joseph. F.): History of Spain. Cornell univ., Press. America 1975.

Ostrogorsky (Goerge): History of the Byzantine State. Translated from the German by J. Hussy. First paperback Edition. London 1980.

Pirenne (Henri): Mohammed and Charlemagne. Translated by Berand Mial. Fifth impression. London 1968.

Rosser (J.): «John the Cramarian's Embessy to Baghdad and Recall of Manuel» Byzantinoslavica XXXVI 1976, pp. 168 - 171.

Runciman (Steven): «Charlemagne and Palestine»: English Historecal Review vol. L. London (Oct. 1935).

Shephard (R. William): Historical Atlas New York 1965.

Stern (S. M.): «An Embassy of the Byzantine Emperor to the Fatimial Caliph al - Muizz»: Byzantion XX (1950) pp.239 - 258.

Toynbee (Arnold): Constantine Porphyrogenitus. London. 1973.

الفهرس

الموضوع	الصفحة